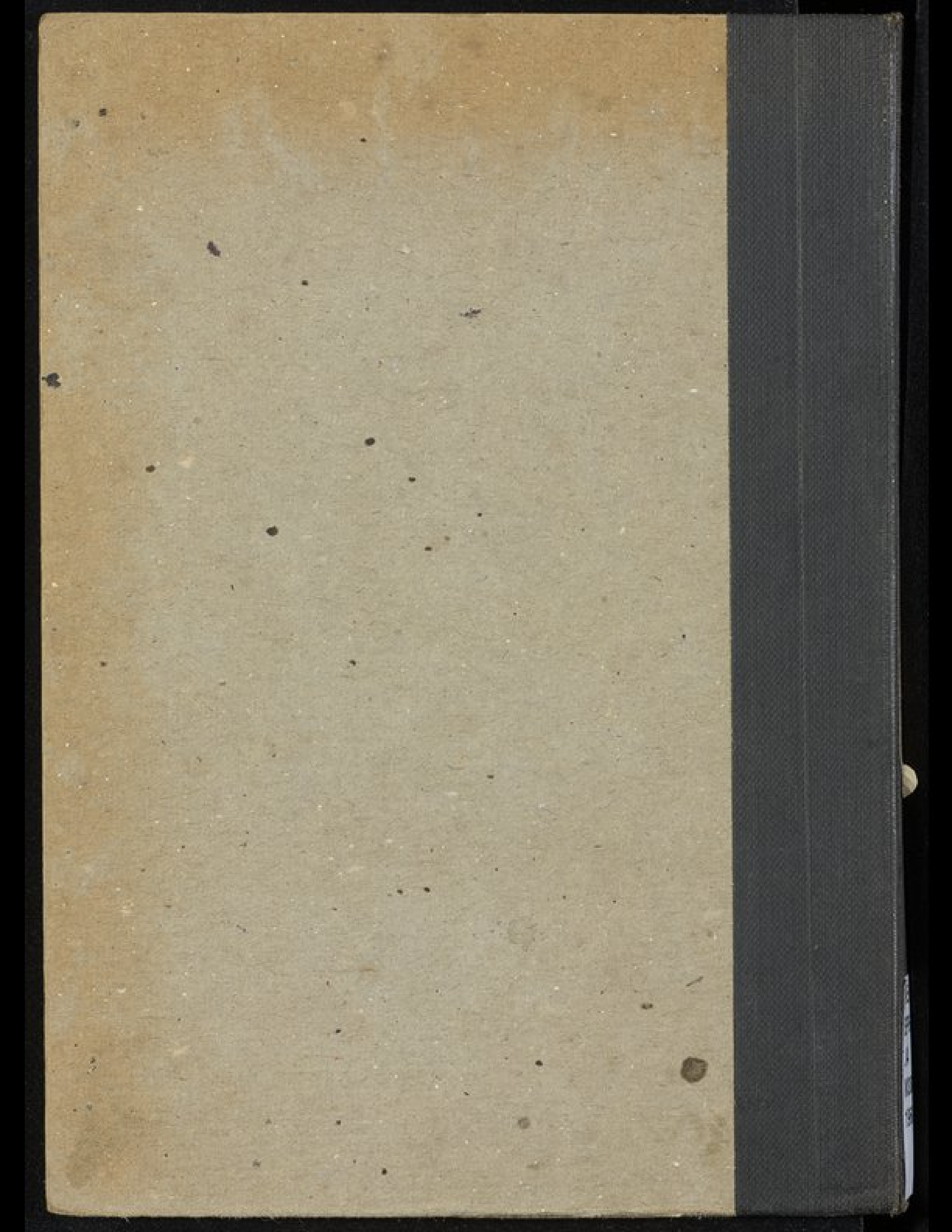
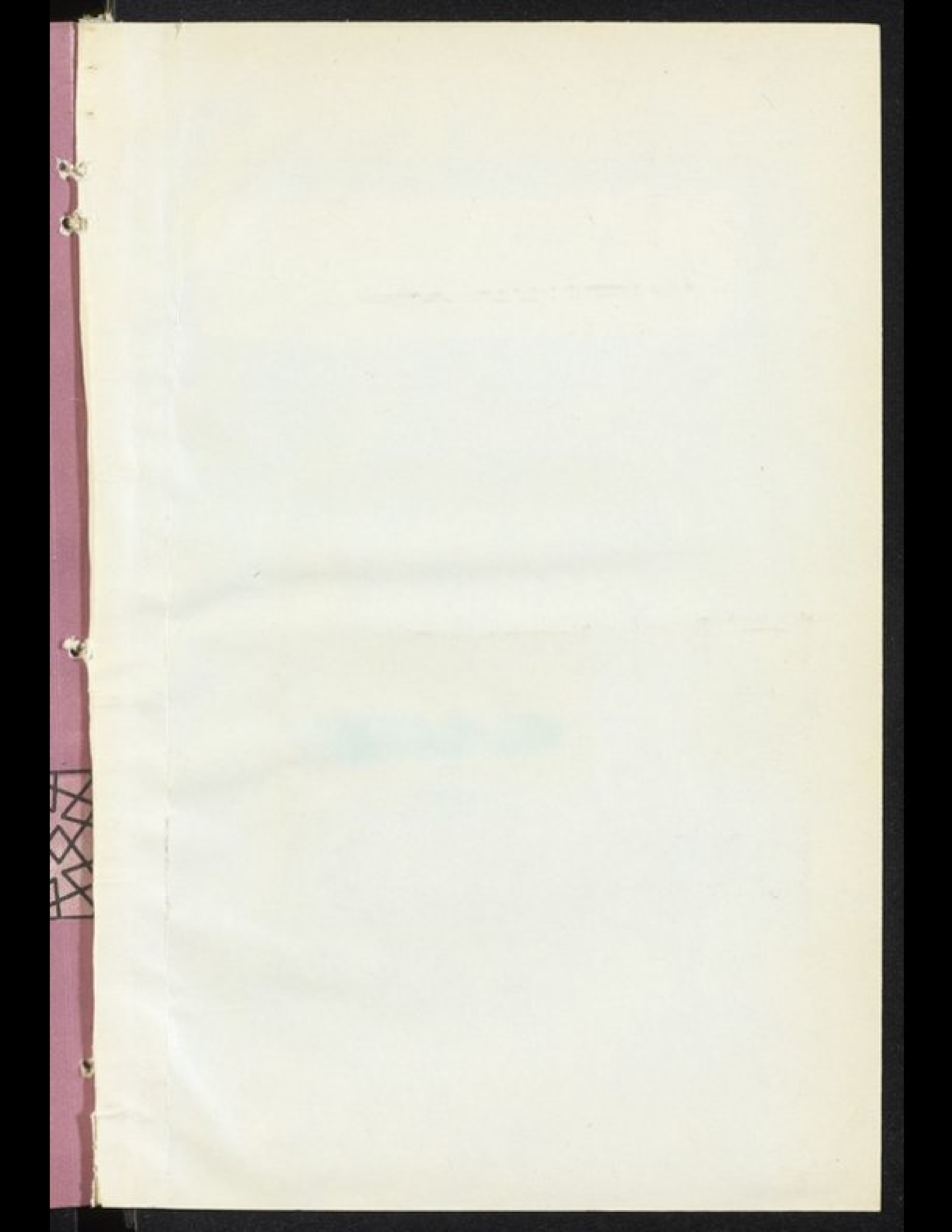




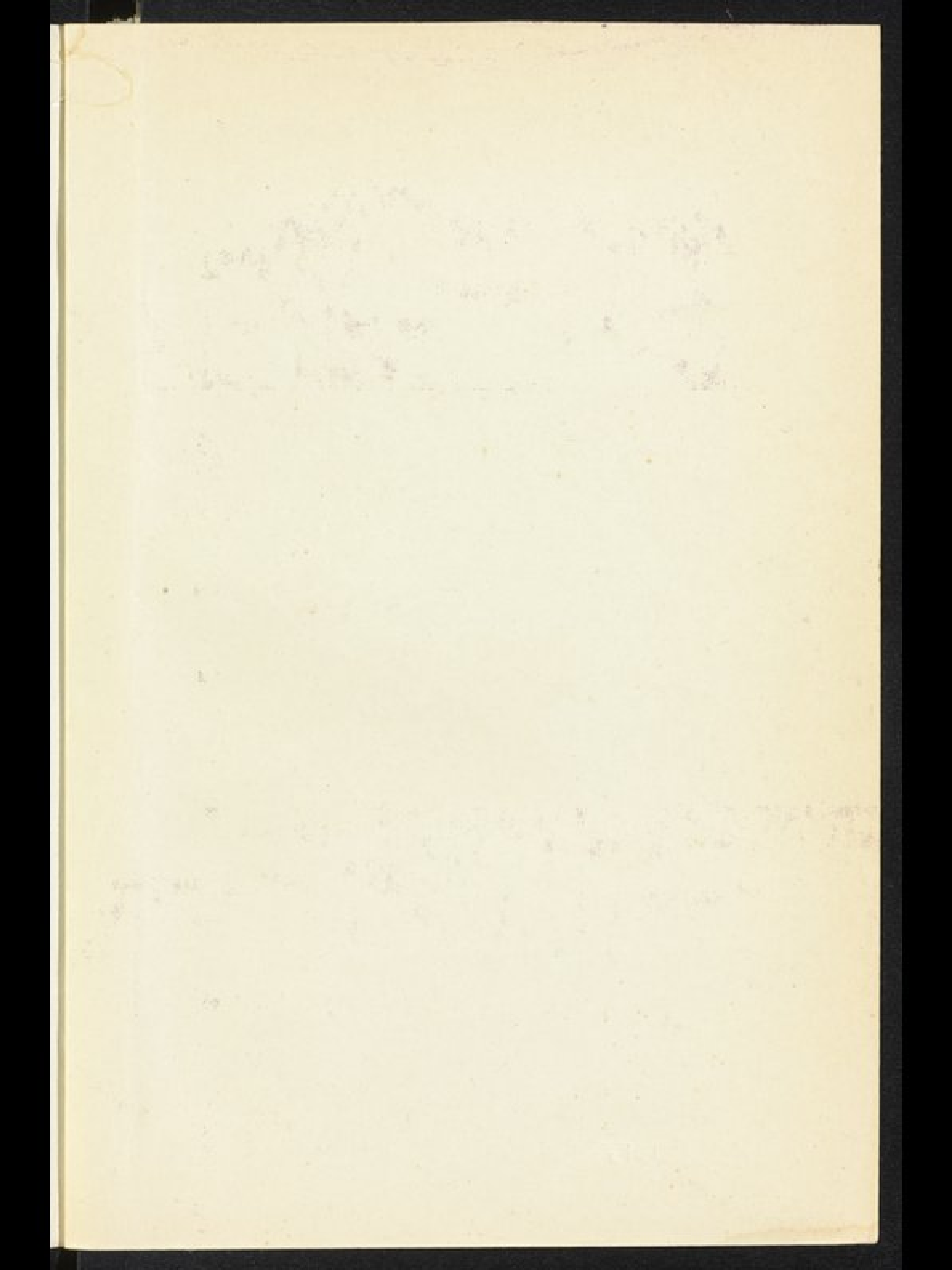




ابو الأعلى المودودي

نحن والحضارة الغربية

دار الفكر بدمشق



ابو الأعلى المودودي



دار الفكر بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

ليس موضوع الصراع بين الفكرة الاسلامية والحضارة الغربية موضوعاً قليل الأهمية بالنسبة للعالم الإسلامي ، فعلى مدى وعي المسلمين لطبيعة المعركة الفكرية التي يخوضونها مع الحضارة الغربية يتوقف مستقبل فكرتهم ورسالتهم الإسلامية . . هل ستصمد هذه الفكرة في وجه الثقافة الغازية مستمدة من مبادئها ما يلبي كل حاجات العصر ويحل مشكلاته؟ أم ستتلاشى أمام نفوذ الحضارة الغربية وسيطرة ثقافتها وقيمها على مفاهيم العصر ؟!

وعلى الرغم مما لهذا الموضوع من أهمية بالغة ، فإن الذين تناولوه بالبحث هم قلة نادرة جداً من كتاب العالم الاسلامي ، كما أن الذين يتلقفون هذا النوع من الأبحاث بالعناية والدراسة هم أيضاً قلة من القراء ... هذه الظاهرة إنما تدلنا على مدى « فقر المسلمين بالأفكار » في عالم أصبحت فيه « ثروة الأفكار » هي مقياس تقدم الأمم ورقيها .

إن الأستاذ الكبير « أبو الأعلى المودودي » هو من هذه القلة النادرة التي تكتب للمسلمين ما يكشف لهم أسباب تخلفهم وانحطاطهم ، وينير لهم سبيل نهوضهم وارتقائهم .

وكتابه « نحن والحضارة الغربية » موضوعات كتبت في مناسبات مختلفة ، وفي أزمنة متباعدة ، بعضها يمتد إلى ما قبل ربع قرن من الزمان... ظاهرة أخرى – إلى جانب الفقر بالأفكار – تدل على قوة العلاقات والروابط الفكرية بين المسلمين كم هي ضعيفة واهية !!

ولقد كنا نتمنى أن يكون الأستاذ المودودي هو نفسه الذي يتولى تقديم كتابه الجديد « القديم » إلى قراء العربية ، لولا أننا أردنا توفير بعض الوقت ، آملين أن يكون في جهدنا الضئيل إغناء للثروة الفكرية الإسلامية وتوثيق للعلائق الفكرية بين المسلمين .

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

الناشر

عبوديتنا الفكرية وأسبابها

إن الحكم والسيادة ، والغلبة والاستيلاء نوعان : أحدهما الغلبة المعنوية والخلقية، والآخر المادية والسياسية . فأما الغلبة من النوع الأول فهي أن تتقدم أمة من حيث قواها الفكرية والعلمية تقدماً يجعل سائر الأمم تؤمن بأفكارها، فتتغلب نظراتها على الأذهان وتستولي منازعها ومعتقداتها على المشاعر وتنطبع بطابعها العقليات . فتكون (الحضارة) حضارتها و (العلوم) علومها و (التحقيق) ماتقوم به هذه و(الحق) ماهو عندها حق و (الباطل) ماتحكم هي عليه أنه باطل. وأما الغلبة من النوع الآخر فهي أن تصبح أمة من شدة الصولة والبأس باعتبار القوى المادية بحيث تعود الأمم الأخرى لاتستطيع أن تحتفظ باستقلالها السياسي ازاءها . فتستبد هذه بجميع وسائل الثروة عند تلك الأمم وتسيطر على تدبير شؤونها كاملة أو إلى حد ما . وكذلك الهزيمة والخنوع نوعان : أحدهما الهزيمة الفكرية والآخر السياسية . وقس بيان هذين على ماسبق من بيان نوعي الغلبة .

وهذان النوعان من الغلبة والاستيلاء منفصل بعضها عن بعض، فلا يلزم أن توجد الغلبة المعنوية حيثما كانت الغلبة السياسية ، كما لايلزم أن تكون الغلبة المادية مصحوبة بالغلبة المعنوية في كل حال .

على أن القانون الطبيعي هو أن كل أمة تستعمل ما آتاها الله من قوى الفكر والعقل وتمضي قدماً في طريق البحث والتحقيق والاكتشاف تمتع إلى جانب رقيها الفكري بالرقي المادي أيضاً. وكل أمة تتقاعد عن السباق في حلبة التفكير والتعمق في العلم تصاب مع انحطاطها العقلي بالتقهقر والاضمحلال المادي كذلك. ثم انه لما كانت الغلبة نتيجة القوة، والهزيمة عاقبة الضعف فان الأمم المتخلفة من الجهتين المعنوية والمادية كلما تهبط في دركات الضعف والفتور تكون أصلح للعبودية وأكثر استعداداً للخنوع، وتصبح الأمم القوية بالاعتبارين المادي والمعنوي حاكمة على عقولها وأجسامها معاً.

إن المسلمين يعانون اليوم هذه العبودية المضاعفة، فمن أوطانهم ماتوجد فيه العبودية بنوعيها جميعاً. ومنها ما يقل فيه جانب العبودية السياسية ويرجح جانب العبودية المعنوية. ومن سوء الحظ أنه ليست لهم على ظهر الأرض رقعة إسلامية واحدة مستقلة تمام الاستقلال من الوجهتين السياسية والمعنوية. وأما البلاد التي قد حصلت لهم فيها الحرية والاستقلال السياسي فهم ليسوا متحررين فيها من ربقة العبودية الفكرية. فها هي ذي مدارسهم ومكاتبهم وبيوتهم وأسواقهم ومجتمعهم حتى وأجسامهم وأشخاصهم تشهد كلها بأنه قد استولت عليهم حضارة الغرب وامتلكت نفوسهم علومه وآدابه وأفكاره. فهم لا يفكرون إلا بعقول غربية ولا يبصرون إلا بأعين غربية ولا يسلكون إلا الطرق التي قد مهدها لهم الغرب. وقد رسخ في نفوسهم، سواء أشعروا به أم لم يشعروا، أن الحق هو ما عند أهل الغرب حق

والباطل ما يعدونه هم باطلا ، إن المقياس الصحيح للحق والصدق والآداب والأخلاق والإنسانية والتهذب هو الذي قد قرره الغرب لكل ذلك . فيقيسون بهذا المقياس ما بأيديهم من العقيدة والإيمان ويختبرون ماعندهم من الأفكار والتصورات والمدنيـــة والتهذب والأخلاق والآداب . فكل مايطابق منها ذلك المقياس يطمئنون إلى صدقه ويفتخرون بمجيء أمر من أمورهم موافقاً للمعيار الأوربي. وأما ما لايطابقه منها فيظنونه خطأ وباطلاً ، شعروا بذلك أم لم يشعروا ، ثم يأتي المتعسف منهم فيتبرأ منه ويرفضه علناً ، ويقف المقتصد منهم باخعاً نفسه عليه ، أو يعود يعالجه جذباً ومداً حتى ينطبق على المعيار الغربي بوجه من الوجوه .

★ ★ ★

وإذا كانت هذه حال الأمم المستقلة منا فحدث ولا حرج عن حال العبودية الفكرية في الأمم المسلمة التي هي واقعة تحت حكم الغرب . أما السبب لهذه العبودية فموضوع يحتاج التبسط فيه إلى كتاب خاص ، ولكنا نستطيع أن نختصره ونلمّ به في كلمات معدودة :

إن الغلبة والاستيلاء المعنوي يقوم بنيانه في الحقيقة على الاجتهاد والتحقيق العلمي . فكل أمة تسبق غيرها اليه تتولى قيادة العالم وزعامة الأمم ، وتستولي أفكارها هي على العقول . وأما الأمة التي تتخلف في هذا الطريق فلا تجد مناصاً من اتباع الغير وتقليده، إذ لا تبقى في أفكارها ومعتقداتها من القوة والاصالة ما يكسبها

السيطرة على الأذهان ، فيجرفها تيار الأفكار القوية والمعتقدات الراسخة التي تتقدم بها الأمة الباحثة المجتهدة ، وهي تكون في وجهه كغثاء السيل ، لاتستطيع أن تدافعه أو تثبت أمامه . إن المسلمين ماداموا يتقدمون في مضمار التحقيق والاجتهاد بقيت جميع الأمم تابعة لهم وسائرة في ركابهم ، وما برح الفكر الإسلامي غالباً على أفكار النوع الاسلامي بأجمعه ، وكل ما اتخذه الاسلام من المقياس للخير والشر والحسن والقبيح والخطأ والصحيح تقدر مقياساً أصيلا لكل تلك الصفات عند جميع أهل الأرض ، سواء أعرفوا أم لم يعرفوا . وما زالت الدنيا تحاول أن تطبق أفكارها وأعمالها على ذلك المقياس الإسلامي طوعاً أو كرهاً . ولكنه لما انقطع في المسلمين نبوغ أهل الفكر وأصحاب التحقيق ولما ترك القوم مزاولة التفكير والبحث والتدقيق ، وقعد بهم اللغوب عن موالاة الاجتهاد وتحصيل العلم ، فلكأنهم تنازلوا من تلقاء أنفسهم عن مكانتهم من قيادة العالم ، ونهضت من جانب آخر أمم الغرب تتقدم في هذا السبيل ، تستعمل ما آتاها الله من قوى الفكر والتدبر وتنقب عن أسرار هذا الكون وتبحث عن ذخائر القوى الفطرية المكنونة في جوف الأرض وأعماق البحار . فكانت نتيجة ذلك ما يجب أن تكون — هو أن انتقلت قيادة العالم إلى أمم الغرب ، واضطر المسلمون إلى الخضوع لسلطتها كمثل ما خضعت الأمم — من قبل — لسلطتهم .

ما زال المسلمون يتقلبون في أعطاف العز والمجد والنعيم الذي

ورثوه عن آبائهم مدة أربعة قرون أو خمسة . وبقيت الأمم الغربية في أثنائها تعمل وتسعى وتجتهد .... — وعن غير بعيد تدفق سيل السلطة الغربية فجأة وجعل يمتد إلى الشرق والغرب حتى غمر ربوع الأرض في مدة قرن واحد . ولما تنبه هؤلاء الغافلون النيام من سباتهم الطويل وفتحوا أعينهم ليتبينوا ماذا طرأ على الدنيا في أثناء ذلك ، رأوا العجب العاجب ، رأوا أمامهم أوربا المسيحية متسلحة بالقوتين — قوة العلم والسيف معاً ، ومستبدة بالحكم والسيادة في الأرض بالقوتين جميعاً . عند ذلك انبرت من بين المسلمين فئة تحاول سد نفوذها ودفع تيارها عن بلاد الشرق ، ولكنها ما كانت من هاتين القوتين — العلم والسيف — على شيء يذكر ، فظلت تفشل وتنهزم في وجهها . وأما السواد الأعظم من الأمة المسلمة فسلكوا ما كان منذ الأزل مذهب أهل الضعف وأبناء الهوان ، وذلك أنه كلما جاءهم من قبل الغرب من الأفكار والمبادىء والنظريات مدعماً ببأس الحديد ومعززاً بقوة الحجاج وشواهد العلم ومزخرفاً بفاتن الألوان أنزله ذوو العقول الفاترة والعقليات المغلوبة هؤلاء منزلة الحقائق التي يجب الإيمان بها . وأما المعتقدات الدينية والمبادىء الخلقية والقوانين المدنية العتيقة التي كانت باقية فيهم على أساس من التقليد والآثار فحسب فقد ذهب بها هذا التيار الجديد القوي ، واستقر في سويداء قلوبهم — من حيث لا يشعرون — أن كل ما يأتي من الغرب هو الحق ومن المقياس للصحة والصواب.

إن الأمم التي عارضت حضارة الغرب وزاحمتها كانت من أنواع

ثلاثة : أمم لم تكن لها حضارة مستقلة مختصة بها . وأخرى كانت لها حضارة مخصوصة ولكنها لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تحاول الحفاظ على خصائصها بازاء حضارة قوية أخرى . وثالثة لم تكن حضارتها تختلف في مبادئها كثيراً عن هذه الحضارة الطارئة . كل هذه الأمم ذابت بكل سهولة في الحضارة الغربية وتلونت بلونها بدون أن يقع بين هذه وتلك كبير احتكاك. ولكن المسلمين كانت حالهم غير حال تلك الأمم جميعاً ، لأنهم حاملو حضارة مستقلة تامة ذات دستور واضح مكتمل شامل لجميع شعب الحياة الإنسانية من ناحيتي الفكر والعمل ، تختلف اختلافاً كلياً عن مبادىء الحضارة الغربية . فكان - بطبيعة الحال - أن جاءت هاتان الحضارتان تتزاحمان في كل مجال وتصطدمان على كل صعيد . ولا يزال هذا التصادم قائماً بين القوتين إلى هذا اليوم يؤثر في كل شعبة من شعب حياة المسلمين العملية والاعتقادية أسوأ الآثار .

★ ★ ★

إن الفلسفة والعلوم التجريبية (Science) اللتان نشـــأت في أحضانها المدنية الغربية مازال اتجاهها إلى الدهرية والإباحية والإلحاد وحب المادة منذ خمسة أو ستة قرون . لذلك ما أن ظهرت هذه المدنية إلى حيز الوجود حتى قامت تعارض الدين وتخاصمه . بل الأصح أنها كانت وليدة صراع العقل والتجربة مع الدين والإيمان . ومع أن الدين لم يناقض شيئاً من مشاهدة آثار الكون والتنقيب عن أسرارها واكتشاف قواعدها الأصولية ، ولا خالفت تعاليمه عملية

التفكير في مظاهر تلك الآثار واستخراج النتائج منها بعد ترتيبها وإعمال القياس والاستدلال فيها ، إلا أنه كان من سوء المصادفات انه لما ظهرت الحركة العلمية الجديدة في أوربا على عهد النهضة الجديدة (Renaissance) وقع عراك شديد بينها وبين القسس النصارى الذين كانوا قد بنوا عقائدهم الدينية على أسس الفلسفة والحكمة اليونانية القديمة ، وكانوا يزعمون أنه إن جاء التحقيق العلمي والاجتهاد الفكري الجديد يصطدم بتلك الأسس ويهدم ركناً من أركانها فان الدين بنفسه سينهدم ويتسوى بنيانه مع الأرض . فهذا الزعم الخاطىء جعلهم يخالفون الحركة العلمية الجديدة ويستخدمون القوة والعنف لمنعها والصد عنها . فأقيمت محاكم التفتيش (Inquisitions) لمحاكمة القائمين بتلك الحركة فعوقبوا أشد العقوبات ونكل بهم من غير رحمة ، ولكن هذه الحركة التي كانت نتيجة نهضة حقيقية راسخة الأصل بقيت تقوى وتنمو على رغم أنف الشدة والقهر ، إلى أن طغى سيل الحركة الفكرية في البلاد وذهب تياره بالسلطة الدينية .

وكان الصراع في بدء أمره بين دعاة حرية الفكر وبين الزعماء الدينيين . ولكن هؤلاء الزعماء لما كانوا يحاربون أنصار الحرية الفكرية باسم الدين ، لم يلبث أن تحول هذا الصراع إلى حرب بين حرية الفكر والنصرانية ، ثم جعل الدين في نفسه ـ أيا كان ـ خصيم هذه الحركة وندها المحارب . وأصبح التفكير على الطريقة العلمية المنسقة شيئاً مضـــاداً لطريق الفكر الديني ومختلفاً عنه .

ووجب على كل من يفكر في مسائل هذا الكون بالطريقة العلمية المنطقية أن يشق لفكره طريقاً آخر مغايراً للنظرية الدينية في تلك المسائل . إن التصور الأساسي للنظرية الدينية في هـذا الكون هو أن كل مالهذا العالم الطبيعي (Physical world) من المظاهر والآثار يجب أن ترد علتها إلى قوة أعلى وأرفع من هذا العالم . ولكنه لما كانت هـذه نظرية أعداء الحركة العلمية الجديدة قرر أصحاب الحركة العلمية أن يحاولوا حل لغز هذا الكون بدون أن يفرضوا وجود إله أو ذات فوق الطبيعة (Supernatural) وأن يعدوا كل طريقة تبحث في مسائل الكون بفرض وجود الإله طريقة رجعية غير علمية (Unscientific) . وبذلك نشأ في قلوب أهل الحكمة والفلسفة في هذا العصر الجديد تعصب على الوجود الإلهي والروح والروحانيات وكل ما فوق الطبيعة ، لم يكن آتياً من ناحية العقل والاستدلال ، بل كان نتيجة لثورة العواطف وغليانها . فكان هؤلاء الحكماء والفلاسفة المستنيرون لا يتبرأون من ذات الله بحجة أنه قد ثبت لهم عدم وجوده أو عدم وجوبه بالأدلة والبراهين ، بل كانوا ينفرون منه لكونه معبود خصومهم وإله المخالفين لحرية فكرية . ومن ثم كان كلما آتت به عقولهم وأفكارهم وأنتجته مساعيهم العلمية في القرون الخمسة التالية نابتاً من جذور هذه النزعة غير المنطقية .

إن الفلسفة والعلوم التجريبية لما بدءا سفرهما في مضمار العمل فمع أنهما كانتا تتجهان إلى الجهة المخالفة للايمان بالله ، كانتا بحكم

الوسط الديني الذي يكتنفهما تتكلفان الموافقة بين المذهب المادي والإيمان بالله بادىء ذي بدء . ولكنه كلما تقدما في المسير ظل المذهب المادي يتغلب على الإيمان حتى خلت تلك الفلسفة والعلوم من تصور وجود الإله وكل ما فوق الطبيعة . وانتهت بهما الحال إلى أن لم يبق شيء من أشياء هذا الوجود ، سوى المادة والحركة ، حقيقياً عندهم. وأصبحت العلوم التجريبية (Naturalism) مرادفة للمذهب المادي، وقر اعتقاد أصحاب الحكمة والفلسفة على أن كل ما لم يكن قابلاً للوزن والذرع ، فهو خيال لا حقيقة له .

يشهد بهذا كله تاريخ الفلسفة والعلوم الغربية . فهذا ديكارت (Descartes) [1] الذي يعد أبا عذر فلسفة الغرب يؤمن - بجانب - بوجود الله أحر ما يكون من الإيمان ويقر بوجود الروح مستقلا عن المادة . ثم هو الذي يبتدع - بجانب آخر - تعليل آثار العلم الطبيعي على الطريقة الميكانيكية ويضع الصخرة الأساسية لذلك الطريق الفكري الذي تحول فيما بعد إلى مادية خالصة (Materialism) . ويتلوه هوبز (Hobbes) [2] فيتقدمه في هذه الجهة خطوة - يخالف ما فوق الطبيعة علناً ، ويعد نظام هذا العالم وكل شيء من أشيائه قابلا للتعليل الميكانيكي ولا يقول بوجود قوة نفسية أو روحية أو عقلية تملك التصرف في هذه الدنيا المادية . ولكنه مع ذلك كله يعتقد بالله وذلك من حيث أن

---

(١) المتوفى سنة ١٦٥٠

(٢) المتوفى سنة ١٦٧٩

الاعتقاد بمثل هذه الملة للعلل ضرورة يستلزمها العقل . وفي هذا العهد يظهر سبي نوزا (Spinoza)[1] زعيم حاملي راية النزعة العقلية (Rationalism) في القرن السابع عشر ، فلا يفرق بين المادة والروح والوجود الإلهي بل يجمع بين الإله والكائنات ويجعل منها كلاً واحداً ولا يقر بهذا الشكل بسلطة الله المطلقة. كذلك يجيء لبنيز(Leibnitz)[2] ولوك(Locke) الإنجليزي[3] كلاهما يقول بوجود الله وينزع مع ذلك إلى المذهب المادي .

هذه فلسفة القرن السابع عشر التي كان الإيمان بالله يتماشى مع المذهب المادي فيها جنباً لجنب ، وكذلك كانت العلوم التجريبية أيضاً لم يغلبها طابع الإلحاد الكامل إلى هذا العهد ، فلم يكن كوبرنيكس (Copernicus)وكيلر(Kepler)وجيليلو(Galilio) ونيوتن وغيرهم من أساطين العلوم الطبيعية ـ لم يكن أحد منهم منكراً للوجود الإلهي ، ولكنهم كانوا يقصدون ، من بحثهم عن أسرار هذا الكون بقطع النظر عن النظرية الإلهية ، أن يعثروا على تلك القوى التي تدبر هذا النظـام ، وعلى القوانين التي هو جار عليها . وهذا النفور من النظرية الإلهية كان هو النواة للدهرية والمادية اللتين طلعتا من شجرة حرية الفكر فيما بعد . غير أن حكماء القرن السابع عشر لم يشعروا لذلك . وما استطاعوا أن يضعوا الحد الفاصـل بين الإيمان بالله

---

(١) المتوفى سنة ١٦٧٧

(٢) المتوفى سنة ١٧١٦

(٣) المتوفى سنة ١٧٠٤

والمادية ، وإنما ظلوا يزعمون أنهما عقيدتان متآخيتان قد يجمع المرء بينهما في الوقت الواحد .

حتى جاء القرن الثامن عشر . فتبين فيه لأهل النظر أن كل أسلوب للفكر يبحث عن نظام هذا الكون بصرف النظر عن وجود الاله لابد أن يصل إلى الالحاد والمادية واللادينية . وفي هذا القرن نبغ أمثال جان طولند (Toland)وداوود هارتلي(David Hartley) ويوسف بريستلي وفولتير (Voltaire) ولامتري (La Mettrie) وهولباخ (Holbach) وكبانس (Cabanis) ودينس ديديره (Denis Didero)ومونتسكيو(Montesquieu) وروسو(Roussea) من أقطاب الفكر الحر من الحكماء والفلاسفة الذين جاؤوا إما ينفون وجود الله علناً أو يصدقونه من حيث هو حاكم دستوري (Constitutional Monarch) ليس إلا ، قد انزوى في ملكوته السماوي بعد أن أعطى هذا الكون خلقه وحرك دولابه ، فليس له الآن في تدبير هذا النظام يد . كان هؤلاء لايعتقدون بشيء خارج الطبيعة وفوق علم المادة والحركة ، وكانوا لايعتقدون الحقيقة لشيء سوى مايأتي تحت مشاهدة الإنسان وتجربته . وجاء هيوم (Hume) يؤيد هذا الطريق الفكري أقوى مايكون من التأييد بنظريته التجريبية (Empiricism)وفلسفته التشكيكية(Scepticism)، وأعاد وأبدأ في الدعوة لجعل التجربة هي المقياس لصحة العلوم العقلية . وقام بركلي (Burkeley) إلى هذا التيار المادي المتدفق يزاحمه ويدافعه بكل ما في وسعه ، إلا أنه لم يوفق . وكذلك

ابتغى هيجل (Hegel) أن يعارض المادية بإشاعة المثالية (Idealism) بين الناس ، ولكن قل من عكف على هذا المذهب الخيالي اللطيف منصرفاً عن المتجسمة المرئية . وحاول كانت(Kant) أن ينهج طريقاً وسطاً بين المادة والروح ، فقرر أن وجود الاله وبقاء الروح وحرية الارادة كل أولئك ليس مما يقع تحت علم الانسان ومشاهدته ولذلك فمن غير المستطاع إدراكه بالحواس . إلا أننا مع ذلك نستطيع أن نؤمن بكل ذلك إيماناً بالغيب ، وتتقاضانا الحكمة العملية (Practical Wisdom) أن نفعل .

هذه كانت آخر محاولة للموافقة بين الاعتقاد بالله والمذهب المادي (Naturalism) ولكنها باءت بالفشل . ذلك بأن الضلال الفكري والعقلي لما جعل الوجود الالهي نتيجة وهم خيال أو أنزله — على أكثر التقدير — منزلة وجود منعزل عن تدبير لا أمر له ولا سلطان ، عاد الاعتقاد والخشية له والرغبة في رضاه لمجرد الأخلاق والآداب شيئاً عبثاً لا يرضى به العقل .

★ ★ ★

وفي القرن التاسع عشر بلغت المادية منتهاها . إذ جاء كل من فوغت (Vogt) وبوخنر (Bochner) وزولبي (Cxolbi)وكومت (Comte) ومولشات (Molschotte) ومن لف لفهم من الحكماء والفلاسفة يبطل وجود كل شيء ما خلا المادة وخصائصها . وقام مل (Mill) باشاعة التجريبية (Empiricism) في الفلسفة والنفسية (Utilitarianism) وفي الأخلاق . وعرض سبنسر (Spencer)

بكل قوة وشدة النظرية القائلة بحدوث هذا الكون بدون خالق، وظهور هذه الحياة من تلقاء نفسها . وجاءت موجة الاكتشافات العلمية في مختلف العلوم والفنون كعلوم الحياة(Biology)والعضويات (Physiology) والحيوان (Zoology) وطبقات الأرض(Geology) وتقدم العلوم التجريبية وتكاثر الوسائل المادية ـ جاء بكل ذلك يؤكد ويثبت في نفوس الناس أن هذا الكون قد حدث من نفسه ليس له خالق ، وهو سائر في طريقه على قوانين معلومة وليس من ورائه مدبر ، وقد بقي يتدرج في منازل الرقي بدون أن يكون لذات فوق الطبيعة تعرف في هذه الآلة المتحركة بنفسها . وان المادة غير ذات الروح لم تكن تتلق الروح بأمر من رب ، وإنما المادة متى ارتقت في نظمها وتركيبها وقعت فيها الروح من ذات نفسها . وان النمو والحركة التابعة للارادة والإحساس والشعور والفكر ـ كل أولئك خصائص لتلك المادة المرتقية . وكل من الحيوان والانسان آلات تجري وتتحرك بحسب قوانين الطبيعة ، وتصدر منها الأفعال والحركات على حسب التركيب الذي قد ركبت عليه أجزاؤها وآلاتها . وهي ليست على شيء من الاختيار الذاتي والإرادة المستقلة . وأما إذا اختل نظام تلك الالات أو نفدت قوتها فعندئذ يحدث الموت،وهو بمثابة الفناء الأبدي ، لأن الالة إذا انكسرت وتفرقت أجزاؤها ، بطلت أيضاً خصائصها ، ولم يعد من الممكن جمعها وإعادة تركيبها مرة أخرى أبداً .

ثم كان لنظرية دارون (Darwin) في الارتقاء أوفر النصيب

في تدعيم هذا المذهب المادي وإحلاله محل النظرية العلمية المنظمة القـائمة على الأدلة والبراهين . ويعد كتابه أصل الأنواع (Origin of Species) الذي ظهر سنة ١٨٥٩ لأول مرة كتاباً انقلابياً عجيباً .فاستدل دارون بالطريقـــة التي كانت أمتن الطرق للاستدلال عند العقول المستنيرة السانتيفيكية في القرن التاسع عشر ، وصدّق النظرية القائلة بأن نظام هذا الكون يمكن أن يجري بدون الاله ، ولم تكن آثار الطبيعة ومظاهرها لتكون لها علة أو مرجع غير قوانين النظرة نفسها ، وإن ارتقاء الموجودات من أبسط مراحل الحياة إلى أعلاها وأقصاهـا نتيجة عمل تدريجي لقوة طبيعية متجردة من صفات العقل والحـكمة . وليس خالق الانسان وخالق سائر الانواع الحيوانية بصانع حكيم ، بل الامر أن تلك الالة الحية التي كانت في بداية أمرهـــا دوداً يدب قد أصبحت بفعل العوامل المختلفة كتنازع البقاء وبقاء الاصلح والانتخاب الطبيعي إنساناً ناطقاً ذا إحساس وشعور .

هاتان هما الفلسفة والعلوم التجريبية اللتان قد نتجت عنها الحضارة الغربية وهي كما ترى لادينية بحتة لا مجال فيها لمخافة إله في السماء عليم وقدير ، ولا وزن فيها لنبوة أو وحي وإلهام ، ولا تصور فيها لحياة أخرى بعد الموت ، ولا خوف من المحاسبـة على أعمال الحياة الدنيا كما لا وجود فيها لمسؤولية ملقاة على الانسان ، ولا إمكان فيها لمقصد أو غاية أجلّ وأسمى من المقاصد الحيوانية لحياة الانسان . هـذه حضارة مادية تماماً يخلو نظامها من كل ماتقوم عليه حضارة الاسلام من خشية الله واتباع القصد وحب الصدق وطلب الحق وطهارة الاخلاق والنزاهة

والامانة والبر والحياء والتقوى والنظافة ، ونظريتها على نقيض من نظرية الاسلام ، وطريقها واسع في الجهة المعاكسة لطريق الاسلام. فكل مايبني عليه الاسلام نظام الاخلاق الانسانية والتمدن، تكاد هذه الحضارة تأتي عليه من القواعد . كما أن الأسس التي ترفع هذه الحضارة عليها قواعد السلوك الفردي والنظام الاجتماعي لا يمكن أن يقوم عليها بنيان الاسلام ولو ساعة من الدهر . فكأن الاسلام والحضارة الغربية سفينتان تجريان في جهتين معاكستين ، فمن ركب إحداهما هجر الأخرى ولا بد . ومن أبى إلا أن يركبهما في الوقت الواحد ، فاتتاه معاً وانشق بينهما نصفين .

★ ★ ★

ومن سوء المصادفات أن القرن الذي بلغت فيه هذه الحضارة الجديدة أوج كمالها من المادية والدهرية والالحاد كان هو القرن الذي ابتليت فيه ممالك الاسلام من لدن مراكش إلى الشرق الاقصى بغلبة أمم الغرب في الحكم والسياسة . فكان هجوم الغرب على الشعوب المسلمة في ميدان القلم والسيف معاً . وأصبح محالاً للعقول التي راعتها غلبة الغرب السياسية وبهتتها أن لا تتأثر بروعة الفلسفة والعلوم الغربية وببريق المدنية التي نشأت في أحضانها . وساءت الحال خاصة في الأمم المسلمة التي دخلت تحت حكم دولة من دول الغرب ، لانها اضطرت لأجل الحفاظ على مصالحها الدنيوية إلى تحصيل علوم الغرب. ولما لم يكن هذا التحصيل مقصوداً من ورائه طلب العلم مجرداً وكان يجلس التلامذة الشرقيون أمام أساتذتهم الغربيين بعقول مرتاعة

مفتتنة ، درج النشء المسلم الجديد على أشد ما يكون من الانفعال والتأثر بالافكار الغربية والنظريات السانتيفيكية العلمية . وظلت عقلياتهم تتلون بلون الغرب وبقي يمتد في نفوسهم نفوذ المدنية الغربية ولم يفتح الله عليهم بالبصيرة الناقدة التي تميز بين الصحيح والزائف فتجعلهم يختارون الصحيح دون الزائف . ولا هم وجدوا في أنفسهم من الاهلية والكفاءة مايفكرون به تفكيراً حراً مستقلاً ويرون آراءهم في مسائل حياتهم بالاجتهاد الشخصي . وكان من عواقب ذلك ما نشاهده اليوم من أن الحضارة الاسلامية قد تزلزلت أركانها وأن العقليات التي كانت حري بأن تفكر التفكير الاسلامي الصحيح قد فسد تكوينها . وأن العقول التي تعودت أن تفكر بأسلوب الغرب وتؤمن بمبادىء حضارته لا تصلح بحكم مزاجها وتركيبها المخصوص أن تستقر فيها مبادىء الاسلام، وإذا هي لم تتسع للمبادىء فما أحراهــــا أن تنفر من الجزئيات والفروع وتخالجها في بابها أنواع الشكوك .

ما من شك فى أن السواد الأعظم من المسلمين لايزال إلى هذا اليوم يعتقد بصدق دعوة الإسلام ويريد أن يبقى مسلماً . ولكن كثيراً من العقول الناشئة لا تزال تتأثر بالفكر الغربي والحضـارة الغربية وتنحرف عن جادة الاسلام انحرافاً هو إلى الزيادة والانتشار كل يوم . وان سيطرة الغرب الفكرية وتمكنه العلمي — بصرف النظر عن غلبيته واستيلائه السياسي — قد غمر الجو الفكري العالمي وغير من وجهات نظر الأبصار بحيث أصبح لايتأتى لأولي النظر أن ينظروا بعين المسلم ولا لأولي الفكر أن يفكروا بأسلوب الفكر الاسلامي. وهذا

الوضع الحرج لن يخرج عنه المسلمون ما لم ينبغ فيهم عباقرة من أهل الفكر الحر . وبعبارة أخرى إن الاسلام في أوقاتنا هـــذه لفي حاجة إلى نهضة جديدة (Renaissance) وان إنتاج المفكرين والمحققين من أسلافنا القدامى لم يعد ذا غناء و كفاية ، لأن الدنيا قد بعدت في سيرها إلى الأمام ولم يعد من الممكن أن يرجع بها القهقرى إلى المراحل التي كانت جاوزتها قبل ستمائة سنة . وان الزعامة في ميدان العلم والعمل اليوم لا ريب مكفولة لمن يتقدم بالدنيا إلى الأمام لا لمن يجذبها إلى الوراء . فاذا كان الاسلام يريد أن يعود إلى مكانته من سيادة العالم فلا سبيل اليه إلا أن ينبغ في المسلمين رجال من أصحاب الفكر والتحقيق ، يهدمون بقوة فكرهم ونظرهم وبحثهم واكتشافهم تلك الأسس القائم عليها صرح الحضارة الغربية . ثم يمارسون مشاهدة الآثار والفحص عن الحقائق على هدى الأسلوب القرآني للفكر والنظر ، ويبنون بذلك نظـــاماً للفلسفة جديداً منتزعاً من الفكر الاسلامي الخالص ، ويرفعون قواعد علوم طبيعية (Natural Science) جديدة تنهض عمارتها على الخطوط المرسومة في القرآن الكريم ، ويبطلون النظرية الالحادية إبطالاً ، ويؤسسون الفكر والتحقيق على النظرية الالهية ، ثم يتقدمون بهذه الحركة - حركة الفكر والتحقيق الجديد - بقوة وعزيمة تضمنان السيطرة على جميع العـالم ، وتقوم في الدنيا حضارة الاسلام الحقة مكان حضارة الغرب المادية .

★ ★ ★

كل ما قلناه آنفاً نستطيع أن نفهم مغزاه ومقصوده بالتمثيل الآتي : إن هذه الدنيا قطار تسيره قاطرة الفكر والتحقيق . ومقاليد هذه القاطرة بأيدي المفكرين والمحققين والنوابغ . والقطار جار لا محالة إلى حيث يريد ساقته أن يجري . والسفر الراكبون فيه مضطرون بطبيعة حالهم أن يسيروا معه كيف سار ، سواء رضوا أو سخطوا . فاذا كان مِن رَكْبِ القطار مَن لا يريد أن يسافر في الجهة التي هو سائر فيها ، فقصاراه أن يغير وجهة مقعده من القدام إلى الخلف أو إلى اليمين أو اليسار ، على حين القطار يجري وهو بعد قار في موضعه فيه . ولكنه لاشك ليس بمغير وجهة سفره بتغيير وجهة مقعده على هذا النحو . لأنه ماهناك من سبيل إلى تبديل وجهة السفر إلا أن يُسطى على مقاليد القاطرة ويدار وجهها نحو الجهة المطلوبة . فالذين هم قابضون الآن على أزمة هذا الجهاز المحرك هم كلهم معرضون عن الله أجانب عن الفكر الاسلامي. لذلك لا يزال القطار يسير بمن فيه إلى المادية والإباحية والالحاد، وجميع الراكبين فيه يزدادون بعداً عن غاية الاسلام ومقصوده. فان أريد تبديل هذا الاتجاه المنحرف وتصحيح الجهة الخاطئة التي يسعى اليها قطار الانسانية فلا بد من رجال أولي همة وعزيمة صادقة ينهضون من صفوف أهل الايمان ويمارسون العمل الجدي والسعي الدؤوب والاجتهـــاد المتواصل ، حتى ينتزعوا مقاليد الأمور من أيدي الملحدين ومن البديهي أنه ما لم يتحقق ذلك وما دامت الحال على ما هي عليه، فلاشك أن القطار لن يزال يسير في هذا الطريق الخاطىء الذي يسوقه اليه أصحابه اللاربانيون مهما كان من ضجر الركاب منه وغضبهم له واحتجاجهم عليه !

انحطاط حضارة الإسلام في الهند

إن الجانب الأكبر من دنيا الاسلام يشتمل على الممالك التي فتحت على أيدي المسلمين المجاهدين من الصدر الأول لتاريخنا. والذين افتتحوها لم يكونوا خرجوا من بيوتهم لفتح الأسواق ولا لجلب الغنائم. وإنما خرجوا في الارض يرفعون كلمة الله في أنحائها ويطلبون الموت في هذا السبيل. كان القوم أشربوا في قلوبهم حب الآخرة قبل طلب الدنيا، فلم يجتزئوا بأن يجعلوا مفتوحيهم مطيعين لهم يعطونهم الجزية عن يد وهم صاغرون، بل صبغوهم بصبغة الاسلام، واجتذبوا رعاياهم كلهم أو السواد الاعظم منهم إلى الملة الحنيفية السمحة، وأثبتوا فيهم الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية إثباتاً جعلهم أنفسهم حاملين لمشعل الاسلام ومعلمين لعلومه ومعارفه. وهذه الممالك تتبعها في التاريخ ممالك أخرى، وإن فتحت في عهد متأخر عن ذلك الصدر الاول، في عهد كان الحماس الاسلامي قد فتر فيه واسترخى وغلب في قلوب الفاتحين طلب الغنائم والفتوح على روح الجهاد في سبيل الله، إلا أن الاسلام تمكن ـ برغم ذلك ـ من أن يتأصل في تلك البلاد وينمو وينتشر، وأن ينزل فيها على مر الأيام منزلة الدين القومي والثقافة القومية. أما القطر الهندي فمن سوء نصيبه أن أمره يختلف عن كلا هذين النوعين من الأقطار.

فهذا القطر فتح جانب قليل جداً منه في الصدر الأول . وهذا الجانب القليل أيضاً ابتلي بتيار الباطنية الذي اجترف كل ما كان فيه من آثار التعليم الاسلامي والحضارة الاسلامية . ولما ابتدأت بعد ذلك سلسلة فتوح المسلمين في الهند ، لم يكن الفاتحون على شيء من خصائص الفاتحين الأول . بل استعمل هؤلاء كل ما أوتوا من القوى في توسيع مملكتهم بدل إشاعة الاسلام . وطالبوا الناس بإطاعتهم أنفسهم بدل إطاعة الله والرسول ، وبأن يؤدوا اليهم الخراج بدل أن يعتنقوا الاسلام . فكان من نتيجة ذلك أن بقي السواد الأعظم من أهالي الهند غير مسلم على رغم حكم المسلمين فيها قروناً متعددة ، ولم تتمكن الحضارة الاسلامية من أن ترسخ في أرض الهند أبداً . ثم ان الذين أسلموا من أبنائها لم يعن أحد بأن يتعهدهم بالتعليم والتربية الاسلامية . فما زالت الافكار والتقاليد الهندكية[1] القديمة باقية - في قليل أو كثير - في الجماهير الحديثة العهد في الاسلام ، وأصبح المسلمون القديمو الاسلام - الطارئون من الخارج - أنفسهم يتسامحون فيما يرون من حولهم من طرائق الشرك ، ويتبعون كثيراً من تقاليد الجاهلية ، بفضل مخالطتهم لأهل الهند .

ويتضح من النظر في تاريخ الهند الاسلامية وفي أحوالها الحاضرة أن الزمان الذي كانت سلطة المسلمين السياسية فيه قد امتدت على الهند بكل قوتها كانت آثار الاسلام ضعيفة فاترة فيها حتى في ذلك الحين ، ولم تكن البيئة في هذه البلاد بيئة إسلامية خالصة . وان الديانة والحضارة

---

(١) نسبة الى هندكي ج هنادك ، رجل من غير المسلمين الهنديين. أما الهندي فكلمة جامعة تطلق على المسلم وغير المسلم من أهل الهند .

الهندكية وإن كانت بذاتها ضعيفة وقد زاد في ضعفها كونها ديانة أمة مغلوبة ، إلا أنها على رغم ذلك كله بقيت مستولية على السواد الاعظم من أهالي القطر لغفلة الحاكمين المسلمين . وأنه بسبب استيلائها على جو القطر الهندي وبسبب كون التعليم والتربية الاسلامية غير كاملة بين المسلمين أنفسهم لم يتسن لمعظم مسلمي الهند أن يكونوا أصحاء في عقيدتهم كاملين في إسلامهم راسخين في ثقافتهم وتهذيبهم ، كما عساهم أن يكونوا لو أنهم عاشوا وسطاً إسلامياً خالصاً .

وفي القرن الثامن عشر انتزعت من أيدي المسلمين حتى تلك السلطة السياسية التي كانت أكبر عماد للحضارة الاسلامية في الهند . فكان ـ أولاً ـ أن تفرقت حكومة المسلمين وانقسمت إلى ولايات صغيرة . وتبع ذلك سيل جارف من المرهتة[1] والسيخ[2] والانكليز، أتى على أكثر تلك الولايات الصغيرة واحدة بعد أخرى . وشاء القدر بعد ذلك أن تنتقل أزمة الحكم والأمر في هذه البلاد إلى أيدي الانكليز. فلم يمض على ذلك قرن واحد حتى أصبح المسلمون محكومين في الارض التي كانوا حكموا فيها وسادوا على طول القرون . وبقدر ما امتد الحكم الانكليزي واتسعت سلطته ، غدا ينزع من أيدي المسلمين بقدر ذلك تلك القوى التي كانت الحضارة الاسلامية قائمة بفضلها في الهند . فاتخذ

---

(١) المرهتة (Marhattas) قوم من الهنادك القاطنين في جنوبي الهند اشتهروا بميلانهم الى الفتن والحروب .

(٢) السيخ (Sikks) قوم من غير المسلمين القاطنين في البنجاب، عرفوا بسذاجة الطبع وقوة الأبدان .

اللغة الانكليزية هي أداة التعليم بدل اللغة الفارسية أو العربية ، ونسخ القوانين الاسلامية وألغى المحاكم الشرعية ، وأنفذ في الشؤون المدنية والجنائية قوانينه الوضعية ، وحصر تنفيذ القانون الإسلامي في شؤون الزواج والطلاق وحدها بين المسلمين أنفسهم . ثم جعل أمر هذا التنفيذ المحدود أيضاً بيد المحاكم المدنية العامة بدل القضاة المسلمين ، وحكام تلك المحاكم من غير المسلمين في الأغلب ، يمسخون القوانين الاسلامية الشخصية (Mohammadan Law) مسخاً مع الأيام . زد على ذلك ان كان من خطة الحكم الانكليزي من أول يومه أن تشد الوطأة على المسلمين في حقل المعيشة والاقتصاد ليكثر بذلك فخارهم القومي الذي مازال ينمو فيهم من حيث أنهم أمة حاكمة . وتأدي الأمر بفضل هذه الخطة المدبرة إلى أن تركت الأمة المسلمة في الهند فيما شاء لها حاكمها من إفلاس وجهالة وتخلف فكر وفساد أخلاق ومهانة !

وكانت الضربة القاضية على هذه الأمة المتساقطة ما أصابها أبان ثورة ١٨٥٧ م ، فذلك لم يسلب المسلمين قوتهم السياسية وحدها ، بل أضعف فيهم الهمم وأدخل على نفوسهم اليأس وشعور الذلة والهوان ، وأوقع في قلوبهم من الروعة والفزع للسلطة الانكليزية مالم تبق معه إثارة من الغيرة القومية فيهم . ولما وصلوا إلى هذا القرار من الذل والمسكنة اضطروا إلى الاعتقاد بأن السلامة في هذه الدنيا هي في إطاعة الانكليز ، وان العزة في خدمة الانكليز ، وان التقدم والرقي في تقليد الانكليز ، وان ماعندهم أنفسهم من ثروة العلم والحضارة هو كله مهين ، موجب للخزي والعار ومسبب للنكبة .

ولما هب القوم في النصف الآخر من القرن التاسع عشر وهموا بالنهوض من كبوتهم وجدوا أنفسهم في نوعين اثنين من الضعف: أولهما أنهم لم يكونوا — مذ أسلموا — راسخين في العقيدة والثقافة الاسلامية من ناحيتي الفكر والعمل وكان يحيط بهم فوق ذلك وسط غير إسلامي بأفكاره الجاهلية وتمدنه الجاهلي. والآخر أن العبودية قد استولت لا على أجسامهم وحدها بل على قلوبهم وأرواحهم أيضاً وأنهم قد سلبوا جميع القوى والمقدرات التي تستطيع بها الأمم أن تحافظ على تمدنها وحضارتها.

فلما فتح المسلمون أعينهم في هذه الحالة من الضعف المضاعف رأوا أن الحكم الانكليزي قد أقفل بدهائه أبواب المعيشة والاقتصاد كلها ووضع مقاليدها في المدارس والكليات الانكليزية. فلم يبق بأيديهم إلا أن يعنوا بتحصيل التعليم الانكليزي. وقامت لأجل ذلك حركة جبارة تحت زعامة السير سيد أحمد خان، بعثت في نفوس مسلمي الهند كلها الشعور القوي لضرورة التعليم الانكليزي. وخالف هذه الحركة فريق من المسلمين النازعين إلى القديم، ولكن مخالفتهم لم تفعل شيئاً، والذين كانت بيدهم القوة الحقيقية باعتبار الثروة والعز والنفوذ أيدوا جميعاً هذه الحركة الجديدة، وأقبل المسلمون على التعليم الانكليزي بسرعة مدهشة، وكان من نتيجة ذلك أن النخالة من أبناء الأمة تركت للمدارس الدينية القديمة، حتى يكون منها أئمة المساجد ومعلمو الكتاتيب، وأما المعدن الخالص من الاولاد الاذكياء للطبقات المترفة فبعثوا

إلى المدارس والـكليات الانكليزية لـكي تنقش في ألواح قلوبهم وأذهانهم الصافية نقوش العلوم والفنون الافرنجية .

كان ذلك في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وكان المظهر الاوربي إذ ذاك أن كانت المادية قد بلغت هناك أوج كمالها ، وكانت العلوم التجريبية (Science) قد تم لها الانتصار على الدين (Religion) ، وكانت النظريات القديمة في السياسة والاجتماع والاخلاق والاقتصاد قد بطلت وقامت مقامهـا النظريات الجديدة تحت إشراف الفلسفة والعلوم الحديثة . وتولدت فى أوربا حضارة خاصة نهض بنيانها كاملاً على تلك النظريات الجديدة . وهـــذا الانقلاب العظيم وإن كان قد طرد الدين وطرد المبادىء المبنية على هدايته عن شؤون الحياة العملية طرداً كاملاً ، إلا أن العقيدة الدينية قد كان لها مقـام في دنيا الفكر والشعور إلى العهد القريب ، ولكن قامت الآن حرب في وجهها أيضاً . وان العلوم التجريبية وإن لم يأت أي علم منها ببرهان — يمكن أن يدعى برهاناً — في نقض النظرية الإلهية لهذا الكون ، إلا أن أصحاب تلك العلوم غدوا مستنفرين من تصـور الوجود الالهي وأعـداء للنظرية الالهية ، وذلك بغير برهان أو حجة علمية ، وإنما صدروا في ذلك عن طبعهم ومزاجهم فحسب . ولأنهم هم الذين كانوا يقفون موقف الزعامة العقلية والعلمية في العالم شاع بتأثيرهم مرض النفرة من الإله (Theophobic) كالعدوى المنتشرة . فأفـكار الوجود الإلهي واعتقاد هذا الكون شيئاً وجد من تلقائه ويجري

بنفسه تحت القوانين الطبيعية ، واعتبار عبادة الله نوعاً من التوهم (Superstition) والحكم على الدين بأنه شيء عبث ، وعلى النظرية الدينية بأنها عبارة عن ضيق النظر وظلمة الفكر ، وظن المذهب المادي (Naturalism) شيئاً مرادفاً للتنور العقلي، كان كل ذلك قد أصبح طبيعة العصر ومقتضى التجدد . وكل رجل وإن لم يؤت نصيباً من الفلسفة والعلوم ولم يجتهد شيئاً في تحقيق هذه المسائل بنفسه ، كان يبدي هذه الافكار ويتحمس لها لكي يعد في المجتمع من أصحاب الفكر النير . وكان التفوه بشيء في حماية الروحانية (Spiritualism) أو فوق الطبيعة (Super Naturalism) من باب الكفر . ولو أنه يبدي مثل هذا الرأي عالم من علماء الطبيعة والكيمياء مهما علت منزلته ، كان يفقد اعتباره في الدوائر العلمية السائنتيفيكية وتحبط أعماله ومآثره جميعاً ، ولا يعود جديراً بأن يقبل عضواً في هيئة علمية .

وفي سنة ١٨٥٩ نشر كتاب أصل الأنواع(The Origin of Species) لداروين . وهذا الكتاب هيأ الحطب الجزل اللهيب للمذهب المادي والالحاد المستعر . وإن الحجج التي ساقها داروين لاثبات نظريته المخصوصة للارتقاء وإن كانت ضعيفة ومفتقرة إلى الثبوت ، وكانت سلسلة الارتقاء التي قدمها داروين بكل حماس وجزم لا تفتقد حلقة واحدة ، بل حلقات متعددة من قبل ومن بعد كل حلقة موجودة وان أهل البصيرة والفكر لم تطمئن نفوسهم على هذه النظرية عندما عرضت ، حتى لم يؤمن بها حينئذ أكبر الدعاة اليها

وهو هكسلي (Huxley) ، إلا أنه قبل الناس هذا التعليم الداروبني لنفرتهم من الله ونشروه في مشارق الأرض ومغاربها واستخدموه كسلاح فتاك في محاربة الدين ، لأن هذه النظرية - على حد زعمهم - قد هيأت البرهان لدعواهم - والحق أنها إنما قدمت دعوى تحتاج إلى برهان - إن نظام هذا الكون جار من تلقاء نفسه على القوانين الطبيعية بغير قوة فوق طبيعية . وقام حماة الدين يخالفون هذه النظرية ، واستنفد أسقف اكسفورد والوزير جلادستون كل مايملكان من البلاغة واللسن في الرد عليها ، ولكنهما انهزما ، وفي آخر الأمر ارتاع حماة الدين لهذا الإلحاد الساتيفيكي إلى حد أنه حينما توفي داروين سنة ١٨٨٢م ، كرمته الكنيسة الانكليزية (Church of England) بأعز ماعندها من تكريم ، وذلك أنها أذنت بدفنه في عمارة ويست منستر (West Minster Abbey)والحال أنه كان زعيم الطبقة التي حفرت الدين القبر في أوربا وكان له النصيب الأوفى في توجيه الأفكار إلى الإلحاد والزندقة واللادينية في خلق العقلية التي نشأت في جوها البالشفية والفاشية بعد حين.

* * *

هذا هو الأوان الذي بُعث فيه الصبية والشبان من أمتنا إلى المدارس والكليات الانكليزية للارتواء من التعليم الانكليزي والثقافة الانكليزية. قوم أجانب عن التعليم الإسلامي ضعفاء من الثقافة الإسلامية ، مرتاعون للحكم الانكليزي ، متهافتون على بريق الحضارة الافرنجية، لما دخلوا المدارس الانكليزية كان أول ما انطبعوا به أن تقلبت

عقليتهم وانحرفت ميولهم ومنازعهم من الدين ، لأنه كان من أول مؤثرات ذلك الجو المدرسي فيهم أن يقولوا آمنا ، لكل ما يعرض عليهم باسم كاتب أو محقق من أوربا ، وأن يطالبوا بالحجة والدليل لكل ما يعرض عليهم من القرآن الكريم أو الحديث النبوي أو من آثار أئمة الدين . وإن العلوم الغربية التي تعلمها شباننا في المدارس والكليات بتلك العقلية المنقلبة كانت أصولها وفروعها في الأغلب مخالفة لأصول الأحكام الإسلامية وجزئياتها . ومن الأمثلة لذلك أن تصور الدين في الإسلام هو أنه قانون للحياة الإنسانية ، وتصور الدين في الغرب هو أنه عقيدة شخصية وكفى ، لا علاقة لها في شيء بالحياة الانسانية العملية . وان الإسلام أول مقتضياته الإيمان بالله ولكن ليس الوجود الإلهي في الغرب بشيء ثابت محقق . وان الإسلام يقوم نظام حضارته كله على الإيمان بالرسالة والوحي ، وأن الوحي هناك شيء مرتاب فيه وكون الرسالة والنبوة من جانب الله أمر محفوف بالشبهات . وان الإيمان باليوم الآخر حجر أساسي لنظام الأخلاق بكامله ، وهذا الحجر الاساسي شيء لا أساس له في الغرب . وان العبادات والاعمال التي هي في الاسلام فرائض وواجبات تعد عند الغربيين من تقاليد العصور المظلمة الجاهلة ، مما لا فائدة منه في هذه الآونة . كذلك إن مبادىء الحضارة والتمدن في الاسلام مختلفة تماماً عن مبادىء الحضارة والتمدن الغربيين . فأصل الاصول والمبدأ الرئيسي في الاسلام في باب القانون أن الله تعالى هو نفسه واضع القانون ، وأن رسول الله ﷺ - شارح القانون

ومبينه ، وأن الانسان متبع القانون ، ولكنهم في الغرب لا يعرفون لله حقاً في وضع القانون ، بل واضع القانون هناك هو المجلس التشريعي ، وان الامة ناخبة لذلك المجلس . وفي باب السياسة يطمح الاسلام إلى الحكومة الاسلامية وهدف الغرب في ذلك هو الحكومة القومية . واتجاه الاسلام إلى الدولية (Internationalism) وقبلة الغرب هي القومية (Nationalism) . وفي النظام الاقتصادي يحض الاسلام على أكل الحلال والصدقة والزكاة ويحرم الربا بكل شدة ، ونظام الاقتصاد في الغرب قائم في صميمه على الربا والربح . وفي باب الاخلاق ينظر الاسلام إلى الفلاح الاخروي وينظر الغرب إلى الربح المادي في هذه العاجلة . وفي الشؤون الاجتماعية أيضاً تختلف طريقة الاسلام عن طريقة الغرب في كل أمر تقريباً . فالستر والحجاب وحدود أعمال المرأة والرجل ، وتعدد الازواج وقوانين الطلاق والزواج وتحديد النسل وحقوق ذوي الارحام وحقوق الزوجين وما شاكلها من الشؤون الاخرى المتعددة هي من الامور التي يبلغ فيها اختلاف وجهتي نظر الاسلام والغرب من الجلاء والوضوح بحيث لا حاجة إلى ذكره . ومرد هذا الاختلاف إلى أن مبادئهما مختلفة ومتناقضة .

إن شبيبتنا لما اكتسبوا هذا التعليم الغربي بتلك العقلية المرعوبة بل المغلوبة ، وبذلك التعليم والتربية غير الاسلامية ونشأوا في بيئة الحضارة الغربية ، كان من نتيجة ذلك ما يتقاضاه منطق الاشياء وهو أنهم افتقدوا قوة النقد والتمييز ، واعتبروا كل

ما تعلموه من الغرب مقياس الصحـــة والصواب ، ثم راحوا ينتقدون الاسلام بهذا المقياس مع علمهم الناقص ونظرهم الملون . فـكل ما وجدوا فيه اختلافاً بين الاسلام والغرب لم يشعروا بخطأ الغرب فيه ، بل اعتبروا الاســـلام هو على الخطأ في بابه ، وأقبلوا على مبادئه وقوانينه يحرفونها عن وجههـا ويستبدلون بها مبادىء أخرى .

★ ★ ★

وإن من الحق الذي لا مرية فيه أنه مهما كان من الفائدة التي نالت مسلمي الهند من التعليم الجديد ، من ناحيتي السياسة والاقتصاد ، فان الخسارة التي قد جرها هذا التعليم على دينهم وحضارتهم لا يمكن أن تتلافى بأية منفعة أو فائدة !

الأمم المريضة في العصر الحديث

سواء هذا الشرق أو الغرب ، وهذه الامة المسلمة أو غيرها من الامم ، فقد حلت بها جميعاً نكبة واحـــدة ، هي أنه قد استولت عليها حضارة نشأت في أحضان المادية الخالصة . هـذه الحضارة قد أسست حكمتها النظرية والعملية على قواعد خاطئة . وقد جرت فلسفتها وعلومها وأخلاقها واقتصادها واجتماعها وسياستهـا وقانونها وبالجملة كل مايتصل بها ، قد جرى كل ذلك من نقطة انطلاق منحرفة وبقي يخطو ويرتقي في وجهة غير صحيحة ، حتى انتهى إلى مرحلة ترى منها نهاية هذه الحضارة ـ وهي الهلاك ـ قريباً .

هذه الحضارة انبعثت في أمة لم تكن تملك في الحقيقة نبعاً صافياً طيباً من الحـكمة الإلهية . ولا شك أنه قد كان بينها زعماء دينيون، ولكنه لم تكن بيدهم الحكمة . ولا كان عندهم العلم، ولاالقانون الإلهي . أقصى ما كانوا يملكون هو نظرية دينيـة مخطئة لم تكن لترشد النوع البشري إلى السبيل السوي من سبل الفكر والعمل، مهما شاء أصحابها أن تفعل . كل ما كان لهذه النظرية أن تفعل هو أن تحول دون رقي العلم والحـكمة ، ففعلت . وكان من نتيجة

هذه الحيلولة والمنع أن ثار على الدين من كانوا يريدون الرقي ، فنحوه من طريقهم ومضوا في سبيل آخر لم يكن دليلهم فيه إلا المشاهدة والتجربة والقياس والاستقراء . وغدت هذه الدلائل المرشدة التي هي بنفسها تفتقر إلى الهدى والنور عمدتهم وسندهم في كل أمر . وفي ضوئها اجتهد القوم كثيراً في ميادين الفكر والنظر والبحث والاكتشاف والتمييز والنظم ، ولكنهم انطلقوا من نقطة خاطئة في كل ميدان ، واتجه رقيهم كله إلى هدف غير صحيح . إنهم انطلقوا من نقطة الإلحاد والمادية فرأوا هذا الكون من حيث أنه لا خالق له ولا إله ونظروا إلى الأنفس والآفاق زاعمين أن الحقيقة كلها منحصرة فيما يحسه المرء أو يشاهده ، وأنه لا شيء من وراء هذا الظاهر المرئي . ودرسوا قانون الفطرة وفهموه بوسائل التجربة والقياس ، ولكنهم لم يتمكنوا من أن يصلوا من هـذا الطريق إلى واضع ذلك القانون . ووجدوا الموجودات مسخرة لهم فراحوا يستخدمونهـا ، ولكنه لم يقع في أذهانهم أنهم ليسوا مالكين لتلك الأشيـاء ولا حاكمين عليها ، بل هم خلفاء عليها للمالك الحقيقي . هذه الغفلة والجهل جردتهم من التصور الأساسي للمسؤولية وترتب على ذلك أن اعوج أساس حضارتهم وتمدنهم ومال عن الاستقامة . فأمسوا يعبدون ذواتهم بدل الذات الإلهية . وأوقعتهم الذاتية والأنانية في الفتنة بما حلت منهم محل الإله . وما هو إلا عبادتهم لهذا الإله الكاذب — الذاتية — ما يسوقهم الآن في كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق لاشك أن منازلها

الوسطية رائقة تسر النظر ولكن منزلها النهائي ليس إلا التردي والهلاك . فهذه المبادة للذاتية هي التي قد اتخذت العلوم التجريبية (Science) آلة لتدمير الانسان ، وصبت الأخلاق في قوالب الأثرة والرياء والخلاعة والمجون ، وسلطت على الاقتصاد شياطين الاستبداد والظلم والحرمان . ونفثت في نواحي الاجتماع كلها سموم الأثرة وحب الترف ، وأفسدت السياسة بمفاسد القومية الضيقة والوطنية ومفارقات اللون والجنس ، وعبادة آلهة القوة والسلطة ، فجعلتها آفة شقاء الانسان . وجملة القول أن هذه البذرة الخبيثة التي بذرت ابان النهضة الجديدة في الغرب وقد انشقت عن شجرة باسقة خبيثة للحضارة والتمدن ، أكلها لذيذ ولكنه مسموم ، وزهرها جميل ولكنه شائك ، وأغصانها بهيجة ولكنها تنفث سماً غير مرئي ولا يزال يسمم دم النوع البشري في الداخل .

وهذه الشجرة الخبيثة قد أخذ يتأفف منها الآن أهل الغرب أنفسهم الذين كانوا غرسوها بأيديهم لأنها قد خلقت في كل شعبة من شعب الحياة مشاكل وعقد ، تنتهي كل محاولة لحلها إلى عقد كثيرة أخرى . فكلما جزوا منها فرعاً نبتت مكانها فروع كثيرة شائكة . قلع القوم شأفة الرأسمالية فنشأت مكانها الشيوعية . وقضوا على الديمقراطية فنجمت مكانها الفاشية . وحاولوا حل المشاكل الاجتماعية فظهرت الحركات النسوية المتطرفة (Feminism) وحركة تحديد النسل . وسعوا وراء استخدام القوانين لمعالجة المفاسد الخلقية فنتجت — كرد الفعل — نزعة الخروج على القوانين والاحتراف

بالجرائم . موجز القول أن هناك سلسلة من الفساد لا تنتهي قد أصبحت تخرج من شجرة الحضارة والتمدن هذه ، وقد جعلت الحياة الغربية جرحاً دامياً من المصائب والآلام،يحس في كل موضع منها وفي كل عرق من عروقها وجع الأذى . وان الأمم الغربية قد عيل صبرها على هذا المذاب ، فقلوبها مضطربة وأرواحها تواقة إلى عصير يشفيهم من آلامها . ولكنها لا تدري أين هذا المصير الذي قد تتطلبه . ولا تزال الأكثرية منها تظن خطأ أن منبع كل تلك المفاسد والآلام هو في فروع تلك الشجرة الخبيثة ، فلا يزالون يضيعون أوقاتهم ومساعيهم في تشذيب الفروع ، ولكنهم لايدركون أن الفساد كله في أصلها وجذرها ، وأن الأمل في نشأة فرع صالح من أصل فاسد حماقة وجنون ، وهناك بجانب آخر فئة قليلة من أصحاه العقول قد أدركوا أن الأصل من شجرة حضارتهم هو الفاسد ، ولكنهم لما نشأوا في ظلال هذه الشجرة وتغذت أجسامهم بثمارها يكادون لايفهمون أي شيء يستبدلونه بهذا الأصل الفاسد ، وأن الأصل الصالح هو الذي تتفرع منه أغصان وأوراق صالحة ، وعلى هذا كله تستوي حال الفئتين . فكل أولئك يتطلبون شيئاً يشفي آلامهم ولكنهم لا يعلمون ماهو الشيء المطلوب وأين يوجد ؟

وهذا هو الأوان الذي يجب أن يعرض على أمم الغرب كتاب الله وسنة النبي ﷺ ، ويبين لهم أن هذا هو المطلوب الذي تتوق اليه أرواحكم وتضطرب للبحث عنه ، وهذا هو المصير الشافي الذي

أنتم متعطشون اليه ، وهذه هي الشجرة الطيبة التي نبتت من أصل صالح وتفرعت إلى أغصان غضة ، والتي زهرها طيب الرائحة عادم الشوك ، والتي ثمرها حلو يلذ ويغذي الجسم ، والتي هواؤها نظيف ومنشط للروح أيضاً . فستجدون الحكمة . وستجدون نقطة انطلاق صحيحة للفكر والنظر . وستجدون العلم الذي يشكل السلوك الإنساني على أحسن طراز . وستجدون الروحانية التي هي مصدر الطمأنينة القلبية والهدوء ، لا للرهبان وتاركي الدنيا ، بل للذين يعملون ويجهدون في مزدحم الحياة الدنيوية . وستجدون هنا تلك الضابطة للأخلاق والقانون ، التي بنيت على العلم الكامل الشامل للفطرة الانسانية ، فلم تكن لتتبدل تبعاً لأهواء النفس الانسانية . وستجدون المبادىء الصحيحة للحضارة والتمدن ، المبادىء التي تمحو الامتيازات الكاذبة بين الطبقات وتبطل الفروق المزيفة بين الأمم ، وتنظم الجمع الانساني على أسس عقلية خالصة ، وتخلق جواً آمناً صالحاً للعدل والمساواة والسماحة وحسن المعاملة ، لا يبقى فيه مجال لأن ينشأ بين الأفراد والطبقات والفرق الانسانية تنازع للحقوق أو اصطدام للمصالح أو تحارب لأجل الأغراض والأهداف ، بل يتأتى للجميع أن يعملوا لأجل الفلاح الشخصي والجماعي بالرضى والطمأنينة متعاونين متعاقدين فيما بينهم ، فإن كنتم تريدون أن تقوا أنفسكم الهلاك فعليكم أن تحطموا حضارتكم بضربة من الدهر فتضاف حضارة ميتة أخرى إلى حضارات التاريخ البائدة الكثيرة ، عليكم أن تطهروا قلوبكم من تلك العصبيات – ضد الاسلام – التي

ورثتموها من المغالين الدينيين في القرون المتوسطة والتي لم تهجروها بعد على كونكم هجرتم كل ما يمت إلى تلك العصور المظلمة بسبب ، ثم ترجعوا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ، فاستمعوا لهما وافهموهما بقلوب واعية ، فاقبلوهما .

هذا بالنسبة إلى أمم الغرب . وأما الأمم المسلمة فتختلف حالها عن حال الأمم الغربية فالمرض عندها غير المرض ، وأسباب المرض أيضاً مختلفة ، إلا أن علاج مرضها هو العلاج الموصوف لأمم الغرب . وذلك هو الرجوع إلى ذلك العلم وتلك الهداية التي قد أنزلها الله تعالى بصورة كتابه الأخير على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ .

إن الظروف التي احتك فيها الاسلام بالحضارة الغربية تختلف تماماً عن الظروف التي احتك فيها بالحضارات الأخرى قبل ذلك . فالحضارات الرومية والفارسية والهندية والصينية صادمت الاسلام في وقت كان هذا الدين مسيطراً بكل معنى الكلمة على القوى الفكرية والعملية في متبعيه . وكانت روح الجهاد والاجتهاد قوية فيهم.وكانوا أمة غالبة في العالم من الجهتين الروحية والمادية ، يحلون بين أمم العالم محل الصدارة والزعامة لذلك لم يكن لحضارة من تلك الحضارات أن تدافعهم وتثبت أمامهم . فحيثما ذهبوا أحدثوا انقلاباً في أفكار الأمم ونظرياتها وعلومها وأخلاقها وعاداتها وأسلوب تمدنها . وكانوا أحرى بالتأثير في غيرهم من أن يتأثروا بهم ، ولا شك أنهم اتخذوا أشياء كثيرة من غيرهم ، ولكن كان مزاج حضارتهم قوياً

محكماً إلى درجة أنه كلما دخل فيها من الخارج ذاب في قالبها ، ولم يحدث بذلك فيها سوء مزاج مختلط ، وبالعكس من ذلك ، جاءت الآثار التي تركها هؤلاء في غيرهم سبباً للانقلاب وتغير الأحوال . فمن الحضارات غير المسلمة ما انحلت في الاسلام حتى افتقدت فرديتها تماماً . وأما الأخرى التي كانت أقوى على الحياة فتأثرت بالاسلام إلى درجة أنه طرأ على مبادئها كثير من التغير . على أنه حدث هذا كله في زمان كانت الأمة فيه في أوج الشباب . فالروح فتية والعَضَل قوية والهمم تناطح السحاب !

وحدث بعد ذلك أن المسلمين لطول ممارستهم للحكم بالقلم والسيف غلبهم التعب والكلام . فخمدت فيهم روح الجهاد وضعفت قوة الاجتهاد . فجعلوا كتاب الله الذي منحهم نور العلم وقوة العمل تذكاراً مقدساً غلفوه ووضعوه في المحاريب وتركوا اتباع السنة النبوية ، التي شكلت حضارتهم في صورة نظام مكتمل للفكر والعمل . فكانت النتيجة أن توقف سير رقيهم ، وتحول ذلك النهر الذي بقي جارياً منهمراً على طول القرون إلى مستنقع ساكن في وادي الجمود . فانعزل المسلمون عن منصب الإمامة في العالم وضعف ما كان لأفكارهم وعلومهم وتمدنهم وغلبتهم السياسية من سلطان على أمم العالم . ونشأت إزاء الاسلام حضارة أخرى وتقدمت في موكبها أمم الغرب لتأخذ راية الجهاد والاجتهاد التي طرحها المسلمون . فأما المسلمون بعد ذلك فغلبهم النعاس فباتوا لا يتحركون. وأما الأمم الغربية فظلت تسير وتتقدم في مضمار العلم والعمل حاملة

بيدها تلك الراية ، حتى تبوأت منصب الإمامة الذي نزل عنه هؤلاء ، ففتحت بسيفها الجانب الأكبر من هذه الدنيا ، واستولت أفكارها ونظرياتها وعلومها وفنونها ومبادئها وحضارتها وتمدنها على العالم ، وسيطر حكمها وسيادتها لا على أجسام الناس وحدها بل على قلوبهم وأذهانهم أيضاً . حتى أنه لما تنبه المسلمون من نومهم المستمر على القرون ، رأوا أنه قد تمت الغلبة للأجانب وأصبحت البلاد تحت حكمهم وسيطرتهم، فالآن لا علم إلا علمهم ولا حضارة إلا حضارتهم ولا قانون إلا قانونهم ولا حكومة إلا حكومتهم . ولم يبق بيد الأمة المسلمة شيء سوى الذكرى للعهود الماضية الزواهر . وهذه الذكرى أيضاً أخذت تمحى من صفحة الأذهان.

وفي أيامنا هذه أصبح الاسلام يحتك بالحضارة الغربية على طراز آخر . انه لا شك في أن الحضارة الغربية لاتستطيع أن تزاحم الاسلام بمنكبيها وتقوم أمامه كالند ، ولو أن الاحتكاك يكون بالاسلام الصحيح فلا شك أنه ما من قوة في هذه الارض تستطيع أن تقف في وجهه ، ولكن قولوا لي : أين الإسلام اليوم ؟ إن المسلمين ليست فيهم السيرة الإسلامية ولا الخلق الإسلامي ولا الفكر الاسلامي ، ولا شيء من الحماسة الاسلامية . إن الروح الاسلامية الخالصة لا توجد في مساجدهم ولا في مدارسهم ولا في زواياهم ، ولم يبق من علاقة بين الاسلام والحياة العملية ، وليس القانون الاسلامي بنافذ في حياتهم الفردية ولا في حياتهم الجماعية . وليس هناك شعبة من شعب الحضارة والتمدن يكون تدبير أمرها قائماً

على الطراز الاسلامي الصحيح . في هذه الظروف ليس الاحتكاك في الحقيقة بين الاسلام والحضارة الغربية ، بل هو بين حضارة المسلمين الخامدة الجامدة المتخلفة وحضارة نابضة بالحركة والحياة ، يشرق في جنباتها ضياء العلم وتدفئها حرارة العمل . وكل مايمكن أن يكون من نتائج هذا الاصطدام بين جانبين غير متساويين من حيث القوة والحيوية فهو ظاهر للعيان ، وهو أن المسلمين لايزالون يرجعون على أعقابهم في هـذا المضمار ولا تزال حضارتهم تنهزم ، وهم يتدرجون إلى أن يذوبوا في الحضـــارة الغربية تماماً ويفتقدوا شخصيتهم المستقلة ، وقد غلب قلوبهم وأذهانهم النزوع إلى الغرب في كل شيء ، فلا تزال أذهانهم تنطبع بطـابع الغرب ، ولا تزال قواهم الفكرية والنظرية تتمرن على حسب المبادىء الغربية ولا تزال تصوراتهم وأخلاقهم واقتصادهم واجتماعهم وسياستهم ، لايزال يتلون كل ذلك بلون الغرب ، ولا يزال نشؤهم الجديد ينشـأ على تصور أن القانون الحقيقي للحياة هو الذي قد نزل اليهم من الغرب ، فهذه الهزيمة هي في الحق هزيمة المسلمين ، ولكنهـا لسوء الحظ تعتبر خطـــأ هزيمة الدين الاسلامي نفسه .

فليس هناك قطر واحد بعينه قد أصابته هذه النكبة ولا هناك أمة واحدة قد أحاق بها هذا الخطر ، بل إن العالم الاسلامي كله يمر اليوم بمرحلة هذا الانقلاب الرهيب . إنه كان من واجب العلماء في الحقيقة أن يتنبهوا وينبهوا حينما ابتدأ هذا الانقلاب ، فـكان عليهم أن يتفهموا مبادىء الحضارة الطارئة وينفروا إلى أقطـار الغرب ليتفقهوا في العلوم

التي نهضت على أساسها هذه الحضارة ، كما كان عليهم أن يستعملوا قوة فكرهم واجتهادهم فيأخذوا من الغرب تلك الاكتشافات العلمية والمناهج العملية التي تقدمت بفضلها الأمم الغربية في سبيل الرقي ، ويركبوا تلك الأجزاء الحديثة في مكان النظام التعليمي والحياة المدنية عند المسلمين ، ضمن مبادىء الإسلام ، بصورة تتلافى بها الخسارة العظيمة التي قد تنالهم من الجمود المستمر على القرون ، وتجعل الركب الإسلامي يتماشى مع الزمن الحديث ، ولكن الأسف أن كان العلماء — اللهم إلا من عُصم — قد خلوا من روح الإسلام الحقيقية ، فلم تكن فيهم قوة الاجتهاد ولا التفقه في الدين ولا الحكمة النظرية والعملية ولا القوة للعمل ، فلم يكونوا أهلاً لأن يستمدوا من كتاب الله والإرشاد النبوي في ناحيتي العلم والعمل مبادىء الإسلام المرنة الدائمة ، فيستخدموها في الأوضاع العصرية المتبدلة . وإنما كان قد سرى فيهم داء التقليد الجامد الأعمى للسلف ، مما كان يجعلهم يبحثون عن كل شيء في تلك الكتب الفقهية التي لم تكن منزلة من عند الله حتى تكون أرفع من قيود الزمن المتطور ، ويرجعون في كل شأن من شؤونهم إلى الأفراد الإنسانيين الذين لم يكونوا أنبياء الله حتى تكون بصيرتهم بالأمور متحررة من قيود الظروف والأوقات . وإذا كانت هذه حال العلماء على الأغلب فكيف كان من الممكن لهم أن يقودوا المسلمين قيادة سديدة في حين أن الزمان قد تغير ووقع في دنيا العلم والعمل من الانقلاب العظيم ما كان للعين الالهية وحدها أن تبصره

عبر القرون ، ولم يكن لغير نبي أن يشق ببصره حجب الأزمنة والقرون ليبصره . ما من شك في أن العلماء بذلوا جهدهم لمقاومة الحضارة الجديدة ولكنهم كانوا لا يملكون الوسائل اللازمة لهذه المقاومة ، وذلك أن الحركة لا تحارب بالجمود ، ولا سير الزمن يمنع بقوة المنطق وحدها ، ولا يدفع السلاح الجديد الفتاك بسلاح صدىء قديم . وإن المناهج البالية التي أراد العلماء أن يتخذوها لقيادة الأمة لم تكن تنجح وتفيد شيئاً في هذا الزمان . فان الأمة التي أحاط بها طوفان الحضارة الغربية من جميع الأطراف كيف كان لها أن تغمض عينيها وتعطل حواسها وتنكر وجود الطوفان وتسلم من آثاره ، وكيف كان لأمة ألقى عليها نظام الحضارة والتمدن الحديث نفوذه السياسي أن تجنب حياتها العملية من تأثيره ونفوذه ، على كونها في حال العبودية والهزيمة ، لذلك كان من عواقب ذلك ماينبغي أن يكون : وهو ان انهزم المسلمون في حلبة العلم والحضارة والتمدن أيضاً بعد ان غلبوا في ميدان السياسة . وها نحن نرى الآن بأم أعيننا أن تيار الحضارة الغربية لايزال يجرف في كل منطقة من مناطق العالم الإسلامي وقد انساقت فيه الاجيال الناشئة من المسلمين حتى ابتعدت عن مركزها الإسلامي أبعاداً ساحقة جداً .

ومن سوء الجد أن العلماء الاسلاميين لم يشعروا بخطئهم في الامر حتى إلى هذا اليوم ، فلا تزال جماعاتهم في كل قطر تقريباً ثابتة على مناهجهم القديمة التي خابت لاجلها مساعيهم فيما قبل ،

وما خلا الافراد القلائل لا ينفك يظهر من حال السواد الاعظم من العلماء أنهم لا يجتهدون أن يفهموا الميول المتجددة لهذا العصر والوضع الجديد للعقليات . إنهم مستعدون كل الاستعداد لان يرفعوا النكير على كل مايبتعد بالاجيال المسلمة الحديثة عن الاسلام ، ولكنهم لا يستطيعون أن يكلفوا أنفسهم بتهيئة الترياق لذلك السم الداخل في عروق الامة . إنهم يخفقون دائماً في حل المعضلات العلمية والعملية التي قد خلقتها للمسلمين هذه الاوضاع الجديدة ، لانه لايمكن حل تلك المسائل المعقدة بغير الاجتهاد ، والاجتهاد قد حرمه هؤلاء أنفسهم . وان الاسلوب الذي قد اختاره علماؤنا اليوم لبيان تعاليم الاسلام وقوانينه إنما ينفر الطبقة المتحلية بالتعليم الجديد عن الاسلام بدل أن يجذبها اليه ، وإذا استمع المرء إلى مواعظهم أو اطلع على كتاباتهم فكثيراً مايدعو الله أن لا يكون إيقاعهم الناشز هذا قد بلغ مسامع غير مسلم أو مسلم منحرف . إنهم قد ضربوا حولهم جواً عتيقاً قد مر عليه قرن على الاقل . فهم يعيشون ذلك الجو الماضي ويفكرون فيه ويتكلمون بحسب أحواله. إنه لايشك أحد في أنهم هم الذين قد بقيت نفائس العلوم الاسلامية سليمة من غـير الحدثان بفضلهم وعنايتهم ، وأن كل ماينشر الآن من التعليم الديني بين الجيل المسلم فهو بواسطتهم وبجهودهم . إلا أن هذا البرزخ الهائل المريض — عرض المائتين من السنين — الذي جعلوه بينهم وبين عصرهم الحالي لايسمح بأي صلة تقام بين الاسلام والعصر الحديث. فالذي ينحو اليوم نحو التعليم الاسلامي فهو لايبقى أهلاً لشؤون الحياة

الدنيوية . وأما الذي يرضى لنفسه أن يستمد لممارسة الشؤون الدنيوية فهو يبقى غريباً عن التعليم الاسلامي . وهذا هو السبب في أنه يوجد في كل مكان من العالم الاسلامي طبقتان اثنتان تضاد إحداهما الأخرى، فالطبقة الواحدة تقوم بتدبير الشؤون العلمية والأدبية والسياسية للمسلمين ولكنها جاهلة لمبادىء الاسلام وأصوله، خالية من روح الحضارة الاسلامية غير مستأنسة لنظام الاجتماع الاسلامي والقوانين المدنية الاسلامية، وليس للايمان في قلبه إلا شعاع ضئيل جداً في ناحية بعيدة منه. وأما فيما وراء ذلك فليس بينه وبين غير المسلم فرق. ولكنه لما كان كل ما هنالك من القوة العلمية والعملية في قبضة هذه الطبقة وكانت هـذه هي التي تقوى على تحريك دولاب الحيـــاة فهي لا تزال تتقدم بالأمة إلى أودية الضلال ، وليس هناك من يهديها الصراط المستقيم .

إني أشاهد هذه الحياة وأتمثل ما قد يكون لها من عاقبة محزنة. وإني وإن لم أكن على سعة العلم وشمول الفضل والكمال الذي يستلزمه عمل الإرشاد والتوجيه، ولا كنت أملك من القوة ما أستطيع به أن أصلح هذه الأمة العظيمة في مثل هذه الظروف الفاسدة ، إلا أن الله تعالى قد أودع هذا القلب المتواضع ألماً لهذه الحال البائسة يدفعني إلى أن أستخدم ما أوتيت من قليل العلم والبصيرة فأدعو هاتين الطبقتين من المسلمين إلى الرجوع إلى المصدر الحقيقي للتعليم الإسلامي والينبوع الصافي لحضارة الإسلام، وأبذل في هذا السبيل جهدي المستطاع . إني إذا نظرت إلى عظم هذا الأمر بجانب ، وإلى قلة حيلتي وهواني بجانب آخر ، لم أر عملي هذا إلا جهد المقل. ولكن كل ما في الأمر من الفوز أو الخيبة هو بيد الله تعالى وحده، وليس علي إلا السعي والجهد وقد أردت أن أوسع نطاق هذا السعي ما استطعت !

بين الشريعة الربانية والقانون الوضعي

في أوائل شهر ديسمبر سنة ١٩٣٣ صدر الاعلان الرسمي في أميركا بالغاء قانون التحريم (Prohibition Law) فارتد أهالي الدنيا الجديدة إلى معاقرة المدامة والكأس بعد أربعة عشر عاماً قضوها في مشقة تحريمها . كان تولي السيد روزفلت لرئاسة الجمهورية الأميركية فاتحة الاعلان بانتصار (الخمر) على (الأمر). فأعقبته أولاً إباحة الشراب المزوج بـ ٣،٢ ٪ من الكحول في ابريل من سنة ١٩٣٣ بقانون رسمي . ثم لم تمض عليه بضعة أشهر حتى الغي التعديل الثامن عشر من مسودة الدستور الاميركي الغاء ، وهو الذي حرم به على الناس بيع الخمر وشراؤها وصنعها وتربيها وتصديرها واستيرادها .

كانت هذه أكبر تجربة جربها الانسان لاصلاح الأخلاق والسلوك الاجتماعي بقوة القانون وسلطة الحكم لايوجد لها نظير في التاريخ . وذلك أنه قبل أن يدخل التعديل الثامن عشر على الدستور الأميركي أقيمت في البلاد دعاية واسعة النطاق ضد الخمر ، وبقيت الرابطة المحاربة لوجود الحانات (Anti-Saloon League)

تسعى وتجتهد في ترغيب الاميركيين عن الخمر وتثبيت مضارها في قلوبهم ، بالقاء الخطب وتأليف الرسائل والكتب وعرض المسرحيات وأفلام السينما . وأنفقت في سبيل هذا التبليغ عشرات السنين وبذلت الأموال ، حتى قدر أن نشرات النشر والاذاعة بلغت تكاليفها من لدن بدء الحركة إلى سنة ١٩٢٥ مبلغ خمسة وستين مليون دولار ، وأنه بلغ عدد الصفحات التي سود بياضها لبيان مساوىء الخمر والزجر عنها تسعة آلاف مليون صفحة .

ذلك قبل بدء التجربة . وأما ماتحملته الأمة الاميركية في الاربعة عشر عاماً الماضية من النفقات الباهظات لاجل تنفيذ قانون التحريم فقدر مجموعها بأربعة ملايين ونصف مليون جنيه . وتدل الاحصاءات التي أذاعها ديوان القضاء الاميركي للفترة الواقعة بين يناير من سنة ١٩٢٠ وأكتوبر من سنة ١٩٣٣ أنه قتل في سبيل تنفيذ هذا القانون مائتا نسمة وسجن نصف مليون وغرم الجناة ما يربو على مليون ونصف مليون جنيه ، وصودر من الاملاك مايساوي أربعمائة مليون جنيه .

كل هذا النقص الهائل في الانفس والاموال كابدته أميركا لغرض واحد هو تلقين الامة الاميركية «المتحضرة» مفاسد الخمر الجمة وتنبيهها على مضارها الروحية والصحية والاخلاقية والاقتصادية. ولكن كل هـذه الجهود المتوالية التي بذلت قبل تنفيذ التحريم وبعده بتأييد من قوة الحكومة وسلطانهـا خابت لدى الامة الاميركية بازاء عزمهـا القوي على معاقرة الراح ، وعاد القوم

من هـــذا الجهاد الاصلاحي العظيم بصفقة خاسرة .

لم يكن إخفاق الحكومة الاميركية في تحريم الخمر ولا الغاؤها لقانون التحريم بعد تنفيذه راجعاً إلى أن مضـار الخمر التي أعيد وأبدىء في بيانها فيما قبل واستخدمت سلطة القانون وقوة الدعاية لاستئصالها ، قد تحولت على مرور الايام إلى المنافع والبركات ، أو جاء اكتشاف علمي جديد يصحح آراء الناس في الخمر . بل الحق أن قد برهنت لهم شواهد أقوى وتجارب أوسع وأكثر مما كان منها في الغابر أن الخمر أم الخبائث ، تمت اليها بشابكة النسب القريب جميع الكبائر من الزنا والبغاء واللواطة والسرقة والمقامرة والقتل . وأن لها النصيب الأكبر في تشويه أخـــلاق الأمم الغربية وتخريب صحة أبدانها وإفساد معاشها واجتماعها . ولكن الذي أجبر الحكومة الاميركية مع ذلك كله على استرداد القـانون بعد إصداره واستحلال الخمر بعد تحريمها هو مجرد كون الأكثرية الساحقة من أهل أميركا لم ترض مفارقة الخمر ، وكون الشعب الذي كان حرم بأصواته استعمالها قبل أربعة عشـر عاماً عاد هو نفسه يصر على إباحتها وإطلاق الحرية في استعمالها .

الذي نعلمه أنه لم يجحد أحد من خلق الله بمضار الخمر حتى ولا أشد حماتها وهواتها ، ولا تقدم أحد ممن يخالف تحريمها ببيان لمحاسنها ومنافعها يقام له وزن في جنب مفاسدها الكثيرة . وعندما عرض على المؤتمر الأميركي الاقتراح بادخال التعديل الثامن عشر على الدستور بتأييد قوي من الرأي العام تثبت القوم في الأمر ووازنوا

جيداً بين الحياتين ، حياة بليلة يبلال الراح المباح وأخرى جافة بجفاف الزهد والامتناع ، ولم يتفق المؤتمر على هذا التعديل إلا مراعاة لكل تلك المضار التي في الخمر . ثم أيدته عليه ست وأربعون ولاية من الولايات المتحدة ، وصادق على قانون التحريم التابع له كل من مجلس النواب (Congress) ومجلس الأعيان (Senate) . وتم كل ذلك حسب رضاء الأمة الاميركية وإرادتها . وما دام أمر هذا التحريم حبراً على القرطاس وحديثاً في الأفواه بقيت الأمة تؤيده وتحامي عنه . ولكن العجب ـ وأمر الغرب كله عجب ـ أن لم يكد يدخل هذا القانون في طور التنفيذ وفي حيز العمل حتى تبدلت الأمة غير الأمة ، فعادت ـ وهي أرقى أمم الأرض مدنية وأقواها سياسة وأغزرها علماً وأرجحها عقلاً وأميلها إلى الحقيقة والواقع ـ عادت لا تطيق الصبر عن أم الخبائث هذه ، وما باتت ليلة واحدة بدونها حتى جن جنونها وطارت حواسها ، وأخذت تأتي من الأفعال ما يخيل إلى الناظر أنها توشك أن تشدخ رأسها بفهر أو صخرة كفعل العاشق المجنون في غراميات الشرق .

فلم تكد تغلق الحانات القانونية العلنية في البلاد بجانب حتى انفتحت فيها بجانب آخر آلاف مؤلفة من الحانات السرية (Speak-easies) و (Blind Pigs) التي يحتال فيها أصحابها ضروباً من الحيل لبيع الخمر وشرائها وشربها وسقيها ، اتقاء مؤاخذة القانون . وبلغ من طغيان شهوة الخمر على الناس أن أصبحت دلالة رجل منهم لآخر من أقاربه أو أصدقائه على مكان حانة خفية أو على كلمة سرها(Pass-word)

عملاً من البر والإحسان عظيماً . فبينما كانت الحكومة يتسنى لها قبل التحريم أن تراقب عدد الحانات الحاصلة على الامتياز وتتعهد مايستعمل فيها من أنواع الخمر وتطلع على أحوال المترددين اليها من الناس ، عادت بعد هذا كله لا تستطيع شيئاً من ذلك ، لأن تلك المكامن للعصيان المنتشرة في أرجاء البلاد أكثر وأعم من أن تحيط بها رقابتها ، وعددهـــا أضعاف عدد الحانات العلنية الموجودة في البلاد قبل التحريم . هذا وطفق يباع فيها كل نوع رديء من المسكرات ، ضرره بصحة الانسان أسوأ من ضرر السم الزعاف . ثم كثر تردد الصغار من أبناء الأمة وبناتها إلى هذه الحانات ، مما قلق له أهل الفكر الاميركيون وخافوا سوء مغبته . وغلت أثمان الخمر غلاء فاحشاً وعادت مهنة بيع الخمر من أربح المهن وأنفعهـا ، فصـار يحترف بها ملايين من الناس . وعلاوة على هـــذه الحانات السرية ظهرت هناك فئة من الخمارين المتجولين (Boot-leggers) هم بمثابة حانات متنقلة يبيعون الناس الخمر في المدارس والمكاتب والفنادق والمتنزهات ويتوصلون اليهم حتى في بيوتهم ومنازلهم ، ليجدوا مشترين جدداً لبضاعتهم . والذي قدر على أقل التقدير أنه بلغ عدد الخمارين بعد التحريم عشرة أضعاف ما بلغه قبله . وجاوزت هذه المهنة مدائن القطر إلى القرى والارياف ، فأقيمت في كل قرية معصرة سرية . وبينما كان عدد مصانع الخمر الحائزة للامتياز قبل التحريم لا يعدو أربعمائة ، فقد عثروا في مدة سبع سنين بعد التحريم على قريب من ثمانين ألف مصنع ، ووقعوا على أكثر من تسعين ألف اتون

لصنع الخمر ، إلا أن هذا كله لم يعد على تجارة الخمر بشيء من النقصــــان ، واعترف رئيس سابق لقسم التحريم في الحكومة الاميركية بأنه « لم تتمكن من العثور إلا على عشر مافي البلاد من مصانع الخمر وأتاتينها » . وكذلك زادت مقادير الخمر المستعملة زيادة عظيمة حتى لقد حدث أن أصبح الاميركيون يشربون مئتي مليون غالون (Gallons) من الخمر في كل سنة ، وكانت هذه المقادير أكثر بكثير مما كانوا يستعملونه قبل التحريم .

ثم إن الخمر التي أصبحت تستعمل منها تلك الـكميات العظيمة عادت في كيفيتها أردأ نوعاً وأشد بالصحة ضرراً ، مما جعل الاطباء يقولون فيها : « إن هذا المشروب أحرى بأن يدعى السم من أن يسمى خمراً ، فانه لا ينحدر من حلق الشارب حتى تسري آثاره السيئة إلى معدته ودماغه ، وتبقى أعصابه مأفونة بها مدة يومين كاملين . وما دام الانسان في سكر منه لا يصلح لعمل صالح ولا لحياة طبيعية ، بل هو يميل طبعاً إلى إثارة الضجة والفوضى وارتـكاب المعاصي والإجرام » .

فالاكثار من شرب هذه الاجناس الرديئة من الخمر أودي بصحة أهل أميركا وكثر فيهم الامراض والاسقام . ومن أمثلة ذلك ماتدل عليه الاحصاءات لمدينة نيويورك من انه كان عدد المرضى فيهـا من استعمال الكحول في سنة ١٩١٨ قبل التحريم : ٣٧٤١ وعدد الهالكين من استعماله : ٢٥٢ نفساً . ثم بلغ عدد المرضى فيها لسنة ١٩٢٧ بعد التحريم أحد عشر الفاً وعدد الهالكين سبع آلاف ونصف الالف .

وأما الذين تعدت اليهم آفات الخمر من طريق غير مباشر فأهلكتهم أو جعلتهم في حكم الأموات ، فلم يعلم عددهم إلا الله .

كذلك كثرت الجرائم ، ولا سيما جرائم الصبية والفتيان كثرة فاحشة . وشهد القضاة الاميركيون أنه : « لم تعهد في تاريخ بلادنا هذه الكثرة الكاثرة من الصبيان المقبوض عليهم في حالة السكر » . ولما تجاوزت جرائم الأحداث أقصى الحدود وبلغ السيل الزبى ، قام المسؤولون بالتحقيق في أسبابها فدلتهم الحقائق على أنه من سنة ١٩٢٠ لا تزال معاقرة الخمر والعربدة تزداد وتتفشى بالشبان سنة بعد سنة ، إلى أن تضاعف عدد المتورطين منهم في هذه المعاصي ثلاثة أضعاف ما كان من قبل في بعض المدن في مدة ثمانية أعوام . وصرح الأميرالاي موس (Col. Moss) مدير المجلس الأعلى للنظر في الجرائم (National Crime Council) أن : واحداً من كل ثلاثة أميركيين يتعاطى الجرائم وقد ازدادت جرائم القتل عندنا بقدر (٣٠٠٪) مما كان منها من قبل » .

وحاصل القول أن النتائج التي ظهرت في أميركا عقب تحريم الخمر تتلخص في أنه :

- زالت عن القلوب حرمة القانون ونشأت نزعة للبغي والتمرد عليه في كل طبقة من طبقات المجتمع .
- لم تتحقق الغاية المقصودة من تحريم الخمر ، بل زاد استعمالها بعد التحريم على ما كان عليه قبله .

• تجشمت الحكومة خسائر لا تحصى في تنفيذ قانون التحريم، ومثلها أيضاً أصاب الشعب الأميركي لاشترائه الخمر خفية، فتأثرت بذلك اقتصاديات البلاد .

• كثرت الأمراض واختلت الصحة وازدادت نسبة الوفيات ، وفسدت الأخلاق وشاعت الرذائل وتفاحشت الجرائم في جميع طبقات المجتمع وعلى الاخص في الجيل الناشىء .

وكانت هذه كلها من ثمرات هذا القانون في ناحية التمدن والاخلاق.

ظهرت هذه النتائج كلها في دولة تعد من أرقى دول الارض حضارة ، في زمان هو آلق أزمنة التاريخ بضياء العلم ، وان أبناءها أوفر حظاً من التهذب والثقافة ، تشرق عقولهم بنور الحكمة والعلم ، فهم أحرى أن يعرفوا ما يضرهم وما ينفعهم .

وظهرت هـذه النتائج على حين انه نبهت الامة الاميركية بأسرها على مضار الخمر بدعاية واسعة شاملة بذلت بسبيلها ملايين من الدولارات ونشر لأجلها مئات الملايين من الكتب والرسائل .

وظهرت على الرغم من أن أكثرية ضخمة من الامة الاميركية اتفقت على ضرورة التحريم، وبرضاها وتأييدها عرض على المجلس الاميركي مشروع التحريم وصودق عليه .

وأخيراً ظهرت هـذه النتائج مع كون دولة جبارة كالدولة الاميركية قد أقامت على السعي والجهد للقضـــاء على شرب الخمر وتجارتها بأحسن ما يمتاز به القرن العشرين من الإدارة والتنظيم مدة أربعة عشر عاماً محرمة .

أما قبل أن تظهر هذه النتائج فكانت الاكثرية من الحكومة والشعب كليهما تتفق على تحريم الخمر ، فحرمت فعلاً ، ولكنه لما تحقق بعد التحريم أن الامة لا ترضى هجر الخمر بحال من الاحوال وكانت عواقب إكراهها على تركها أسوأ مما كانت عليه الحال فيما قبل ، عادت الاكثرية من الحكومة نفسها والشعب ذاته تتفق على إحلال الخمر ، فأحلت !

* * *

والآن هيا بنا نرسل الطرف في قطر كان يعد أجهل أقطار الارض في أظلم عصور التاريخ قبل مايزيد على ثلاثة عشر قرناً ، أهاليه أميون ، والعلم والحكمة فيه شيء معدوم ، والتمدن والحضارة أمر لا يعرفه فيه أحد ، وعدد المتعلمين فيه ربما لا يزيد على واحد في عشرة آلاف ، وذلك المتعلم الواحد ليس نصيبه من العلم إلا مثل ما لعامتنا منه في هذه الايام ، ثم ينعدم فيه ما يمتاز به هذا العصر الاخير من الوسائل وإدارات التنظيم ، ونظام الحكم فيه في حالة بدائية لم يمض على قيامه إلا بضع سنين . وأما أهاليه فعشاق للخمر متهالكون عليها متفانون فيها ، في لغتهم نحو مائتين ونصف مائة علم لهذا الشراب وحده ، مما لا نظير له في أية لغة أخرى ، وإن استزدت دليلاً على شغفهم البالغ بها فهذا شعرهم الذي تجد الخمر لحمته وسداه ، مما يخيل إلى القارىء أنهم رضعوها مع لبان أمهاتهم وكانوا يعتبرونها لازمة لزوم الماء لحياتهم .

هذه هي حالة ذلك القطر وهـذه صفة أهاليه ، إذ تخطر ببال

الناس مسألة الخمر فيأتون النبي ﷺ يستفتونه في أمرها ، فيتلو عليهم قول الله عز وجل : (يسألونك عن الخمر والميسر . قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس . وإثمهما أكبر من نفعهما — البقرة٢١٩) . فيسمع النـاس الآية وليس فيها أمر أو نهي وإنما هي خبر وتلقين، يبين الله تعالى به حقيقة الخمر ويخبر عباده بأنها ذات منافع وذات مضار ولكن ضررها أكبر من نفعها . على أنه يكون من تأثير هذا التعليم أن يتركها قوم للاثم الكبير ، ويقولون لا حاجة لنا في شربها ولا في شيء فيه إثم كبير . ويشربها قوم لقوله تعالى : (ومنافع للناس ...) .

ثم أعيد السؤال ثانية عن الخمر ، إذ كان بعض الناس يصلون وهم سكارى فيهذون فقرأ عليهم رسول الله ﷺ مما أوحي اليه : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصـــلاة وأنتم سكارى ، حتى تعلموا ما تقولون — النساء : ٤٣) . فحرم السكر في أوقات الصلاة ، ولكنه تركهـــا قوم بالمرة وقالوا : لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة . وقال قوم: نشربها ونجلس في بيوتنا ، فكانوا يتركونها وقت الصلاة ويشربونها في غير حين الصلاة ، وذلك لئلا يصلوا وهم ثملون ، أو يضطروا إلى ترك الصلاة من أجل السكر .

إلا أن مضرة الخمر الحقيقية ظلت باقية بعد . إذ ربما كان الناس يسكرون فيفسدون . ويؤدي بهم الامر في بعض الاحايين إلى الفتك والقتل . لذلك تطلعت النفوس إلى بيان شاف للخمر . فأنزل الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب

والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون . وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا . فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين — المائدة : ٩٠ — ٩٣) فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : انتهينا يا رب ! وقال أنس رضي الله عنه : حرمت ، ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها ، وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر . قال : فأخرجنا الحباب إلى الطريق فصببنا ما فيها. فمنا من كسر حبه ومنا من غسله بالماء والطين . ولقد غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حيناً ، كلما مطرت استبان فيها لون الخمر وفاحت ريحها .

وقال أنس بن مالك : كنت ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة ، وما شرابهم إلا فضيخ البسر والتمر ، فاذا مناد ينادي ، فقال القوم : اخرج فانظر ، فاذا مناد ينادي : ألا إن الخمر قد حرمت . قال : فجرت في سكك المدينة ، فقال لي أبو طلحة : اخرج فأهرقها ، فهرقتها . وقيل كان رجل يشرب الخمر وأوشكت الكأس أن تمس شفتيه إذا بداخل دخل عليه وقرأ آية التحريم ، فانفصلت الكأس من فيه للحال ، ولم يذق لسانه قطرة مما فيها بعد ذلك .

وكل من شرب منهم بعد ذلك ضربوه بالنعال وبالجريد والعصي ، ثم جلدوه أربعين ، ثم جعلوا حد الشرب ثمانين جلدة .

فكان من نتيجة ذلك أن هجرت العرب شرب الخمر هجراً، ثم حينما بلغ الإسلام أقطار الأرض زهد الأمم فيها ونفرها عنها، حتى صرت ترى اليوم، وقد ضعفت آثار تعاليمه، ملايين من بني آدم في هذه الدنيا يجتنبون الخمر بدون زاجر من قانون التحريم أو مانع من نظام التعزير. ولئن أحصيت اليوم نسبة الشاربين في المسلمين فلعل هذه الأمة توجد أزهد الأمم في الخمر حتى في هذه الحال المتخلفة. ثم لا يشرب من هذه الأمة شارب إلا وهو يعتقد أنه يرتكب إثماً ومعصية، فيندم عليه في قلبه، وربما تاب عنها من تلقاء نفسه.

★ ★ ★

إن العقل والمنطق يقوم حكمهما الفيصل النهائي على التجارب والشواهد وحدها. وشهادة التجربة عندهما مما لا يمكن أن يكذب أو يرد، فبين يديك الآن تجربتان اثنتان: تجربة أجريت في أميركا في العهد القريب وأخرى جرت في العرب في صدر الإسلام، والفرق بينهما ظاهر لذي عينين، فلك أن توازن بينهما وتقارن، ثم تستخلص من ذلك ماقدر الله لك من العبرة.

ففي القطر الاميركي قام أولوا الإصلاح بدعاية واسعة ضد الخمر مدة سنوات طوال، وبذلوا ملايين من الدولارات لإعلان مضارها ومساوئها، وبينوا آفاتها وسيىء آثارها في جسم الإنسان وأخلاقه واقتصاده بأدلة ناهضة من تعاليم الطب والاستنباط المنطقي، وأثبتوها اثباتاً لا يدع أحداً في شك من الامر. بل أروا الناس

مضار الخمر رأي العين متمثلة في الصور ، وسعوا سعيهم لأن يؤمن الناس بمفاسد أم الخبائث فيستعدوا لتركها من تلقاء أنفسهم . ثم إن المؤتمر الاميركي وهو أكبر حزب سياسي للاميركيين حينئذ قطع بتحريم الخمر بأكثرية غالبة ، فسن له قانوناً ، ثم جاءت الحكومة - وهي من أعظم حكومات الارض وأقواها - فاستفرغت جهودها لمنع بيعها وشرائها وصنعها وتربيبها وتصديرها واستيرادها ، ولكن الامة - وهي في طليعة الامم المثقفة المستنيرة - لم ترض هجرها ، فاضطر القانون في مدة أربعة عشر عاماً أن يرجع القهقرى فيحل بنفسه ما حرمه فيما سبق .

وبجانب آخر ، ما قام أحد في الإسلام بنوع من الدعاية ضد الخمر ، وما بذلت صفراء ولا بيضاء في النشر والاذاعة في هذا الصدد ، وما قامت في بلاد الاسلام رابطة تحارب وجود الحانات ، وإنما أعلن الرسول ﷺ على الناس أن يا قوم لقد حرم الله الخمر ، ولم يخفت دوي إعلانه حتى امتنعت الامة - التي كانت أعشق للخمر من الامة الاميركية ، ثم لم تكن من العلم والتعقل المتعارف عليهما في هذا الزمان على شيء يذكر في جنبها - فأمسكت عن الخمر وودعتها وداعاً لا رجعة لها بعده اليها مادامت في دائرة الاسلام . وهي لان تبقى حصوراً عن الخمر لا تحتاج إلى قوة حاكمة أو محاسبة أو نظام تعزيري ، بل تجتنبها وتتنزه عنها وإن لم تكن فوقها قوة قاهرة تكرهها عليه . ثم ان تحريم الخمر في الاسلام ليس من النوع الذي يمكن أن يخفف أو يحول إلى التحليل بحال من

الاحوال ، بل الامر أنه إن اتفق جميع المسلمين في الارض على تحليل الخمر وأعطوا أصواتهم بحق ذلك ، لم يستطيعوا أن يحلوا هـذا الحرام أبداً .

وإن تدبرت أسباب هذا الفرق العظيم بين التجربتين ، تبينت أموراً هي كالاصول الكلية الثابتة لا في الخمر وحدهـا بل في جميع مسـائل القانون والاخلاق .

أولها : أنه فرق أساسي عظيم بين الاسلام والقوانين الوضعية في تنظيم السلوك الانسـاني ، فالقوانين الوضعية تعتمد تماماً على الرأي الانساني ، وهي مضطرة بطبيعة الحال إلى مراجعة رأي الخاصة والعامة في كلياتها وأصولها بل في كل فرع منها ، وشأن الرأي الانساني ـ سواء كان للخاصة أو للعامة ـ أنه لايزال يتأثر في كل آن بالعواطف والنزعات الانسانية والاسباب والعوامل الخارجية وأحكام العلم والعقل القـابلة للتغير ـ مما لا يلزم أن يكون صواباً في كل حال ـ وهذا التأثر يؤدي إلى التغير في الافكار والآراء ، وبهـذا التغير تتبدل بالضرورة مقاييس الخير والشر والصحيح والخطـأ والجائز والمحظور والحرام والحلال ، واضطراب هذه المقاييس يكره القانون على أن يميل معهـا حيث مالت ، وبذلك لا يتحقق للاخلاق والمدنية مقياس ثابت مستحكم غير قابل للتغير ، بل يتحكم تلون الطبع الانساني في القـانون وتلون القانون في الحياة الانسانية . مثل ذلك كمثل سـائق رهض ، يسوق السيـارة ، فتعبث يداه الخرقاوان بموجهتـا يميناً وشمالاً بدون نظام . واضطراب الموجهة يعقب اضطراباً في سير السيارة، فلا تلتزم

طريقاً مستقيماً ، وإذا هي سارت مثل هـذا السير المتخلج يمنة ويسرة فلا بد أن يتأثر به السائق ومن معه في السيارة،فيكونون تارة على سواء الطريق وتارة على عِذاريه ، يخشى في كل حين أن يسقط بهم المركب في فجوة أو يصطدم بهم بصخرة ، أو يصيبهم من صدمات الطريق ما هو أتعب وأشد .

وبخلاف ذلك إن جميع الأصول الكلية ومعظم الفروع الجزئية للقانون والأخلاق في الاسلام هي من وضع الله والرسول، وليس للرأي الانساني إلى التدخل فيها من سبيل ، وإن كان له بعض الدخل في الجزئيات فهو لا يعدو أن يستنبط الانسان فروعاً جديدة من تلك الأصول الكلية والشواهد الجزئية مراعاة لأوضاع حياته المتبدلة ، تنطبق على أصول الشرع حتماً . ومن بركات هذا التشريع الرباني أنه يضع بأيدينا مقياساً ثابتاً للمدنية والاخلاق لا يتزلزل . فلا يكون في قوانيننا الخلقية والمدنية أثر للتلون، ولا يمكن عندنا أن يصبح حرام الأمس حلالاً اليوم ثم يعود حراماً غداً ، وإنما الحرام في الاسلام حرام إلى أبد الآباد والحلال حلال إلى يوم المعاد . وقد أسلمنا زمام مركبنا إلى حاذق تام البراعة واطمأننا إلى أنه سيجريه على الطريق المستقيم (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين) .

والأمر الثاني الخطير أن السلطات الدنيوية إذا أرادت وضع القواعد الانسانية ومحاولة الاصلاح في التمدن والأخلاق والاجتماع، فهي تحتاج في كل مسألة فرعية إلى استرضاء عامتها للاصلاح المنشود

فيها قبل أن تتولاه وتأخذه في العمل له . ولذلك يتوقف نفاذ كل مادة من مواد قانونها على رضاء جمهور العامة . وكل ما ينفذ في البلاد من قانون إصلاحي أو تنظيمي بخلاف رضاهم فانه لامحالة ينسخ ويلغى آخر الأمر بعد كثير من الفساد،واضطراب الأحوال. وليس هذا مما جربته أميركا وحدها وإنما تشهد به تجارب الدنيا بأجمعها . وهذا دليل على أن القوانين المدنية عقيمة نكدة لاتغني شيئاً في إصلاح الأخلاق والاجتماع ، لأن المفسدين الذين ترمي هذه القوانين إلى إصلاحهم هم الذين يتوقف على رضاهم تقرير تلك القوانين أو رفضها وتنفيذها أو إلغاؤها .

وقد حل الإسلام هذه العقدة بطريق آخر ، إن تأملته علمت أنه لا حل لهذه المشكلة سواه . وهو أنه قبل أن يتعرض لمسائل التمدن والاجتماع والأخلاق ، وقبل أن يطالب الإنسان بإطاعة قوانين الشرع ، يدعوه أن يؤمن بالله وبكتابه ورسوله . أما قبول الإنسان دعوته أو رفضه إياها فلا شك موقوف على رضاه ، وهو مختار في أن يؤمن أو لا يؤمن ، ولكنه متى آمن بالله والكتاب والرسول بطل كل سؤال بعد ذلك عن رضاه أو عدم رضاه ، وأصبح كل ما يأمره الرسول عن الله تعالى وكل مايقرره كتاب الله أمراً واجب الإذعان له . وإذا ثبت هذا الأصل من الإيمان بالله جرى عليه جميع القوانين الشرعية ولم يعد لرضاه أو سخطه دخل في مسألة كلية أو جزئية . وهذا ، لو تأملت ، هو السبب في أن المشروع الذي لم يتحقق في أميركا على رغم

ما أهلك في سبيله من ملايين الدولارات وعلى رغم ذلك التبليغ والدعاية والنشر النادر النظير في تاريخ الأمم ومساعي الحكومة المتوالية على طول السنين — تحقق في دنيا الإسلام بإعلان واحد أعلنه الرسول عن ربه .

والعبرة الثالثة : أن جماعة إنسانية مهما وفر نصيبها من نور العلوم والفنون ومهما علا مقامها في سماء الارتقاء العقلي لا يمكنها التخلص من براثن الهوى ما لم تكن مطيعة للقانون الرباني ومتمتعة بقوة الإيمان ، ولا بد أن يكون عليها من سلطان الأصول النفسية ما لا تطيق معه الصبر عما تألفه وتميل إليه ، وإن بينت لها مضاره أجلى من شمس النهار ، وجئت بالعلوم التجريبية — أي جئت بآلهة العقليين — شاهدة على مساوئه ومفاسده ، وعرضت عليها شهادة الاحصاءات — التي لا تكذب أبداً عند أهل الحكمة في هذا العصر — وبرهنت آفاته وأضراره بالتجربة والمشاهدة .

ومن ذلك كله يتضح ويثبت أن بعث الحاسة الخلقية في الانسان وتنشئة الضمير المحاسب فيه ثم تزويد هذا الضمير من القوة بما يتغلب به على النفس الأمارة — كل ذلك ليس من مقدور العلم والحكمة ولا هو في طوق العقل والمنطق ، بل هو مما لا يحققه إلا الايمان وحده .

انتحار الحضارة الغربيّة

لشد ماتندهش العقول لما ترى من هذا الرقي العجيب الذي حازته أمم الغرب في ميادين السياسة والتجارة والصناعة والحرف والعلوم والفنون . وإنه ليخيل اليها أن رقي هـذه الأمم الغربية أبدي سرمدي ، وأنه قد قضي الأمر بدوام غلبتها واستيلائها على العالم ، وأنها قد اختصت ـ دون غيرها ـ بالحكم على البسيط الأرضي والسيطرة على عناصر الكون ، وأن قوتها قد بلغت من الشدة والرسوخ أن لا يمكن استئصالها .

مثل هذا الظن قد غلب العقول في كل زمان بالنسبة إلى كل تلك الأمم التي كانت « الأمة الغالبة » في زمانها . ففراعنة مصر وأمتا عاد وثمود في العرب ، والكلدانيون في العراق ، وأكاسرة فارس ، والغزاة اليونان العالميون ، وملوك الروم الحاكمون على أقطار الأرض ، والمجاهدون المسلمون الفاتحون للعالم ، والجنود التتر المضرمين للبلاد ، ـ كل أولئك قد مثل دور القوة والسيادة على مسرح هذه البسيطة . فأي من جاءت نوبته منهم ، صعد المنصة وأدهش العالم ـ كفعل الأمم الراقية اليوم ـ بما عرض من مظاهر

قوته ومشاهد ذهابه وإيابه في أنحاء الأرض . وكل أمة من تلك الأمم لما نهضت غمرت العالم كله بسيادتها ، وقد سمع دوي شوكتها وجبروتها في ربوع الأرض على هـذا النحو ، وهكذا ارتاعت الدنيا لعظمتها وخيل اليها أن قوتها لن تزول . ولكنه لما جاء أجلها وقضى بزوالها الحاكم القوي الذي لا زوال لقوته أبداً ، عثرت عثرة لم ير لأكثرها وجود بعدهـا ، ولو أنه بقيت لبعضها آثار الوجود بعد ذلك ، فانها هانت إلى درجة أنها خضعت لمحكوميها بالأمس وأصبحت مملوكة لمماليكها في الغابر . (قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين).

ومن خصيصة نظام هذا الكون أنه لاسكون له ولا وقوف. فهناك حركة دائمة وتغير ودوران مستمر ، لايدع شيئاً يستقر على حال . فكل كون يتبعه فساد ، وكل بناء يصحبه خراب ، وكل ربيع يتلوه خريف ، وكل صعود بعـــده هبوط ، وهكذا على العكس . فأنت ترى حبة مستصغرة تذروها الرياح اليوم من مكان إلى آخر ، وغداً تتأصل هذه الحبة في الأرض ، وإذا هي شجرة باسقة الفروع ، ثم تذوي هذه الشجرة بعد غد فتسقط وتندفن في الأرض ، فتتفادرها القوى الفطرية المنشئة لتغذي بذرة أخرى. وهذا كله من عمل الرفع والخفض الجاري في هذه الحياة . فاذا ما رأى المرء حالاً بعينها من الحالين تستمر على كائن لمدة طويلة ، ذهب به الظن إلى أن هذه الحالة ستبقى إلى الأبد . فان كان هبوط فلا بد أن يبقى هبوطاً أبداً ، وإن كان صعود فلا بد أن

يظل صعوداً أبداً . ولكن كل ماهنالك من فرق بين الحالتين هو من حيث التقدم والتأخر ، ولا خلود لأيتها أبداً . (وتلك الأيام نداولها بين الناس) .

لا تزال أحداث هـذا العالم تجري وتتحرك فيما يشبه حركة دورية . فالولادة والموت والشباب والشيخوخة والقوة والضعف والربيع والخريف والنضارة والذبول ، كل أولئك وجوه مختلفة لتلك الحركة الدورية . وتبعـــاً لهذه الحركة تطرأ على كل كائن ـ حسب نوبته ـ حال من الاقبال ينمو في أثنائها ويزكو ، ويظهر من نفسه القوة والشدة ويعرض مايتسم به من جمال وبهاء ، حتى يبلغ ذروة رقيه وكماله . ثم تعقب ذلك حال من الإدبار ، فينتقص فيها ذلك الـكائن ويذوي ، ويأخذه الضعف والاضمحلال ، حتى تقضي على وجوده نفس القوى التي كانت أنشأته .

تلك سنة الله فيما خلق ، وهذه السنة كما هي جارية في سائر الموجودات ، هي جارية أيضاً في الانسان ، سواء في حالته الفردية أو في حالته الجماعية القومية ، فلا يزال العز والذل ، والعسر واليسر ، والصعود والنزول ، وما إلى ذلك من الحالات ينتاب الأفراد والأمم المختلفة وفق تلك الحركة الدورية ، فتطرأ على الجميع كل هذه الأحوال بالتناوب ، وليس منهم من حرم في هذه القسمة للأبد ، ولا منهم من اختص بدوام حالة واحدة عليه للأبد ، سواء أكانت حالة الاقبال أم الادبار : (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

وإنا لنرى اليوم على كل بقعة من بقاع الأرض آثار الأمم التي سبقتنا ، وقد خلفت تلك الأمم من آيات حضـــارتهـا وتمدنها وصناعتها وحذقها وكمال فنها وبراعة يدها مايدل على أنها لم تكن بأهون من هذه الأمم الراقية الغالبة في زمانها، بل الحق أنها كانت أقوى وأغلب من هذه على الأمم المعاصرة لها في ذلك العصر : (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها)، ولكن ماذا كان مصيرها ، إنها انخدعت بما وجدت نفسها فيه من حالة الاقبال ، وغرتها النعم وفتنتها الرفاهية ، فتكبروا وتجبروا لما استتب لهم من القوة والغلبة ، فأخذوا يظلمون أنفسهم بما يرتكبون من سيئات الأعمال : (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين) . وقد أمهلهم الله تعالى على رغم تمردهم وعصيانهم (وكأين من قرية أمليْتُ لها وهي ظالمة) ، ولم تكن هذه المهلة بيسيرة ، بل أمهلت بعض الأمم مدة قرون متوالية (وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) ، ولكن كل مهلة أمهلوهـا أصبحت لهم بلاء من ربهم جديداً ، إذ زعموا أنهم قد عاجزوا الله بمكرهم وتدبيرهم ، وأن الحكم والأمر في هذا العالم ليس بيد الله بل بيدهم . وهنالك هاج غضب الله فانصرفت عنايته عنهم ، وأعقب عهد إقبالهم عهد الخمول والإدبار: (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً ، وهم لا يشعرون) . وإن المكر والتدبير الإلهي لا يواجه المرء من أمام ، بل هو ينبعث من داخل الانسان نفسه، فيسري إلى ذهنه وقلبه ليعمل عمله ، فهو يثبت على عقل المرء

وشعوره وتمييزه وفكره وحواسه ، فيسلب عيني عقله وبصيرته النور ، ويجعله مكفوف البصيرة لامكفوف البصر: (فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) . وإذا افتقد المرء نور قلبه الداخلي ، فكل تدبير يدبره لمصلحته يأتي على عكس المقصود فيضر ، وكل خطوة يخطوها نحو غاية النجاح تقوده إلى مهوى الهلاك ، وتمضي عليه جميع قواه ومقدراته إلى أن تخنقه يداه هو نفسه (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم . إنا دمرناهم وقومهم أجمعين) .

إنا نجد صورة متكاملة لتناوب هذا الاقبال والادبار على الأمم في قصة آل فرعون وبني إسرائيل ، وذلك أن أهل مصر لما وصلوا إلى قمة الرقي ، أخلدوا إلى الظلم والعدوان . فادعى كبيرهم فرعون : أنا ربكم الأعلى ، وجعل يعذب وينتقم من أمة ضعيفة - تدعى بني إسرائيل - استوطنت أرض مصر أيام النبي يوسف عليه السلام ، فلما بلغ عدوان فرعون والأمة المصرية نهايته ، قضت مشيئة الله أن تخضد شوكتهم وترفع تلك الأمة المستضعفة - بني إسرائيل - التي كانوا يحتقرونها ، فتحقق ماأراد الله وولد في بني إسرائيل النبي موسى عليه السلام . ومهد التدبير الالهي لأن تكون نشأته وتربيته على يد فرعون وفي قصره ، فلما بعث نبياً ، عهد الله اليه أن ينقذ أمته من عبودية المصريين ، فنصح فرعون بلطف ، ولكنه لم ينتصح . ثم جاء فرعون وقومه من ربهم إنذار بعد إنذار بما تتابعت عليهم المجاعات ، وتكرر عليهم

الطوفان ، ونزل عليهم الدم ، وأكل حرثهم الجراد ، وآذتهم كثرة القمل والضفادع . ولكن كل ذلك لم ينقص شيئاً من عتوهم وكبريائهم : (فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين) . ولما تمت الحجة عليهم ، قضي الأمر بنزول العذاب الالهي . فخرج موسى عليه السلام مع أمته من مصر بإذن الله ، وأغرق فرعون وجنوده في اليم ، وسقطت القوة المصرية بذلك سقوطاً لم تنهض منه مدة قرون : (وأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) . ثم جاءت نوبة بني إسرائيل ، فبعد ان انتصرت هـذه الأمة على المصريين ، فوض الها الحاكم الحقيقي لهذا الكون الأمر ، بعدما كانت ذليلة محتقرة فيها : (وأورثنا الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا) وفضلها على جميع أمم الأرض (وفضلناكم على العالمين) . ولكن هذه الفضيلة والوراثة الأرضية كانت منوطة بالعمل الصالح ، فقال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام : إنكم ستورثون الأرض ولكن الله سيرى كيف تعملون . وهـذا شرط لم يختص به بنوا إسرائيل وحدهم ، بل تلزمه كل أمة تمنح حكومة الأرض : (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) .

فلما عصى بنو إسرائيل ربهم ، فحرفوا كلام الله واستبدلوا بالحق الباطل واتبعوا سبيل الكذب والخيانة وأكل الحرام وغدر العهد ، وأصبحوا عبدة الفضة والذهب ، طماعين ، جبناء ، محبي الراحة

والرغد ، وقتلوا من بينهم الأنبياء وعادوا القائمين بدعوة الحق ، وأعرضوا عن أئمة الخير وأطاعوا أئمة الشر ، ازورت عنهم عين عناية الله فنزعت من يدهم وراثة الأرض وجُعلوا رمية لسهام جبابرة العراق واليونان والروم ، وأخرجوا من ديارهم ليتشردوا في أقطار الارض في حال بؤس وشقاء ، وحرموا من أن تستقر لهم حكومة إلى الابد . ومن لعنة الله الواقعة عليهم منذ ألف سنة أنهم لا يجدون لانفسهم مكاناً كريماً في الارض (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله) .

وان سنة الله هذه نراها تتكرر اليوم أمامنا ، فوبال الاعمال السيئة الذي ذاقته الامم السالفة قد أحاق اليوم بالامم الغربية ، وذلك انه قد أنذرت هذه الامم بكل وجه ممكن للانذار . فآفات الحرب العالمية ومشكلات الاقتصاد وازدياد التعطل وانتشار الامراض الفتاكة وتبدد النظام العائلي ، كل أولئك آيات بينات ، لو تأملوها لعلموا أن كل ذلك ثمرة ظلمهم وعتوهم واتباعهم للشهوات وإعراضهم عن الحق . ولكنهم لا يجدون في هذه الآيات مايعتبرون به ، فلا يزالون يميلون عن الحق ، وإذا هم تصدوا لمعالجة ما أصابهم فلا تصل أبصارهم إلى العلة الرئيسية للمرض ، وإنما هم ينظرون إلى ظواهر المرض ويستفرغون جهودهم لمعالجتها ، وبهذا الخطأ البين في العلاج لا يزال داؤهم يستفحل كلما عولج ، ومما تدل عليه الاحوال الآن أن مرحلة الانذار وإتمام الحجة قد كادت تنتهي ، وقد اقتربت ساعة القضاء .

إنه قد سلط على الامم الغربية شيطانان قويان ، يجرانها إلى مافيه

الهلاك . أولهما شيطـان قطع النسل والآخر شيطان القومية، فالشيطان الاول قد سيطر على أفرادها والآخر على أممها وحكوماتها . وإن الاول قد قلب عقول رجالها ونسائها فجعلهم يستأصلون أنســالهم بأيديهم . إنه يعلمهم تدابير منع الحمل ويحضهم على تعمد الاسقاط ويلقنهم فوائد عملية التعقيم (Sterilization) التي يقضون بها على قوتهم التوليدية للأبد ، ويبعث فيهم من القسوة والغلظة ما يجعلهم يقتلون أولادهم بأيديهم ، فهذا هو الشيطان الذي يدفعهم تدريجياً إلى الانتحار .

وأما الشيطان الآخر فقد سلب أكابر ساستهم وقادة حربهم قوة التفكير الســليم والتدبير الصحيح ، فهو يبعث فيهم نزعات الاثرة والمسابقة والتنافر والتعصب والحرص والطمع ، وبذلك يقسمهم ويفرقهم شيعاً متعادية متحاربة ، ليذيق بعضهم شدة بعض . وهذا أيضاً من صور النقمة الالهية (أو يَلبِسَكم شيعاً ويُذيقَ بعضَكم بأسَ بعض) ، فهو يهيئهم لانتحار عظيم لا يرتكبونه على مهل ، بل سوف يساقون اليه في آن واحد ، وقد جمع هذا الشيطان ذخائر البارود في أنحاء العالم وأقام مراكز الخطر هنا وهناك ، فهو الآن ينتظر ســاعة بعينها ، إذا ما حانت سيشعل إحدى ذخائر البارود تلك ، وإذا القوم يحل به هلاك وخراب سيهون في جنبه هلاك الامم الماضية .

وهذا الذي أقوله لا مبالغة فيه ، فان الاستعدادات الحربية التي لا تزال تباشر الآن في أوربا وأميركا واليابان للحرب الآتية ترسل هزة الزعر والخوف في نفوس أولي الابصار من تلك الامم نفسها ، وقد استطيرت ألبابهم روعاً لما يتصورون من نتائج الحرب الآتية . فهذا

المستر سرجل نيومان (Sergel Neumann) الذي كان عضواً في الهيئة الجندية الاميركية سابقاً ، قد كتب مقالاً عن صورة الحرب الآتية ، يقول فيه : إن الحرب الآتية لن تقتصر على الجنود المتحاربين، بل هي ستكون إفناء عاماً لا تنجو منه النسوة ولا الاولاد ، وذلك أن عقول العلماء الكيمياويين (Scientists) قد نزعت وظيفة الحرب والقتال من الجنود الانسانيين وفوضتها إلى المركبات الكيمياوية وآلات الحرب التي لا روح فيها ولا شعور ، والتي لا تميز بين محارب وغير محارب (Non - Combatant) ، فالآن لا يتحـــارب الفريقان في الميادين أو في القلاع ، بل ستقع حربها في المدن والقرى ، لان قوة العدو الاصلية — حسب النظرية الجديدة — لا تكون في جنودهـا بل في بلادها المعمورة وأسواقها التجارية ومصانعها الصناعية ، فالآن سترمى كل هذه الاماكن بالقنابل من فوق ، التي ستنفجر عن المواد المحرقة والغازات السامة وجراثيم الامراض التي تهلك آلافاً مؤلفة من الجموع الانسانية . ومن تلك القنابل قنبلة عظيمة تدعى (Lewisite Bomb) تكفي وحدها لتهدم أضخم عمارة من عمارات لندن . وهناك غاز سام يعرف باسم (Green Gross Gas) من خاصيته أن كل من استنشقه أحس كاحساس الغريق في الماء ، وغاز سام آخر يقال له (Yellow Gross) خاصيته كسم الحية ، كل من استنشقه لقي من الاذى والحتف ما يلقاه سليم . وهناك اثنا عشر نوعاً آخر من مثل هـــذه الغازات كلها غير مرئي ، فلا يحس المرء أثره بادىء ذي بدء ، وإذا أحسه فلا يكون هناك إمكان لتدبير العلاج . ومن تلك الغازات غاز إذا وصل إلى علياء

في الجو ، امتلأ وانتشر ، فاذا اجتازت منطقته طائرة عمي كل من فيها .
وقد قدروا أنه لو يطلق بعض الغازات السامة بمقدار طن واحد على مدينة باريس ، لافنى كل من فيها في ساعة واحدة ، وهـــذه العملية لاتحتاج إلا إلى مائة من الطائرات.

وقد اخترعوا أخـــيراً قنبلة مدفعية كهربائية محرقة ، ولا يزيد وزنها على كيلو جرام واحد ، ولكن هذه القنبلة الصغيرة تنطوي من القوة على مايدهش ، وذلك أنها إذا اصطدمت بشيء تولدت فيها حرارة بمقدار ٣٠٠٠ فارن هيت ، مما يكون منه حريق لا يمكن أن يطفئه شيء ، حتى الماء لا يفيد في إطفائه بل هو كالبترول يزيده تضرماً . ولم ينجح علم الكيمياء بعد أن يجد مايطفأ به هذا الحريق . ومما ينوون أنهم سيقذفون هذه القنبلة على كبار شوارع المدن والعواصم ، حتى يضطرم فيها ذلك الحريق الهائل من جانب إلى آخر ، وإذا فزع الناس بهذا السعير وحاولوا الفرار منه ألقيت على رؤوسهم قنابل الغازات السامة لـكي يُستكمل الردى والهلاك .

ونظراً إلى هذه المخترعات المهلكة قد حدث الماهرون أنه تكفي عدة طائرات لأن تهدم بها أكبر وآمن عاصمة في الأرض في مدة ســاعتين فقط ، وأن يسمم مئات الآلاف من النفوس الانسانية بحيث يرجعون إلى فرشهم بالليل سالمين ولا ينتبه منهم أحد من نومه في الصباح ، وأن تهلك الماشية والسوائم وتخرب الحقول والرياض ، فتسمم ذخائر الماء كلهـا في قطر بأجمعه ولم تكشف العلوم التجريبية (Science) بعد وسيلة ناجحة لمدافعة مثل هـــذه الحملات المردية ، إلا أن

يهجم كل من الفريقين المتحاربين على الآخر في آن واحد فيهلك كليهما معاً .

هـــذا بيان موجز لما يتخذون من الأُهَب للحرب المستقبلة ، ومن شاء التوسع في الموضوع فليراجع كتاب « ماذا يكون من صفة الحرب الآتية[1] » الذي قد نشره الاتحاد البرلماني العالمي بجنيف بعد التحقيق التام ، وإذا نظرت فيه علمت كيف أن الحضـــارة الغربية قد هيأت الأسبـاب لخرابها وفنائها بأيديها ، فحياتها الآن مرتهنة بالساعة التي تعلن فيها الحرب ، فاذا ماشبت الحرب بين دولتين كبيرتين من هذا العـالم فاعلموا أنه قد قضي الأمر بخراب هذه الحضارة الغربية ، لأنه إذا نزلت الدولتان الكبيرتان ساحة الحرب فلن يكون هناك ما يمنع الحرب أن تكون عالمية ، وإذا كانت الحرب عالمية ، فلا بد أن يكون البوار والدمار أيضاً عالمياً شاملاً (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا ، لعلهم يرجعون) .

على كل حال قد اقترب الوقت لأن يدبر أمر الوراثة الأرضية من جديد ، وأن يسقط الظالمون المسرفون عن مقام الخلافة الأرضية ، وتشرف بها أمة أخرى ، لعلها أن تكون من الأمم المستضعفة ، فلينظر الناظرون من يقع عليه الانتخاب الإلهي في هذه المرة .

---

(1) What woode be the Charecter of a new world - war .

وإنا ليست عندنا وسيلة للعلم بأنه أية أمة ستقام في الأرض فيما يأتي ، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) ، ولكن هناك سنة الله في هذا الأمر أيضاً ، قد بينها في كتابه العزيز ، وهي أنه إذا صرع الله أمة لأعمالها السيئة أقام مقامها أمة لا تكون آثمة متمردة كأختها المغضوب عليها: (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) .

ومن الظاهر على هذا ، أن الأمم المغلوبة المستضعفة التي هي عاملة اليوم بمجالات الحضارة الغربية في كل شيء ، وهي بدل أن تصطنع محاسن الأمم الغربية — التي بقيت فيها قليلاً أو كثيراً — تحرص على اصطناع معايبها ومساوئها التي هي مجلبة للغضب الإلهي عليها ، لا مجال لفوزها وغلبتها — مرة أخرى — فيما ينتظر من الانقلاب .

خطبة اللورد لوثين

إن الخطبة التي ألقاها اللورد لوثين بمناسبة حفلة توزيع الشهادات بجامعة عليكر في الأسبوع الأخير من يناير الماضي لجديرة بأن يتعمقها كل من أصحاب الثقافة الجديدة والقديمة من أهل الهند ويستخلصون منها العبرة والدرس ، ففي هذه الخطبة قد كشف لنا عما في قلبه وذهنه رجل لم ينظر إلى العلوم الجديدة وإلى ماتنتج عنها من الحضارة من بعيد ، بل هو قد نشأ في حضن تلك الحضارة وأنفق ستة وخمسين عاماً من عمره في خوض غمارها . إنه أوربي بالمولد والنسب وخريج جامعة أوكسفورد ، قد كان فيما مضى رئيس تحرير مجلة معروفة كمجلة روند تيبل (Round Table) ، ولم يزل يشارك كمسئول في مهام أمور الدولة البريطانية منذ قريب من ٢٢ عاماً ، فهو على ذلك ليس بشاهد أجنبي ، بل هو من أهل بيت المدنية الغربية ، وهو يحدثنا عن هذا البيت ويخبرنا ما هي المفاسد الحقيقية التي قد سرت في جنباته ، وما هو منشؤها ، وإلى أي شيء يتعطش أفراده الآن في الحقيقة .

هذه الخطبة تتضمن العبرة من ناحية للمثقفين بالثقافة الجديدة منا ، فانهم يعلمون منها أن العلوم الغربية وما تبعها من الحضـــارة الجديدة

ليست كلها الترياق خالصاً ، بل هي تحمل في ثناياها كثيراً من السم ، وأن الذين اتخذوا منها المعجون الشافي واستعملوه طوال القرون هم بأنفسهم ينذروننا في أمره ويمنعوننا من تناول المقدار الوافي من هذا المركب بقولهم : إن هذا قد استدرجنا إلى شفا الهلاك ، فلا بد أن يفضي بكم أيضاً اليه ، وإننا بأنفسنا نحتاج اليوم إلى ترياق خالص، ومع أننـــا لا نعلم بالتحقيق أين هو ، ولكننا نظن أنه موجود عندكم ، فإياكم أن تلقوا بترياقـكم هذا إلى الرياح ، وتتهافتوا على لذة معجوننا المسموم .

ومن ناحية أخرى تتضمن هذه الخطبة كثيراً من العبرة والموعظة لعلمائنا والطبقات الدينية منا ، فانهم عسى أن يتبينوا منها : أي نواحي التعليم الاسلامي هي التي يجب أن توضح وتخرج إلى النور لهذه الدنيا التي هم يعيشون فيها ، إنه لما تزل هذه الدنيا تجرب حضارة المذهب المادي منذ قرون ، وقد أرهقتها هذه التجربة ، وإن حرية الفكر وروح التحقيق التي أعطينا أهل الغرب ترياقها قبل قرون قد خلطه القوم بأنفسهم بسم اللادينية والمادية بغير علم ، وهيؤوا باختلاط هذا وذاك مركب حضـارة جديدة ، وقد ظلت عناصر الترياق في هذا المركب تصعد بالقوم في سلم المجد والرقي ، ولكن عناصره السامة أيضاً بقيت تعمل عملها في أثناء ذلك حتى تغلب أخيراً تأثير هذا السم على العنصر الصحي منه ، وأصبح أهل الغرب ، بعدما ذاقوا النتائج المرة لهذه الحالة طويلا ، يتطلعون إلى ماحولهم ليجدوا مزيداً من ذلك الترياق ، وإنهم لا شك قد علموا أي أجزاء مركبهم هي

السامة ، وقد جربوا أيضاً التأثير الواقع في حياتهم لتعامل تلك الاجزاء، وقد عادوا كذلك يشعرون شعوراً واضحاً بأنه أي نوع من الترياق هم يحتاجون اليه لحسم تلك الآثار السامة ، ولكن الذي لا يعلمونه هو أنه لا يوجد ذلك الترياق المطلوب إلا عند الاسلام ، وأنهم لن ينالوا الجرعة من هذا الترياق إلا من تلك الصيدلية التي تناولوا منها الجرعة الاولى منه ، فلو أن القوم يظلون يتيهون الآن في طلب الترياق حتى بعد كل هذا الشعور باحتياجهم اليه ، ويروحون يسممون العالم بسم حضارتهم لكونهم لم يجدوا الترياق ، فان علماء الاسلام لابد أن يكونوا شركاءهم بالسوية في هذا الاثم العظيم ، وذلك لان هـــذه الظروف لا تصلح — وايم الله — لان ينهمك فيها علماؤنا في مسائل اللاهوت وما بعد الطبيعة وفي المناقشات حول الجزئيات الفقهية ويتركوا ما هو أكبر وأهم ، وإن المسائل من مثل : هل أوتي رسول الله — ﷺ — علم الغيب أم لم يؤت ؟ وهل يقدر الله تعالى على أن يقول الزور أم لا ؟ وهل من الممكن أن يكون نظير لرسول الله ؟ وما حكم الشريعة في زيارة القبور وإيصال الثواب إلى الاموات ؟ وهل يجب الجهر بكلمة آمين خلف الامام ورفع اليدين في الصلاة أم لا ؟ وكم يجب أن يكون بين المنبر والمحراب في المسجد ؟ إن هذه وما شـــاكلها من المسائل الكثيرة التي لا تزال الشغل الشاغل لهداتنا الدينيين وهم يضعون قواهم في حلها لا أهمية لها أصلاً عند هـــذه الدنيا المعاصرة ، وإن حلها والتصفية في بابها لم يكن ليغني في شيء عن تصفية أمر الصراع الجبار القائم بين الضلالة والهدى في العالم كله ، فالضرورة الحقيقية

اليوم هي أن تفهم تلك المسائل التي قد نتجت عن بقاء العلم والمدنية يترعرعان في حضن اللادينية وإنكار الوجود الإلهي على طول القرون ، وأن تدرس دراسة تحليلية عميقة ، ثم يعرض حلها على ضوء مبادىء الإسلام . هذا هو واجب الساعة ، ولئن لم يتأهب علماء الإسلام للقيام به ولم يبذلوا لذلك جهدهم فان جميع تلك الأزمات التي قد واجهت بلاد الغرب إلى الآن قد أخذت تظهر بكل شدة في كافة أقطار المسلمين وفي وطننا الهندي أيضاً ، ولما لم يكن مهيأ هناك الحل الصائب لتلك المعضلات ، فان المسلمين وغير المسلمين جميعاً لايزالون يستعملون لعلاجها تلك التدابير المخطئة التي قد زاولها الغربيون الذين هم بأنفسهم مرضى ، ولم يعد الأمر إذن يختص الآن باوربا وأميركا وحدهما ، بل هو أصبح يمس وطننا نحن وأجيالنا القادمة أيضاً .

لهذه الأسباب كلها نود أن يطالع خطبة اللورد لوثين هذه كل من رجالنا المثقفين وعلمائنا الدينيين بوعي وتفكير . وإنا نسرد فيما يلي أجزاء من هذه الخطبة وسنوضح في أثنائها بعض مطالبها حسب الضرورة تسهيلاً للقراء في الوصول إلى مغزى الكلام .

إن اللورد لوثين يبتدىء بحثه بالكلمات الآتية :

« هناك أمر آخر يطلب البحث والدرس ، أريد أن ألفت نظركم اليه ، وهو أنه هل يمكن للهند أن تسلم من مضرة التعليم العقلي السانتيفيكي لهذا العصر ، تلك المضرة الشديدة التي قد أصابت أوربا وأميركا في الوقت الحاضر .

إن العلم الحديث في الغرب قد أدى إلى أمرين عظيمين : ففي جانب قد وسع هذا العلم سيطرة الإنسان على الفطرة وقواها ، وفي جانب آخر قد أضعف سلطـــان الدين الموروث على الجيل المتخرج من الجامعات وعلى سائر الناس على العموم ، وكل ما يوجد اليوم من المفاسد في هذه الدنيا المعاصرة فإن نصفه على الأقل آت من هذين السببين . فالإنسـان المتعلم قد كاد يسكر بنشوة القوة والمقدرة الهائلة التي قد زوده بها العلم (Science) ، ولكنه لم يتقدم في سبيـــل الأخلاق مثل تقدمه في المدنية والعلوم ، مما يكون ضماناً بأن لا تستخدم هذه القوى لهلاك الإنسان ، بل لفلاحه » .

قد أشار الخطيب الفاضل في هـذه المقدمة لكلمته إلى مسألة جوهرية من مسائل الحضارة والتمدن الإنساني ، وهي أن العلم (Science) من حيث هو علم لا يعدو أن يكون ولوعاً بالبحث والتحقيق والتنقيب والاجتهاد ، يطلع الإنسان بعقله على القوى السرية لهذا العالم الطبيعي ويهيىء الوسائل لاستخدامها . وهــذه القوى الجديدة التي يمتلكها الإنسان برقي هـذه العلوم إذا أخذ يستعملها في حياته العملية اليومية فذاك يقال له رقي المدنية ، ولكن هذين الأمرين في ذاتهما لا يضمنان فلاح الإنسان وسعادته ، إذ أنهما كما يكونان سبباً لفلاحه قد يكونان سبباً لهلاكه . ولئن كان الإنسان قد صار يعمل بالمكنة بدل أن يعمل بيده ، ويقطع المسافات بالقطار الحديدي والسيارات والسفن البخـارية والطائرات بدل أن يقطعها

على ظهور الأنعام ، وصار نظام بريده يجري بآلات البرق واللاسلكي بدل محطات البريد القديمة ، فليس معناه أن الإنسان قد عاد أسعد وأرضى مما كان في الغابر ، لأن هذه الأمور كلها كما قد تزيد في سعادته ورخائه قد تزيد أيضاً في نكبته وهلاكه ، وإن دور المدنية الذي لم يكن يملك فيه الإنسان من آلات الحرب إلا الرمح والسيف ، لم يكن يضمن من أسباب الهلاك والدمار ما يضمنه هذا التمدن الذي قد اخترع الانسان فيه من تلك الآلات المدافع الرشاشة والغازات السامة والطائرات والغواصات . أما أن يكون رقي العلم والمدنية مبعث السعادة أو سبب النكبة والهلاك فالأمر موقوف على الحضارة السائدة التي يتم في ظلها ارتقاء العلوم والفنون والمدنية والتحضر ، وإن الحضارة هي التي تبين في الحقيقة طريق الارتقاء وتحدد غاية أعمال الانسان وتعين كيفية الانتفاع بما يكتشف الانسان من القوى ، وهذه هي التي تقرر نوعية العلاقة بين الناس ، وهي التي تضع المبادىء للحياة الاجتماعية وتسن قوانين الأخلاق في دائرة الشؤون الفردية والقومية والدولية ، وبالجملة ان الحضارة هي التي تؤهل الذهن الانساني للحكم في أمر القوى الحاصلة بفضل رقي العلم بأنه كيف يدخلها في نظام مدنيته ولأي غرض وبأية صورة يستخدمها وماذا يختار من وجوه استعمالها المختلفة وماذا يرفض . وإن مشاهدات العالم الطبيعي (Physical World) ومعلومات القوانين الطبيعية لايمكن أن تكون أساساً لحضارة سامية ، لأن هذه المشاهدات والمعلومات لاتجعل الانسان إلا في منزلة حيوان

عاقل ، ولا تعين إلا على أن تُتخذ للحياة تلك النظرية التي هي نظرية الماديين ، وهي أن الانسان تنحصر حياته كلها في هذه الدنيا ، وغايته النهائية أن يحقق رغباته الحيوانية في هذه الحياة بأكثر مايكون من الجودة والكمال ، وأن الوجه الحقيقي لاستعمال القوة هو أن ينسجم الانسان مع مايجري في هذا الكون من قانون التنازع للبقاء والانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح فيُخضع ويهين كل من حوله من الخلائق ويتغلب عليهم . فالحضارة التي اتخذتها أوربا كانت تقوم على هذه النظرية للحياة ، وكان من عاقبة الأمر أن جميع القوى التي تسلح بها الإنسان بفضل رقي العلم والتمدن غدت تستعمل لهلاك الإنسانية لا لسعادتها وفلاحها ، وعاد أهل الغرب أنفسهم يشعرون بأنهم في حاجة إلى حضارة إنسانية أسمى مما هم فيه من الحضارة الحيوانية ، وأنه لايمكن أن يكون أساس تلك الحضارة المطلوبة إلا الدين .

يقول اللورد لوثين بعد ذلك :

« لا ريب أن الروح العلمية التحقيقية (Scientific Spirit) قد بددت الأوهام القديمة شيئاً فشيئاً ووسعت دائرة العلم وحررت بذلك الرجال والنساء من كثير من الأغلال التي كانت عليهم من قبل ، ولكنها مع هذا كله قد تركت الإنسان شديد الافتقار إلى الحق والصـــدق في باب الروحانية والدين ، ولم تمهد له طريقاً للوصول إلى ذلك الحق ، فحال الأكثرية من أهل الغرب الآن أنهم كالصغار مغرمون بسرعة النقل وإتيان الأعاجيب والتلذذ

باللذات الحسية ولم يعودوا أهلاً لأن يحيوا حياة ساذجة طبيعية ولم يبق هناك من صلة — فعلاً — بينهم وبين تلك الحقيقة الأزلية الأبدية اللانهائية التي يعرضها الدين .

وإنا لنرى الآن من نتائج زوال سلطان الدين — وهو هادي الإنسان الذي لا مندوحة له عنه والوسيلة الوحيدة لتحلية الحياة الانسانية بالهدف الأخلاقي والشرف والمعنوية — أن الدنيا الغربية قد كلفت بتلك المذاهب السياسية التي تقوم على مفارقات النسل والطبقية ، وآمنت من بين وجوه العلم (Science) المختلفة بذلك الوجه الذي يستهدف الرقي المادي وحده ، والذي يجعل الحياة الانسانية متعقدة مستثقلة يوماً بعد يوم ، ومن نتائج ذلك أيضاً أنه قد أصبح من الصعب لأوربا اليوم أن تخلق بين حياتها وروحها من التلاؤم ما ينقذها من أكبر آفات هذا العصر وهي القومية الضيقة » .

ويوجه اللورد لوثين بعد ذلك سؤالاً إلى أصحاب الثقافة الجديدة من أهل الهند ، فيقول :

« هل للديانتين الكبريين في الهند أعني الديانة الهندكية والإسلام أن تقاوما روح النقد والتحقيق السائدة في هذا العصر الجديد بنجاح أكثر وأتم مما قاومتها به العصبية الدينية الموجودة في الغرب ؟ هذا السؤال في غاية الأهمية ، لأنه إن أريد بالهند السلامة من تلك النكبات التي قد حلت بأهل الغرب فمن واجب زعماء الفكر والدين في هذا القطر أن يركزوا عنايتهم كلها على

هذا السؤال ، وما من شك أن روح التحقيق ستمحو رويداً رويداً عناصر التوهم والجاهلية التي هي منتشرة في عامة أهل الهند إلى الآن ، وسيكون ذلك حسناً ولكن هل لا يؤثر ذلك في أذهان الذين سيكونون في المستقبل زعماء الحياة السياسية والمدنية والصناعية في الهند ولا ينزع منها كل ما لهاتين الديانتين من المبادىء الخلقية والقيم الروحية ؟ إني لا أدعي المعرفة بدخائل حياة الديانة الهندكية والاسلام ، ولكنه يخيل إلي أن كلاً منها تضمنت في ذاتها على حدة تلك العناصر التي ستجعلها قوية على استبقاء سلطانها على الشبان والرجال من طلبة الجامعات . أما النصرانية فقد أخفقت في هذا الأمر لبعض القيود الاعتقادية الخاطئة التي حجبت ما كان لزعيم هذه الديانة الجليل من التعاليم الصادقة الحقة » .

إن اللورد لوثين — كما اعترف بنفسه — لا يعلم في الحقيقة شيئاً عن الديانة الهندكية والاسلام ، وإنما لمح من بعيد لأشياء في الديانة الهندكية وأخرى في الاسلام قد تنجح — في رأيه — في استبقاء الطبقة المثقفة مؤمنة بمبادىء الأخـــلاق والروحانية العليا بازاء النقد والتحقيق الجديد . ولكن الذين لهم معرفة تفصيلية داخلية بهاتين الديانتين بل بجميع الديانات في الهند لايخفى عليهم أنه إن كان هناك دين يمكن أن يثبت في وجه روح النقد والتحقيق العصري ، بل بعبارة أصح يمكن أن يتقدم بتبعيه إلى الأمام بتلك الروح ويصبح دين النوع الانساني بأكمله في عهد الرقي والنور فما هو إلا الاسلام. وهل رأيت لماذا أخفقت النصرانية في الغرب ؟ لأنها ليست بمذهب

اجتماعي (Social) بل هي ضد للاجتماعية . انها لا تعنى إلا بنجاة الفرد ، وإن السبيل الذي قد اقترحته لنجاته هو أن يعرض عن الدنيا ويولي وجهه شطر الملكوت السماوي . وهذا هو السبب في أنه لما سارت الأمم الأوربية خطوات في سبيل الرقي قامت النصرانية تعارضها بدل أن تحفزها على السير . واضطر القوم لكي يمضوا إلى الأمام إلى أن يحطموا قيود هذه الديانة . ومثل هذا هي حال الديانة الهندكية . فانه ليس بيدها أيضاً فلسفة ناهضة ولا قانون خلقي مستند إلى العقل، ولا نظام اجتماعي قابل للتوسع والشمول . إن العامل الأقوى الذي قد لمّ شمث الامة الهندكية إلى الآن في دائرة نظام اجتماعي ومنعها من التأثر بالحضارات الأخرى هو نظام طبقات النسب (Caste System) فيها . ولكنه من المحتوم أن تنحل قيود هذا النظام إذا ما احتك بروح النقد والتحقيق العصري، وستنحل لا محالة . وإذا حدث ذلك فلن يكون هناك ما يمنع المجتمع الهندكي من التمزق والانحلال ، وستعود إذن أبوابها المقفلة إلى الآن مفتوحة على مصراعيها للمؤثرات الخارجية . ثم إننا نرى مع ذلك أن ما عند الهنادك من القوانين العتيقة للمدنية والاجتماع وما هم عليه من الأوهام الوثنيـــة والأخيلة الفلسفية التي لا تستند إلى العقل أو العلم ، لا يمكن كل ذلك أن يثبت أمام الرقي العلمي والوعي الاجتماعي لهذا العصر . وعلى هذا كله تتقارب الأمة الهندكية يوماً فيوماً إلى مفرق طريقين سيقضى لديه أمر مستقبلها ومستقبل القطر الهندي إلى حد بعيد .

فإما أن تبقى هذه الأمة ثابتة على ذاك التعصب الشديد على الإسلام

الذي كان غلب الأوربيين النصرانيين عند النهضة العلميـة في أوربا ، فتسقط الإسلام عن اعتبارها وتتخذ سبيل الحضارة المادية كالذي كان فعل أهل أوربا من قبلها ، وإما أن تقبل الإسلام وبروح أفرادها يدخلون في دين الله أفواجا .

ويتوقف الفصل في هذه القضيـة — إلى حد بعيد — على سلوك المسلمين الهنديين ، وبالأخص المتعلمين ذوي الثقافة القديمة والجديـدة منهم وذلك أنه لم يكن الاسلام ليأتي المعجزات بمجرد اسمه ، ولا يمكن ظهور المعجزة من مبادئـه ما دامت مكتوبـة في الأوراق و كفى . إن التشتت والخطأ العملي الذي لا يزال عليه المسلمون الآن، وإن الجمود الذي قد غلب علماءهم ، وإن التأثر والانفعال الانثـــوي الذي تظهره من نفسها أجيالهم الناشئة المتعلمة ؛ إن ذلك كله مما لا يتوقع أن يستطيع معه المنتمون إلى الاسلام حتى الثبات في موقفهم الحاضر ، دع عنك أن يفتحوا روح الحضارة الهندية ويغلّبوا الاسلام على القطر بأجمعه. وذلك أن ثبات جماعة ما في مكان واحد وسط تيار قوي من الثورة لمن غير الممكنات. إن مثل هذه الجماعة لا بد أن تتخير بين أمرين : إما أن تنساق مع التيار ، وإما أن تقوم قومة الأسد فتحول بقوتها وجه التيار . وهذا الوجه الأخـير لا يمكن تحقيقه إلا بأن تصلح أولاً حالة المسلمين الخلقية على العموم وتبث فيهم روح الحياة الاسلامية ، وأن يتبادر ثانياً علماء الاسلام وأصحـاب التعليم الجديد من المسلمين فيتدارسوا معاً مسائل الحياة الجديدة ويتفهموها على ضوء مبادىء الاسلام ، ثم يحلوها من الناحية العلمية بصورة واضحة

مقنعة حتى يعترف كل امرىء سليم الفكر – ما خلا المتعصبين العميان – بأنه لا يمكن لغير الحضارة الاسلامية أن يكون أساساً سالماً صحيحاً لتمدن ناهض .

إنه لا يزال يوجد في الهند إلى الآن تصور صراع العلم والدين ، الذي كان يسود في أوربا قبل خمسين أو ستين عاماً . ولكنه قد تغير الوضع أخيراً في أوربا وقد كاد يتغير أيضاً في الهند الآكلة من فضالة المائدة الغربية ، وقد اقترب الزمان الذي سيزول فيه هذا التعصب على « الدين » من الناحية العلمية والعقلية على الأقل . ولكنا لن ننتفع بذلك الوضع إلا أن نكون مستعدين له من ذي قبل . وقد أشار إلى ذلك اللورد لوثين بكلمات موجزة آتية :

« إنه قبل ستين سنة كان يقوم بين العلم والدين صراع لا يرجى أن ينتهي أبداً . وكان بين التصور الروحي والتصور المادي للحياة حرب شديدة يخيل إلى المرء أنها لن تنتهي قبل أن يفنى أحد الجانبين فناء كاملا . ولكنه جاء الفريقان اليوم وقد وضع كل منها الأوزار . فلا العالم الطبيعي (Scientist) ولا الرجل الديني يدعي الآن بجزم أنه قد وفق لحل لغز هذا الكون . بل الحق أنه قد صار كلاهما يشك – عند نفسه – في أنه هل يعرف شيئاً عن هذا اللغز أم لا يعرف . ومن ثم قد صار من الممكن أن يمتزج العلم والدين امتزاجاً كان من المستحيل في أوائل سورة التحقيق العلمي » .

إن اللورد لوثين لا يكاد يتحرر على كل حال من التصور المسيحي

للدين . ولم يبلغه ما جاء به الاسلام من تصوره العقلي . لذلك فإن أقصى ما يفكر اللورد هو أنه من الممكن الآن أن يتم بين العلم والدين نوع من الامتزاج . ولكنا نعتبر هذا الامتزاج بين العلم والدين شيئاً لا يعقل. لأنا نعتقد أن الدين الحقيقي هو الذي لا يكون منفصلاً عن العلم بل يكون منه بمنزلة الروح والقوة الموجهة ، وأن الاسلام في الحقيقة دين من هذا الطراز ، ولئن كان هناك ما يمنعه اليوم أن يكون روحاً في هيكل العلم فهو ليس بنقص داخلي فيه بل هو غفلة متبعيه وتجاهل أصحاب العلم الطبيعي العصري وتعصبهم الجاهلي عليه . ولو أنه يزول اليوم عن طريقه هذان العائقان فلن يكون الاسلام إلا روحاً سارية في جسد العلم .

وقد بحث الخطيب الفاضل بعد ذلك أنه أي نوع من الدين يستطيع أن يقف أمام الوعي العلمي والنقد العقلي الذي طلع به هذا العصر وما يجب أن تكون مزايا الدين الذي يفتقر اليه الانسان في عصر النور هذا، وما هي المطالب الحقيقية التي يلتمس الانسان لأجلها هداية الدين . وهذا الجزء من خطبته هو أجدر بالعناية والامعان ، فيقول اللورد :

« إن كنت لا أخطىء في تقدير الأوضاع الراهنة فان من الحقيقة أن الاختبار الذي قد تعرض له الدين في هذا الوقت لن يخرج منه فائزا إلا إذا اطمأن الجيل الناشىء بعد ما يمتحن نظامه الداخلي أنه يضمن الحل الأقوم لكل ما يواجهه في الحياة من المسائل العملية والمشكلات المزعجة المتعقدة. وذلك أن النحلة الشخصية قد مضى زمانها. وان الديانة العاطفية المحضة أيضاً لم تعد طلبة أحد الآن. وقد انتهى كذلك عهد ذلك الدين الذي

لا يهدىءمن بال الفرد ولا يشد أزره إلا بأن يعطيه تعليمات قليلة بشأن سلوكه الخلقي ويبعث في نفسه أملا في نجاة لن يتكشف أمرها إلا بعد الممات . وإنما الانسان العلمي العصري يريد أن يمتحن كل شيء حتى الحق والصدق على محك النتائج البينة . وإن كان عليه أن يتبع الدين فهو يطلب أن يبين له الدين ماذا بيده من حل مسائل حياته العملية . أما الأمل في حصول النجاة بعد سلسلة متكررة من المواليد في هـذه الدنيا أو الرجاء في التوصل إلى الملكوت السماوي بعد اجتياز باب الموت، فليس من الأمر الذي يدفعه إلى اعتناق الدين على أساسه وحده . انه يطلب من الدين أن يزوده قبل كل شيء بذلك المفتاح الذي يفتح به الحقيقة المغلقة لهـذا الوجود ، ويهتدي إلى حل للغزه تطمئن اليـه النفس ، وأن يبين له ثانياً بإقامة البرهان على الصلة الواضحة بين العلة والمعلول والسبب والنتيجة على النحو العلمي السانتيفيكي أنه بأي وجه يمكن الانسان أن يسخر تلك القوى التي قد انفلتت من يده الآن،وقد جاءت تهدد نوعه بالهلاك والبوار بدل أن تنفعه ، وبأي طريق يتغلب على المفاسد الاجتماعية المنتشرة في بني جنسه كالبطالة ، وعدم المساواة والظـلم والاعتداء والحرب والقتال ، وكيف يمنع التنازع بين الأفراد وتبدد النظام العائلي ، الذي قـد ذهب بمباهج الحياة الانسانية كلها .

إن الانسان لا يتطلع اليوم إلى الدين إلا بسبب أن العلم (Science) قد زاد في مشكلاته بدل أن يحلها . فهو مضطر لأن يطلب من الدين حلا لشبهاته ومشكلاته اضطراراً لم يعهد فيه من قبل . فإذا كان الدين يريد الآن أن يحتفظ بمكانته ويستعيد ما زال من سلطانه فعليه أن يجيب

كل هذه الاسئلة جواباً روحياً، يكون في الوقت نفسه علمياً سانتيفيكياً، ويمكن أن يختبر صدقه على محك النتائج في هذه الدنيا ، بدون أن يحال ذلك على الحياة الاخرى بعد الموت . إننا ـ أهل الغرب ـ نعلم أن هذا هو السؤال الأخطر الأم الذي قد واجهنا في هذا العصر . فهل باستطاعتكم ـ معشر أهل الهند ـ أن تجيبوه وتجدوا له حلا ؟ » .

وإذا مر القارىء على هذا الجزء من خطبة اللورد لوثين فانه ليخيل اليه أن هناك ظمآنا لا يعرف وجود الماء ولكنه يحس بكيفية ظمئه أصدق ما يكون من الاحساس . فهو يعفي يبين لنا أن أوام كبده يتطلب شيئاً يكون فيه هذا وهذا من الصفات . فلو أننا نضع أمامه في هذه الحالة كأساً من الماء لصاحت فطرته من الفور أن هذا هو الشيء الذي يتعطش اليه ، ووثب نحوه ليشربه . وليس هذا يخص اللورد لوثين وحده ، بل الامر أن الذين قد لفحهم سعير الحضارة والمدنية الغربية في أوربا وأميركا وسائر العالم ، وقد جاوزوا الحافة الشجراء من صحراء الفلسفة والعلوم إلى قلبها الرملي القفر الذي لا ماء فيه ولا ظل ، قد أصابهم جميعاً مثل هذا الاوام ، وهم كلهم يتطلبون شيئاً بتلك الصفات التي ذكرها اللورد لوثين ، وهم كلهم لا يعرفون اسم الماء ولا أين يوجد . ولكنهم يصيحون الفينة بعد الفينة : « ظمىء الفؤاد فهاتها يا ساقي ! »

إن الماء لا ريب قد سمع القوم باسمه ولكنهم يرتاعون لهذا الاسم لمجرد أنهم لم يجدوا مسماه الحقيقي. وأما الذي قد بلغهم عنه من أسلافهم الجاهلين المتعصبين فهو أن الماء شيء مسموم جداً يجب أن لا يقاربه أحد. ولكنهم

قد بلغ منهم التعطش أن لو يوضع أمامهم الشيء بذاته بدون أن يعلن اسمه فلا جرم أن يصيحوا أن هذا هو الذي هم يظمأون اليه . ولو يقال لهم أنه هو (الماء) الذي كانوا يهابون ذكره لقضوا العجب من هذا الخداع الذي قد انخدعوا به إلى الآن .

إن الإنسان العلمي المصري ، قد امتحن النصرانية وخبر ما عندها جيداً . وقد تجلى له كالشمس أنها ليست العلاج الشافي لمرضه . وبعد النصرانية قد تروقه وتسحر لبه الديانتان: الهندكية والبوذية ، لفلسفاتها الخيالية الاسطورية ولتعبدهما القديم على الوجه التقليدي التاريخي ولكن فشل هاتين الديانتين أيضاً يفتضح لاول امتحان النقد والتحليل العلمي ، فأما البوذية فتكاد تكون طبعة هندية للنصرانية . وأما الديانة الهندكية فهي تخلق بنفسها تلك المشاكل والعقد التي لأجل التخلص منها يشعر الانسان العلمي المصري بضرورة الدين. فهي التي تشجع على عدم المساواة بين الانسان والانسان أكثر من غيرها،وتحل المراباة واستثمار الاموال الذي هو أقبح صور السلب والنهب الاقتصادي جزءاً لنظامها لا ينفك. وتبقي على السبب الحقيقي لقيام الحروب ـ وهو التفريق بين المجتمع الانساني بمفارقات الجنس والنسل،وبعث المنافرة النسلية بين أفراده ـ شيئاً متأصلا في أساسها لا يبرحه. فالنظام الذي قد قررته هذه الديانة للحياة الاجتماعية ليس من شأنه أن يصل بين الافراد الانسانيين ، بل هو يقسمهم على شق الاجناس والطبقات . وان قوانين اجتماعها تبلغ من الخلوقة والبلى بحيث قد اضطر أبناء البيوتات الهندكية النازلة من آلاف السنين أنفسهم أن

بلغوها في عصر الوعي العلمي والعملي هـذا . ذلك بأن تلك القوانين لا تقوم على أساس من العلم والعقل ، بل تستند إلى العصبيات والاوهام. ثم إن هذه الديانة توجد أضعف وأفقر فيما وراء هذه المسائل الدنيوية من مسائل اللاهوت والاخلاق فليس عندها مفتاح لفتح المغلق من حقيقة هذا الكون بطريقة مقنعة ، وعقائدها من جنس العقائد التي لا يطالب في بابها إلا القبول والاذعان، ولا يمكن أن يثبت شيء من ذلك ببرهان علمي أو عقلي. وأما في نظام الاخلاق فلاشك أن الديانة الهندكية تقدم طائفة من المفروضات الرائعة المعجبة كما قدم واحداً منها في أيامنا هذه المهاتما غاندي، ولكنه يخلو من البرهان العقلي والحكمة العملية (Practical Wisdom) وفي عصر الوعي العلمي هذا لا بد أن يفتضح فشله عما قريب ، إن لم يكن قد افتضح بعد .

ولا يبقى في المضمار بعد ذلك الا الاسلام . وهو الذي يثبت على المحك ويوافق كل معيار من تلك المعايير التي يطلبها فملا الانسان العلمي العصري ، أو يمكن أن يطلبها لدينه المنشود .

أما القول بان الدين مسألة شخصية فقط ولا صلة له إلا بالضمير الفردي وحده ، فقد أصبح من خبر كان . إنه من جملة السخافات الفكرية التي راجت في القرن التاسع عشر ، فلا ينفك يرددها في الهند في هذا العقد الرابع من القرن العشرين أولئك المحافظون الذين قد تعودوا السير خلف العالم على مسافة خمسين عاما أبداً ، على رغم ادعائهم للتجدد والتقدم . وذلك أنه قد أصبح أو كاد من المسلم به الآن انه لا يمكن تصور الفرد منفصلا عن الجماعة ، اذ كل فرد إنساني قد ارتبط بفرد

آخر عالا يحصى من الاواصر الكبيرة والصغيرة ، وليس المجتمع في جملته الا كالجسم الحي يكون فيه الافراد بمثابة الجوارح والاعضاء . وان كانت هناك ضرورة الدين فهي ليست للفرد وحده لطمأنينة قلبه ونجاته بعد الممات ، بل هي للجماعة كلها لكي تنظم أمرها وتدبر جميع شؤون حياتها الدنيوية على ضوء هدايته . وان انعدمت ضرورة الدين فهي تنعدم للفرد أيضاً كما تنعدم للجماعة . ومن التصور الصبياني السفيه أن يكون نظام الحياة الاجتماعية على وضع وتكون عقائد الافراد وأعمالهم الدينية على وضع آخر مختلف لا صلة بينها وبين ذلك النظام ، لان العقائد والاعمال الدينية ان لم تكن مرتبطة بالحياة الاجتماعية برباط ، فانها شيء عبث يخلو من كل فائدة . وليس ذلك فقط ، بل هي حرية أن تضعف وتضمحل في نظام اجتماعي لا تتعامل مع أجزائه الاخرى . ومن ذلك لا يمكن أن يكون الامر الا على أحد اثنين : إما أن يكون نظام الجماعة با كملها لادينيا صرفا ويطرد الدين من حياة الانسان طرداً تاما ، كما هو مذهب الشيوعيين . وإما أن يكون النظام الاجتماعي با كمله دينيا ويعترف بكون الدين هادياً ومرشداً لكل من العلم والمدنية ، كما يقتضيه الاسلام. ولطالما جربت الدنيا الصورة الاولى منهما ، فنتجت عن هذه الشجرة الخبيثة تلك الثمرات الكريهة المرة التي قد ذكرها اللورد لوثين . وهذه هي التي كان يمكن أن تنتج عن تلك الشجرة فنتجت بالفعل وستنتج أبداً فيما يستقبل . فليست نجاة الدنيا الآن إلا في الصورة الاخرى ويبدو أن فرصة ظهورها إلى حيز العمل لا تزال تتقارب يوماً بعد يوم .

ولكن الانتفاع بهذه الفرصة أو تضييعها للابد كما مر متوقف على المسلمين . إن مجرى الحوادث قد جاء بالدنيا وبالقطر الهندي أيضاً لكونه جزءاً منها إلى موقف هام يمكن أن تميل منه إلى الاسلام ، كما يمكن ان تميل إلى المادية ودرك الفساد الخلقي الاسفل . وان ميلانها الآن بالطبع إلى هذا الطريق الآخر لكونها قد سارت فيه منذ زمان ، مع أنها خائفة مذعورة ، لما ترى من مهالك هذا الطريق ، وتردد نظرها في فزع إلى الجهات الاربع لتجد سبيلا للفرار . ولكن سبيل الفرار والنجاة لاتراها عيونها هي نفسها لما يغشاها من ظلام التعصب . انها في الحق لفي حاجة الان إلى رجال من أهل الاسلام ينهضون بالعزم والجد فيزيحوا الغشاوة من أبصارها ويبرهنوا لها أن صراط الاسلام المستقيم هووحده سبيل النجاة مما هي فيه . إن مثل هذه الجماعة المجتهدة والمجاهدة لو تنبعث من بين المسلمين اليوم فانه يمكنهم أن يصبحوا قادة العالم باجمعه، ويستعيدوا مكانة العز والشرف التي كانوا عليها في الغابر ، والتي يرون عليها اليوم الامم الغربية فيتحلب ريقهم حرصاً على اتباعها . ولكنه إن بقي جمهور هذه الامة متقاعدين هكذا بضعف الهمة وخور العزيمة ، وبقي شبابها هكذا يظنون غاية كمالهم في اقتيات فضالات الغير ، وبقي علماؤها متشبثين كما هم الآن بالمناقشات العميقة حول مسائل الفقه والكلام التي قد ولى زمانها . وبقي من هوان قادتها وزعمائها السياسيين ومن حالتهم الذهنية المتخلفة أن يظنوا السير في مؤخر ركب الامم الاخرى أعلى مراتب العزيمة النضالية ويعتبروا دفع أمتهم إلى الخداع الاكبر من خدع

هذا القرن العشرين غاية الكياسة والحكمة .. وبالجملة إن بقي كل أجزاء هذه الامة ، من الايدي العاملة إلى الاذهان المفكرة والنفوس الواعية، على تعطلها أو على تعسفها وخرقها ولم يتقدم من هذا الحشد المظيم المشتمل على مئات الملايين من الافراد رجال قليلون قد تشمروا لمزاولة الجهاد والاجتهاد في سبيل الله . . فان هذه الامة المسلمة أيضاً ستتبع الدنيا إلى ما هي منحدرة اليه من الدرك الاسفل وتهوي في هاوية الهلاك مشدودة بذيلها ، وسينادي الغضب الالهي مرة أخرى :

ألا بُعداً للقومِ الظالمين ! .

على هامش كتاب

النزاع بين الشرق والغرب في تركيا

(مجموعة خطب السيدة خالدة أديب خانم)

زارت الهند في الماضي القريب الفاضلة المجاهدة التركية السيدة خالدة أديب خانم بدعوة من الجامعة الإسلامية ، وألقت بضع محاضرات في عاصمة دهلي ، قد قام بترجمتها إلى اللغة الأردية أستـــاذ الجامعة الفاضل الدكتور عابد حسين بعنوان « النزاع بين الشرق والغرب في تركيا » . ونريد فيما يلي أن ننظر في هذه المجموعة من المحاضرات نظرة نقد وتحليل.

إن في العالم الإسلامي الآن قطرين اثنين يتبوءان منصب القيادة بين مسلمي العالم باعتبارين مختلفين: هما مصر بالاعتبار المعنوي وتركيا بالاعتبار السياسي . أما القطر المصري فترتبط به الأمم الاسلامية بعلاقات أوثق وأعمق ، لأن لغته هي العربية ، اللغة القوميـــة المشتركة لجميع الأمم الاسلاميـة ، ولأن مطبوعاته تنتشر بين مسلمي العـالم كله ويمتد تأثيره الفكري إلى الصين شرقاً وإلى مراكش غرباً ، ثم هو الذي هو أكبر وسيلة للارتباط والتفاهم بـين المسلمين والتعرف على أحوالهم في مختلف أقطار الأرض . وأما تركيا بخلاف هذا فلا ريب أن العالم الاسلامي كله

يجل ويكبر ما لهذه الأمة من حياة نضالية وماقامت به من الدفاع الجريء في وجه الحملات الغربية وما قدمته من التضحيات في سبيل العز والشرف القومي ، ولهذا كله تحتل هذه الأمة بين المسلمين مكانة السيادة والقيادة، ولكنه مع هذا كله قد جاءت غرابة اللغة وفقد أسباب التفاهم والارتباط حاجزاً قوياً بين تركيا ومعظم الممالك الاسلامية ، وقد قلل ذلك من معرفتنا بالارتقاء الفكري في الأمة التركية ، وبتركيبها الذهني الحديث وبما أصابها من التطور في الناحية المدنية والسياسية والدينية والعلمية . وقلما وجدنا الفرصة الكافية لأن نفهم — على الخصوص — كنه الأسباب الداخلية لتلك الثورات التي وقعت في تركيا في العقد الماضي من السنين . فكثير من الناس من بيننا ساخطون على الأتراك ، وهناك منهم من يظنون بهم حسناً ، ومنهم آخرون قد جعلوا تقليد الأتراك للغرب حجة لنزوعهم أنفسهم إلى الحضارة الغربية . ولكنه ليست المعلومات الموثوق بها في هذا الباب حاصلة عند أحد . وإن كان لدينا بعض المعلومات فهي لا تكفي لتفهم روح تركيا الحديثة .

في مثل هذه الظروف نعد من حسن حظنا أن قد زارت وطننا وكشفت لنا عن باطن أمتها التركية شخصية لم تلعب على مسرح الثورة التركية دور الممثلة فحسب ، بل كانت قوة من القوى المهيجة لتلك الثورة . وقد حباها الله بجانب ذلك بالنظرة العلمية التحقيقية والفهم الفلسفي والتعمق الفكري ، الذي تستطيع به هذه الفاضلة أن تفهم بنفسها العوامل الداخلية للأحداث الخارجية وتبينها أيضاً لغيرها من الناس. فهذه

أول مرة تسنح لنا الفرصة فيها الآن نعرف تركيا معرفة صحيحة عن طريق هذا المصدر الموثوق به . وقد حاولت هذه الفاضلة أن تزيح لنا الستر عن روح تركيا الحديثة وقد أخبرتنا بكل أمانة وصدق بأن الأمة التي لا تتولى قيادة العالم الاسلامي في المحيط السياسي فحسب ، بل هي عاملة على إحراز قيادتها الفكرية أيضاً ، ماذا حقيقتها الداخلية ؟ ومن أي العناصر تم تركيبها ؟ وما هي القوى العاملة في كيانها ؟ وما هي الأسباب التي قد زجتها إلى موقفها الحاضر ؟ وما هي وجهتها الآن وإلى أين تسير ؟ فهذا المجموع الموثوق بـه من المعلومات مفيد لنا باعتبارات شتى . فليس من فائدته الوحيدة أنه قد تبلور لنا واقع الامة التركية كما هو ، بل من فوائده الكبرى أيضاً أننا نستطيع الآن أن نفهم روح ذلك الايحاء الذي لا تزال تتلقاه أجيالنا الناشئة من قبل تركيا فيها أصح وأكمل ، وأنه قد أتيحت لنا فرصة أخرى للتعمق في الأسباب الداخلية لهذه الثورة التي قد بدت طلائعها في العالم الاسلامي الآن .

وقبل أن نعرف التركيا الجديدة بواسطة السيدة خالدة أديب خانم ، يحسن بنا أن نعرف السيدة نفسها جيداً . إنه لا شك في أن السيدة التركية قلبها مسلم بكل معنى الكلمة ، فائض بالايمان ، الذي ينبغي أن نغبطها عليه لأنه إيمان امرأة مجاهدة[1] ثم لا تشوب أفكارها شائبة من

(١) نقول مع الأسف ان الذي اطلعنا عليه من أحوال الفاضلة التركية فيما بعد لم يدعنا نثبت على هذا الرأي أيضا .

الالحاد واللادينية . إنها تحب الاسلام ذلك الحب الذي يجب أن يعمر قلب كل امرأة خالصة الاسلام . ولكن كما أن قلبها مسلم ليس ذهنها مسلماً كذلك . إن السيدة أكثر ثقافتها هو الثقافة الغربية الجديدة وأكثر ما درست من العلوم هو العلوم الغربية . ومن ثم قد نظرت إلى الدنيا والى الاسلام وامتها التركية بالمنظار الاوربي، وإن مدار كها الفكرية والنظرية قد انصاغت في قالب الغرب . ولا ريب أن ما تكنه نفسها من النزعة الاسلامية والشرقية قد عارض إلى حد كبير سيطرة النزعة الغربية هذه على ذهنها، ومن نتيجة هذا التعارض بين النزعتين في ذهنها وقلبها أنه يوجد في أفكارها كثير من التوازن والاعتدال بخلاف غيرها من زعماء الامة الثوريين ، ولكن هذا التعارض بين قلبها وذهنها لم ينج السيدة من غلبة التأثير الغربي .

أما معرفة السيدة خالدة بالاسلام فتبدو محدودة جداً ، ولعلها لم تصرف من ساعات حياتها لمطالعة القرآن الكريم والسنة النبوية والتاريخ الاسلامي عشر ما صرفته لمطالعة الفلسفة الغربية وعلوم التاريخ والعمران . ومن ثم نرى أن أفكارها التي تلوح لنا من خلال محاضراتها لا شك تنم بحسن الاعتقاد والايمان ، ولكن ليس فيها من الفهم والبصيرة والتدبر شيء كثير .

ففي خطبتها الأخيرة تقول السيدة التركية : « إن شخصية غاندي انموذج كامل للاسلام الجديد » . فهذه الكلمة لا تخرج طبعاً إلا من لسان من لا يعلم ما الاسلام وما أرفعه عن النسبة إلى القديم أو الجديد، وكيف

يكون انموذجه الكامل. إن من كان له نظر في مزايا السيرة الاسلامية وكان قد اجتلى النماذج الكاملة لهذه السيرة فلا يملأ عينه حتى أكابر أبطال التاريخ العالمي، دع عنك غاندي أو أمثاله. ولا نقول هذا بدافع من العصبية القومية، بل الأمر تثبته الحقائق التاريخية التي لا تجحد. تمثل في ذهنك سِيَر أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وعلي المرتضى والحسين بن علي، وأحمد بن حنبل وعبد القادر الجيلاني رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، ثم انظر بعين الانصاف مَن من رجالات التاريخ العالمي - عدا الأنبياء عليهم السلام - يجدر بأن يوضع في مستوى هذه الشخصيات العالية الرفيعة.

إن السيدة الفاضلة ترى في تركيب المزاج السياسي للامة العثمانية آثار كل شيء: من خصائص الجنس التركي القديم إلى حضارة اليونان وبيزنطة والروم حتى إلى ديمقراطية أفلاطون، ولكنها لا تكاد ترى فيه أثراً لتعاليم القرآن الكريم والنبي العربي ﷺ. والحال أن الذي هذب أتراك البادية من آسيا الوسطى وكساهم حلة المدنية والعمران وخلق فيهم الصفات اللازمة لقيادة الدنيا مع القوة والمقدرة على غزو العالم، ثم جعلهم قوة من قوى البناء والتعمير، لا الهدم والتخريب، للنوع الانساني، هو هذا التعليم القرآني الذي جاء به النبي ﷺ. إن أقصى ما لمحت السيدة خالدة أديب من أثر للاسلام في مقومات الجنس العثماني هو العدل والمساواة الاسلامية فحسب، وفي هذا أيضاً لا توفى السيدة التعليم الاسلامي حقه، فهي لا ترى في موقف شيخ الاسلام جمالي افندي من السلطان سليم حين أراد نشر الاسلام في رعيته بقوة السيف فمنعه شيخ الاسلام من ذلك

فأذعن لأمره سلطان جبار كمثل سليم .. لا ترى السيدة في أعماق هذا الموقف الجليل إلا شعور القومية العثمانية وإلا التحمس لصون « مبادىء الحكم العثماني » بدل أن تجد فيها آيات العدل الاسلامي . ولا يخطر ببال السيدة أن فتوى الشيخ جمالي افندي كانت تحمل روح (لا إكراهَ في الدين) وإن الذي جرأه على ذلك الإفتاء في وجه السلطان سليم هوقوة اتباع الحق التي يبعثها الاسلام في قلب المرء وأن الذي أكره السلطان سليم على الخضوع أمام فتوى الشيخ هو عظمة الدين الاسلامي وحدها .

إن السيدة خالدة تبدو ضجرة مما ترى في الطبقة الحاكمة الموجودة من حب التطرف والاستبداد والحرص على التنظيم الاجبـــاري للحياة الاجتماعية والتقليد الغربي المفرط والنزعات المادية ، وخطتها المنحرفة في أمر الدين . إنها تريد امتزاجاً مستدلاً من « الحياة الغربية» و « الحياة الشرقية » وتريد موافقة بين « المادية » و « الروحانية » وهي تعترف أيضاً بأن الامتزاج الذي يضمنه الاسـلام بين هاتين النظريتـين للحياة هو الاحسن والأقوم . ولكنهاليست على بصيرة كاملة في الاسلام ، فلاتعلم ما هي الصورة الصحيحة لذلك الامتزاج ضمن مبادىء الاسلام وما هو خط القصد والاعتدال المستقيم بين جانبي الافراط والتفريط . على أنه إن تأملنا محاضراتها بصرف النظر عن آرائها الشخصية ، فانا نرى فيها بياناً واضحاً صحيحاً لعقلية تركيا الحديثةوميولها والأسباب التاريخية لثورتها . وهذا هو الذي نطلبه .

• • •

إن الامة التركية ـ ونعني بها الاتراك العثمانيين ـ دخلت في الاسلام في عصر بدأ فيه انحطاط المسلمين الفكري والذهني ، فماتت فيهم روح الاجتهاد وإن بقيت روح الجهاد ، وندر بينهم مفكرون متبصرون في الاسلام وعلماء متفقهون في الدين . فالحضارة الاسلامية قد اضمحلت من الضعف، والفكر الاسلامي قد فارقه الروح . وأصبحت الغلبة في الشريعة للتقليد الجامد الاعمى ، وتأصلت في محيط التمدن العناصر الطارئة من الأعجمية والرومية ، وغلب على التصوف المذهب الاشراقي وعلى التفكر النزعة الفلسفية . فلم يوجد بين المسلمين من يكتسبون العلم من القرآن والسنة مباشرة ، والاكثرية من العلماء تشتمل على الذين يحارون في معميات الالفاظ ويشغلون أنفسهم بمعضلات الكلام ويثيرون الجدال حول الشرح والايضاح لآثار المتقدمين البوالي . والامراء يتبعون سيرة قيصر وكسرى ، والصوفية والهداة الروحانيون خالون من روح التصوف الحقيقي لصدر الاسلام ، وقد عادوا يقلدون الرهبان وتاركي الدنيا من النحل الاخرى . وفي العلوم والفنون تعطل سير المسلمين نحو الرقي وقد توقف ارتقاؤهم أو كاد في درب التحقيق والاكتشاف، وأصبحت أعلام الهبوط بادية في جميع الممالك الاسلامية بعد كل ماسبق من الترقي والصعود !

فكانت بداية الاتراك في التاريخ الاسلامي إذن من نقطة ضعف أساسي. لقد قامت الدولة العثمانية تقريباً في الزمان الذي كان الارتقاء الفكري والنهضة العلمية قد أرهص بناؤه في أوربا. ومع أن الاتراك العثمانيين رفعوا راية الاسلام عالية في الدنيا وألقوا مهابته في نفوس العالم بما هزموا أوربا

مراراً متكررة في القرنين أو أكثر منذ قيام دولتهم ، كانوا هم كذلك يسيرون في جهة الانحطاط كعامة الامم المسلمة في هذا الزمان ، بينما الامم الاوربية التي تقابل الامة التركية في الميدان كانت تسير الخبب في طريق الرقي المادي والتقدم الفكري . وفي القرن السابع عشر انقلبت الاحوال ، فقد بلغ من إحكام التنظيم العسكري وتضاعف القوة المادية والمعنوية عند امم الافرنج أنها هزمت الاتراك المتخلفين هزيمة بينة لاول مرة في معركة سينت جوثرد . ولكن الامة التركية لم تتخذ العبرة بهذه الهزيمة فتابعت سيرها في منحدر الهبوط ، وتابع الافرنج سيرهم نحو الرقي والكمال ، حتى بلغت حالة الاتراك في جميع نواحي الاخلاق والدين والسياسة والعلم والمدنية قرارة الضعة ، وأصبحت غلبة الافرنج أمراً ظاهراً للعيان .

إنه في أوائل القرن التاسع عشر أحس السلطان سليم بهذا الضعف في الامة التركية ، فأخذ في إصلاح نظام إدارة الحكم ، وفي نشر العلوم الجديدة وتنظيم الجنود على النمط الحديث وترويج الآلات الحربية الاوربية ، ولكن الصوفية الجهال والعلماء الرجعيين ممن ليس لهم نصيب من علم الدين وروحه قاموا يعارضون إصلاحات السلطان . فجعلوا تنظيم الجنود على الطريقة الغربية في حكم اللا دينية ، وجعلوا لبس الزي الجندي الحديث في حكم التشبه بالنصارى وقد خالفوا حتى استعمال البنادق ذات الحراب لأن استعمال أسلحة الكفار عندهم إثم عظيم . وأساؤوا سمعة السلطان سليم وبثوا النفرة منه في نفوس الجمهور بقولهم إنه يسيء إلى الاسلام بترويجه أساليب الكفار . فأفتى شيخ الاسلام عطاء الله افندي

أن السلطان الذي « يعمل بخلاف القرآن » لا يجدر بالبقاء على العرش . وفي آخر المطاف عزل السلطان سليم في سنة ١٨٠٧ م . وهذه أول مرة قدم فيها الزعماء الدينيون بجهالتهم وظلمة فكرهم التصور الخاطيء أن الاسلام عائق للرقي .

وكانت أوضاع العصر متغيرة اذ ذاك بسرعة . وكان الاتراك أكثر تعرضا من غيرهم من المسلمين لتأثير ذلك التغير ، اذ كانوا يقابلون الامم الاوربية ويقاومونها وجها لوجه . وكانت صلاتهم السياسية والمدنية والتجارية مع امم الغرب عميقة جداً ، وكانت الامم الاوربية والنصرانية التابعة لهم نفسها تقبل تأثير الوضع الغربي بسرعة . ولكن زعماء الاتراك الدينيين الذين كانوا صفرا من روح التفقه والاجتهاد وجاهلين للتعاليم الاسلامية الحقيقية أغمضوا عيونهم عن كل ذلك التغير والانقلاب ، وأكرهوا الامة التركية على أن لا تخرج — ولو خطوة — من حدود البيئة التي سادتهم منذ سبعمائة عام . وتبع السلطان سليم السلطان محمود في الحكم ، فحاول الاصلاح ، ولكن العلماء والمشايخ خالفوه مرة أخرى وبتذليل كثير من العوائق والصعوبات تمكن السلطان في سنة ١٨٢٦ م من ترويج التنظيم العسكري الجديد في تركيا . ولكن العلماء لم يزالوا ينادون بان كل تلك الاصلاحات بدعة سيئة يراد بها تخريب الاسلام ، وان السلطان قد مرق من الدين وان التطوع في الجندية من هذا الطراز الحديث مفسدة لايمان المسلمين .

وكان هذا هو الزمان الذي أحس فيه أهل الفكر من الاتراك بتخلفهم وهوانهم القومي . فأقبلوا يدرسون أسباب رقي الامم الغربية

ويطالعون علومها وآدابها ويمعقون النظر في صور تنظيمها . وحاولوا أن يدخلوا على قوانين دولتهم وشؤون اداراتهم وأمور تعليمهم ونظام حربهم إصلاحات يستطيعون بها ان يسايروا الامم الغربية في طريق الرقي . وكان هؤلاء — كما قالت السيدة خانم — أناسا قد أشربوا في قلوبهم الروح الاسلامية ، وكانوا مسلمين صادقين قلبا وذهنا ، وكانوا لاريب يحسون بضعفهم ولكنه لم يغلبهم يوما شعور الذل والهوان أمام الغرب ، ولا كانوا يرتاعون لقوة الغرب ، ولا يقبلون كل مايأتيهم منه بدون تمييز . وإنما كانوا يهدفون الى ان يأخذوا من الغرب ماينفع ويفيد ، فيصلحوا به نقائص أمتهم ودولتهم ويتمكنوا من مجاراة الامم الاوربية في مضمار الحياة ، وقد قام هؤلاء فعلا بإصلاح نظام الدولة وتنظيم الجنود في زمن السلطان عبد المجيد ، وبثوا روح الحياة في آداب أمتهم وفتحوا المدارس والكليات الجديدة ، وأخرجوا في مدة سنوات قلائل جيلا كان تام الاداة في شؤون التفكير والتدبر ، بجانب مايتصف به من محاسن الثقافة الاسلامية . وقد أبلت هذه الطائفة بلاء حسنا في عمل الاصلاح القومي على رغم المشكلات الداخلية والخارجية حتى عزل السلطان عبد العزيز في سنة ١٨٧٦ . وكان من ثمرات هذا العمل الاصلاحي نبوغ القادة الحربيين كعمر باشا ، والساسة المحنكين كمدحت باشا وأقطاب الادب والفكر الصادقي الاسلام كنامق كمال وعبد الحق حميد .

ولكن السلطان عبد الحميد الذي تلا في الحكم حوّل مجرى هذه الحركة كلها الى جهة أخرى . لمدة الثلاثة والثلاثين عاما بين سنة ١٨٧٦ وسنة ١٩٠٩ ، التي جرت في أثنائها أمة شرقية أخرى — اليابان —

أشواطاً طوالا في حلبة الرقي قد أهلكها هذا السلطان الاناني المغرض في إماتة روح الامة التركية وفي منع رقيها العلمي والعقلي والمدني والسياسي والتنظيمي . ولا يلائم هذا المقام لان ننقد اعمال هذا الرجل بشيء من التفصيل . وإنما نكتفي بالاشارة الى انه ضيع زمان البناء والتعمير الذي كانت كل ساعة من ساعاته ثمينة جداً في عمل الهدم والتخريب، وطوح بأجود العقول والاذهان من الامة التركية .وقد أزجى القدر اليه رجلا عبقريا كجمال الدين الافغاني ولكنه لم ينتفع به وأضاعه . على أن أعظم الضرر الذي لم ينل الامة التركية فحسب، بل شمل العالم الإسلامي قاطبة من سوء تدبير هذا الرجل هو انه استغل سلطة الخلافة الدينية ونفوذ العلماء والمشايخ الرجعيين لنقض الدعائم التي أرساها المصلحون الاتراك لمهد التنظيم، وصد الارتقاء الفكري والادبي في الامة التركية والقضاء على الاصلاحات السياسية والتنظيمية . وكان من ردفعل هذه الخطة السلطانية القائمة على الاثرة وإهمال العواقب ان ثار الجيل التركي الناشىء ثورة عنيفة عادوا معها يعتبرون الدين مانعا للرقي وينحرفون ذهنيا عن شرعة الاسلام وتحولت النفرة التي انبعثت في نفوسهم – بحق – من أهل الجمود والظلام الفكري من العلماء والمشايخ . . تحول تيارها في عاصفة الثورة هذه الى الدين نفسه . فاعتقدوا بأنفسهم وحملهم العلماء والمشايخ الجاهلون على ان يعتقدوا بان الاسلام دين جامد لايصلح لمسايرة الزمن ولا تجاري قوانينه تغير الاحوال والاوضاع ، وليس فيه ما يكون له ثبات ودوام اللهم الا بعض العقائد . فهذا الاستبداد الملكي الممتد على الثلاثة والثلاثين عاما الذي كان لسوء الحظ ذا صبغة دينية جاء يبعث في الجيل التركي

الحديث النزوع الى المذهب المادي والالحاد ، والهزيمة الذهنيـة أمام الغرب والتقليد الاعمى للأفكار الغربية والنفرة من الماضي والتضجر من كل شيء قديم والكراهية الشديدة للخلافة والوحدة الاسلامية — التي اتخذها السلطان عبد الحميد آلة لاغراضـه الدنيئة — وأكد في نفوسهم انه إن أريد للامة التركية العز والشرف في هذا العالم فلا بد أن تهـدم جميع الاسس القديمة ويبنى عليها صرح القوميـة التركية على الطراز الغربي الخالص .

ان ثورة عام ١٩٠٨ دكت عرش حكومة السلطان عبد الحميد خان وانتقل الامر الى أيدي الشباب الثائر المضطرم ذي العقلية المنحرفة . وهؤلاء كما قالت السيدة خالدة أديب خانم كانوا مختلفين جدا عن رجال الاصلاح لعهد التنظيم . فلم يكن من بينهم رجل واحد يسامي حكماء عهد التنظيم في الاداة العلمية والتدبر والتفكير والسمو العقلي . ولا كان نصب عيونهم تلك الغاية السامية التي كان يطمح اليها أولئك ، ولا كانت سيرتهم تتسم بتلك القوة والاحكام الذي عرفت به سيرة الماضين ، ولاهم على شيء من تهذب اولئك المصلحين وحسن تربيتهم ولا فيهـم ذلك الحماس القومي وشعور العز والفخار ، ولا فيهم ملكة أسلافهم في النقـد والامتحان الذي يدركون به الفرق الصحيح بـين القديم والجديد . وانما كان هؤلاء جماعة من شبان لانصيب لهم من العلوم الاسلاميـة ناقصين في التربية الاسلامية ، ولا نظر لهم غائرا في علوم الغرب ايضا . وقد تمكنت من نفوسهم وأذهانهم عصبية شديدة على دينهم وحضارتهم وعلومهم وآدابهم وتنظيماتهم الجماعية القديمة ، وبلغت فيهم الروعة الظاهر

التقدم الغربي حداً متناهيا فكانوا يتململون شوقا الى أن يبدلوا كل ما عندهم من العادات والتقاليد القومية . فلما انتقل اليهم أمر الدولة طغى هذا التيار المحبوس الذي كان قد تعفن من السكون والوقوف طول ٣٣ عاما متدفقا كالسيل الهاجم . وهذا هو الزمان الذي سطا فيه على الاتراك غول القومية الضيقة والعصبية التورانية، وخبا حماسهم للوحدة الاسلامية فبدأوا يعيبون الدين ويعترضون عليه، ويدعون بشدة الى قبول الحضارة الغربية بحذافيرها . ولقطع الصلة بالماضي وزيادة التقرب الى الغرب اقترحوا اصطناع الخط اللاتيني للغة التركية . وقامت طائفة من العلماء الرسميين تصوغ الاسلام في قالب النظريات الجديدة ، على رأسها رجل كضيا كوك الب ، وهو الرجل الذي شدد في الدعوة الى الاتحاد التوراني ضد الوحدة الاسلامية ونفر الاتراك من تاريخ العهد الاسلامي وأبطاله المشاهير وعلمهم الاعتزاز بالتتر المجميين القدامى — الذين أبرز شخصياتهم جنكيز خان وهولاكو — واجتهد لتطهير اللغة التركية من خصائص الادب الاسلامي وأكد على تقليد الغرب تقليداً كاملا ، في المدنية والاجتماع والحضارة والعادات والحياة العملية . فأخذ هذا الرجل الذي ينزع تلك النزعة ويفكر على هذا الاسلوب مكانة الامام المجتهد للجماعة الثورية الجديدة وجعل يحاول مع اتباعه ، ان يؤول التعاليم الاسلامية تأويلا يمكن ان يثبت به كون كل امر من أمور الاسلام — اللهم الا بعض العقائد والمبادىء الخلقية — قابلا للتغيير فيسكب في القالب الغربي .

كان بجانب ان الامة التركية على عتبة مثل هذه الثورة العظيمة ،

وكان هناك ـ بجانب آخر ـ علماء الاتراك ومشايخهم الذين لم يكونوا يرضون ـ حتى في هذه الآونة ـ أن يخرجوا مما ضربوا حواليهم من جو القرن السابع . وكان من جمودهم وضيق تفكيرهم ونزوعهم إلى القديم وإبائهم الأكيد لمسايرة الزمن ما عهد فيهم أيام السلطان سليم . فكانوا يقولون حتى الآن إن باب الاجتهاد قد انغلق بعد القرن الرابع ، والحال أن باب الالحاد الصريح كاد ينفتح أمام أعينهم، وكانوا لا يزالون يدرسون ويدرّسون في الفلسفة والكلام تلك الكتب التي كان الزمان قد خلفها من ورائه منذ خمسمائة سنة وتقدم إلى الامام . وكانوا يلقون على الناس في مواعظهم حتى الآن ذلك التفسير القرآني وتلك الاحاديث الضعيفة التي لاشك أن كان الناس يستمعون اليها بشوق قبل مائة سنة ، ولكنها جاءت تنفر في هذا الزمان العقول الجديدة لا من أولئك المفسرين والمحدثين فحسب بل من القرآن الكريم والحديث النبوي نفسه ، ثم إنهم كانوا مصرين على أن تنفذ بين الامة التركية تلك القوانين الفقهية التي هي مكتوبة في مجموعات الشامي وكنز الدقائق ، وإن كانت نتيجة هذا الاصرار أن يتملص الأتراك حتى من اتباع القوانين الاصولية المنصوص عليها في القرآن والسنة!

فموجز القول أن العلماء والمشايخ ما زالوا ـ بجانب ـ ثابتين لا يتزحزحون على سلوكهم الذي انحدر بالامة التركية من مرحلة عهد التنظيم إلى مرحلة الثورة هذه ، وظل الزعماء الثوريون للامة التركية ـ بجانب آخر ـ يبتعدون عن الاسلام في حياة الفكر والرأي والعمل الواقعية ، مع كونهم مسلمين من الناحية القلبية العاطفية . وفي هذا العصر وقعت الحرب العالمية الاولى التي جاء فيها مسلمو العرب والهند

يحاربون الاتراك ويقتلونهم جنبا إلى جنب مع أعداء الاسلام . ولما قام الاتراك بعد الحرب العالمية يجتهدون لصون حياتهم القومية من الفناء الكامل كان في طليعة من خالفهم في ذلك هو الخليفة القائم وشيخ الاسلام. فجاءت هذه الضربات النهائية قاضية على الروح الاسلامية المضمحلة في التركي الثوري . ومن نتيجتها ما صرنا نشاهده اليوم من هذه النزعة التجددية المتطرفة في تركيا الحديثة . وذلك أن الافكار الثورية التي كانت فجة بعدُ في سنة ١٩٠٨ ، والتي كانت منعتها حروب طرابلس وبلقان والحرب العالمية الاولى وحملة اليونان من النضوج والكمال بلغت نضوجها وكمالها على أثر مؤتمر لوزان وصارت تظهر في حيز العمل . فاختيار الطريقة الغربية في المدنية والاجتماع والتعصب القومي المتناهي في الادب واللغة والسياسة والتفريق بين الدين والدولة عقب إلغاء الخلافة، وفصل الدين من الدولة ـ كما قالت السيدة خانم ـ وجعله تابعاً ومحكوماً للدولة واختيار القانون السويسري بدل القانون الاسلامي وتغيير القوانين القرآنية الصريحة في مسائل الوراثة والنكاح والطلاق وتسيير طبقة الاناث على درب الحرية الذي سارت عليه نساء الغرب بعد الحرب العالمية ، على رغم تعاليم الاسلام ، كل أولئك نتائج طبيعية لجمود العلماء والجهال وضلال الصوفية المتبعين للأهواء وأنانية السلاطين المستغلين لمنصب الخلافة وجهل الزعماء الثوريين بعلم القرآن والسنة . إنه لمن المؤسف جداً أنه لم ينبغ من بين الامة التركية في هذا القرن رجل واحد يملك البصر النفاذ في القرآن والفهم الصحيح لروح التعليم الاسلامي الحقيقية ، فيدرس أوضاع العصر المتبدلة بإمعان ويستعمل قوته الاجتهادية السديدة ، ليطبق

مبادىء الاسلام على تلك الاوضاع ، ويخرج نظاماً شاملاً متسقاً يقوم على أساس الكتاب والسنة ويصلح لمسايرة الزمن .

إن الذين لا يعرفون كل هذه التحولات في التاريخ التركي يتعرضون للوقوع في أخطاء عجيبة . فأهل الفكر الديني القديم لا يزالون يصمون الشبان الاتراك بالكفر والفسق ، ولكنهم لا يعلمون أن علماء الاتراك ومشايخهم هم الاكثر ذنباً وجريمة من شبانهم أولئك ، فان جمودهم هو الذي أبعد الامة المجاهدة التي ما زالت تذب ـ وحدها ـ عن حريم الاسلام منذ خمسمائة سنة ودفعها من الحيـاة الاسلامية إلى الفرنجية ، ويخشى أن أمثال هؤلاء الجامدين لا بد أن يدفعوا الامم المسلمة الاخرى أيضاً إلى ذاك المنحدر . وبجانب آخر لا يزال المتجددون يعرضون على المسلمين كل ما ينزل عليهم من وحي انقرة كأنه هو الهدى وكأن القرآن قد نسخ ورسالة محمد ﷺ قد انتهت . فلا هداية الآن إلا في حياة أتاتورك ولا نور إلا في الوحي المنزل من سماء أنقرة ، والحال أن المسكين أتاتورك ومن يتبعه مصداق قول الله عز وجل: (مالهم بذلك من علم. إن هم إلا يخرصون).



خداع المذهب العقلي

ان التأثير الذي يؤثره التعليم الغربي والحضارة الجديدة في الأفكار الدينية لشبابنا الذين يكونون ناقصين في التعليم والتربية الاسلاميـة أو غير ناضجين ، قد يقدره المرء مما يصدر عن أمثال هؤلاء من الكتابات والخطب بين حين وآخر . ونذكر على سبيل المثال ما اطلعنا عليه أخيراً من المقال الذى قد خرج من قلم شاب مسلم حائز لشهـادة البكالوريوس من الولايات المتحدة في الهند . يقول فيه عند ذكر سياحته في بـلاد الصين واليابان :

ان الذين يصحبوننا من المسافرين الصينيين هم مدمنون للخمر أكالون يستطيبون لحم الخنزير إلى حد أنهم لا يستطيعون العيش بدونه . . . وها هو ذا السر من وراء ارتقاء النصرانية ، فالصيني يعد من العار اتبـاع نحلته القديمة مع التعليم الجديد . ولو انه عرف الاسلام لما أحجم عـن قبوله ، ولكن الآفة مع الاسلام انه يحرمه من جميع الاطعمة الشهية التي يستمرئها ، فهو يصير إذن نصرانيا على الرغم منه .... وليس من المستبعد ان تصبح النصرانية هي الديانة الرسمية للصين فيما يأتي من الزمان . وإني لأوثر شخصياً ان نرخص للمسلمين الحديثي العهد من أهل أوربا والصين

بعض الترخيص في أمر لحم الخنزير . واني أشك في كونه حراماً قطعياً حتى من نصوص القرآن . بل عندي الامر لا يعدو أن يكون الخنزير قد حرم على العرب بسبب خاص . فاي جناح الآن في استعماله في البلاد التي يكون أهلها مصداق الآية (فمن اضطُرَّ غير باغٍ ولا عادٍ ...). على كل حال هذا هو الحكم الوحيد — من أحكام القرآن — الذي لم أدرك بعد علة التحريم العام الذي جاء فيه ، إذ أن هناك من البعد الشاسع بين معدة الانسان وحوافز الاخلاق مالا ينبغي معه أن يتدخل الدين في أمور مأكلنا ومشربنا . ولو أنه يتدخل فيها ويقرء لنا بيان المائدة (Menu) أيضاً ، فلماذا لا يعلمنا الخياطة والحدادة والصرافة كذلك . واني لأعتقد ان السر في عدم ارتقاء الاسلام في العالم هو أنه يسلب المرء جميع حقوقه الانسانية ويتركه جسما بلا حياة أو طفلا بلا شعور . فهو يغمض عينيه عن كل ما هو لازم لرقيه في هذه الدنيا . ومن الواجب عندي ان ينحصر الدين في تلك الحدود التي قد حده فيها النصرانيون .

ويكتب بعد ذلك عند ذكر أحوال شنغهاى :

وإذا رأى المرء هذا الخلق الذي لا يحصى من الناس ينعمون برغد العيش والهناء ، فلا يكاد قلبه يشهد أن هؤلاء برمتهم سيكونون حصب جهنم بعد مدة من الزمان ، كأن هذه هي الغاية الوحيدة عند الله من خلقه إيام . وان كان هؤلاء كلهم ـ اللهم الا النزر القليل ـ منكرين ووثنيين فهل ذنبهم الوحيد الذي يستحقون لاجله ان يخلدوا في جهنم هو أنهم عمروا أرض الله ؟ إن القوم لايقتلون الحجاج ولا يسلبون أموالهم ولا فيهم سيئة آل لوط ، ولا هم يأكلون مال الغير أو يتأولون الآيات

لاستباحته لانفسهم . انهم يعيشون حياتهم الوادعة الهادئة بأمن وسلام، ولكنهم مع ذلك يستحقون العذاب ! لماذا يا ترى ؟ ولاي ذنب ؟

لا شك في ان عقيدة الشرك من الحماقة والسخف . ولكن قولوا لي : ان آمن المرء بايحاء من فطرته بذات سامية تميته وتحييه فهل أنتم تكونون أعداءه ويكون عدوكم لمجرد انه تعلو ماهية تلك الذات عن فهمه بقدر ما هي عن فهمنا أيضاً ، أو لمجرد انه لايعتقد العربية هي اللغة الالوهية ؟ .. بل الأمر في الحقيقة أنه لايهمكم مثل هذه الامور . إنما المهم عندكم أن يكون الجلباب على تقطيع خاص ، وتكون العمامة على هيئة بعينها وتكون اللحية على الذقن بقدر معلوم ، وان يأكل المرء لونا بعينه من الطعام ، ولا يدخل أبدا المدارس الاهلية لانه لا تعلم فيها لغة الدين ولافنون الدين .

ويقول عن ميناء كوبي(Kobe) في اليابان :

بقيت أمشي فيشوارع كوبي مدة ساعتين فلم يقع نظري على متسول واحد ، ولا وجدت رجلا يسيء الحال في خرق بالية . هذا هو مستوى رقي الامة التي لاتعرف الدين ولا الله .

ويأخذ الفاضل بعد ذلك في الموعظة الحسنة ، على حد زعمه ، فيقول : —

اعلموا ان الاحسان هو أصل الدين ، ولا يحتاج الاحسان إلى لغة أو فن . وإنما غايته الطبيعية اننا مسؤولون عن أعمالنا في هذه الحياة وسنكون كذلك في الحياة الاخرى . وهذا هو الدين الاسلامي في

حقيقة الامر . واما ما عدا ذلك مما سميتموه « الدين » فهو خداع قد ابتليت به أنفسكم أو خلط قد وقعت فيه أذهانكم . فاذا ما حصرتم دينكم في هذين الامرين ـ أي الاحسان وشعور المسؤولية ـ وحطمتم كل ماترسفون فيه الآن من قيود الشريعة وأغلالها فانكم أيضاً ستركبون سنام الرقي مع الامم الاخرى ، بل يجب أن يقال : ستودعون ضميرا في نفوس تلك الامم ، التي ان لم تضع عنها الدنيا في هذه الحياة فلن يضيع عنها الملكوت السماوي أيضاً . إنكم لستم في أنفسكم أمة كهذه الامم بل أنتم مصلحون للامم ، ولكن لاتجعلوا الناس ـ بالله عليكم ـ يقولون : ان الامة الفلانية على قمة المجد والرقي من حيث المجموع ، ولكن المسلمين من أهاليها هم في حال بؤس وشقاء وإن السبب في شقائهم هذا هو دينهم العجيب.

هذه العبارة انموذج صادق الدلالة لذهنية جيلنا المثقف الجديد . انهم ولدوا في بيت مسلم ، ونشأوا كعضو بمجتمع مسلم ، وارتبطوا بالمسلمين باواصر التمدن والاجتماع . ولهذا كله قد شبوا على حب الاسلام والنصح للمسلمين والرغبة في البقاء في دائرة الدين . وقد وقر ذلك في نفوسهم من حيث لم يريدوا ولم يشعروا ولم يعملوا لذلك عقلهم أو فكرهم . بيد أنهم قبل أن يحول فيهم هذا الاسلام التقليدى اللا شعوري إلى الاسلام الاختياري الشعوري بفعل التربية والتعليم ، وان يؤهلوا لان يكونوا مسلمين عن فهم للتعاليم الاسلامية وامتحان لاحكام الاسلام وقوانينه باستعمالها في حياتهم العملية ، بعثوا إلى المدارس والكليات الانكليزية حيث ربيت قواهم الفكرية والذهنية على غير الطريقة الاسلامية للتربية

والتعليم . فاستولت على اذهانهم الافكار الغربية ومبادىء الحضارة الغربية استيلاء جعلهم ينظرون إلى كل شيء بمنظار الغرب . ويفكرون في كل مسألة بالذهن الغربي . ولم يعد من الممكن لهم أن ينظروا أو يفكروا مستقلين عن هذا التأثير الغربي . انهم تلقوا من الغرب درس المذهب العقلي (Rationalism) ولكن العقل في رؤوسهم لم يكن عقلهم أنفسهم وانما استعاروه من الغرب . فجاء مذهبهم العقلي المذهب العقلي الغربي في الحقيقة ، لا المذهب العقلي الحر . وأخذوا من الغرب درس النقد (Criticism) أيضاً ولكنه لم يكن درساً في النقد البريء الحر ، بل كان درساً لأن ينتقد كل ماليس غربياً بمقياس المبادىء الغربية التي يجب أن يعتقدها حقا وأرفع عن كل نقد . فلما خرج هذا الجيل من الكليات متحلين بهذا التعليم والتربية وخاضوا غمار العمل في الحياة ، كانت قلوبهم وأذهانهم قد وقع بينها بعد المشرقين . كانت القلوب مسلمة ولكن الاذهان غير مسلمة . وكانوا يعيشون بين ظهراني المسلمين وكانت معاملتهم اليومية أيضاً مع المسلمين وكانوا متصلين بهم بروابط التمدن والاجتماع ، يشاهدون فيما حولهم أحوال حياة القوم الدينية والمدنية وتتعلق بهم أيضاً أواصر حبهم ونصحهم . ولكن كل ما يملكون من قوى الفكر والفهم وتكوين الرأي كان قد انسكب في القالب الغربي . فلم تكن تطابقه ضابطة من ضوابط الاسلام ، ولا عمل من أعمال المسلمين فجاء القوم ينتقدون كل شيء يتصل بالاسلام أو المسلمين بالمقياس الغربي . فكل ما وجدوه لا يطابق هذا المقياس اعتبروه خطأ وأمراً واجب الاصلاح والترميم سواء أكان من أصول الاسلام وفروعه أم كان من عمل المسلمين فحسب .

ومنهم عنوا أيضاً بدرس الاسلام دراسة قليلة لاجل البحث عن أسباب هذه الحال المتخلفة . ولكنه مادام مقياس تقدهم وتحقيقهم غربيا صرفا فكيف كان للتعليم الاسلامي المستقيم ان يطابق ذهنيتهم الزائفة المعوجة !

إن هؤلاء المتجددين إذا أبدوا آراءهم في الشؤون الدينية فان السامع يتبين من كلامهم أنهم يتكلمون بلا تفكير أو شعور . فلا المقدمات من كلامهم تصح ولا هم يرتبونها على الاسلوب المنطقي ولا هم يحاولون الاستنتاج السليم . ويبلغ بهم الأمر في ذلك أنهم إذا تكلموا فلا يحددون حتى موقفهم أنفسهم ، بل تراهم يتخذون مواقف مختلفة متضادة في سلسلة واحدة من الكلام ، كانوا يتكلمون الساعة في موقف بعينه ، واذا في الجملة التالية حولوا هذا الموقف بغتة وجعلوا رأسهم مكان عقبهم وراحوا يتكلمون في الموقف الجديد المضاد . فالاسترخاء الفكري (Loose Thinking) هو الميزة البارزة لمواعظهم الدينية . انهم اذا تكلموا في أية مسألة غير مسألة الدين ، يتكلمون بحيطة وحذر ، ثقة منهم بأنه ان بدا منهم خطأ او زلل في تلك المسألة سيسقط اعتبارهم في أعين أهل العلم . ولكن الدين لما انه لا أهمية له عندهم لا يعتدون بأمره حتى بقدر ان يشعروا بضرورة اعمال الفكر والروية حين التكلم في موضوعه بل هم ينطقون في أمره بكل سهولة وفراغة بال كأن الناطق منهم مضطجع على الكرسي المريح عقب تناول الطعام وهو يتكلم استجماما للنفس على سبيل التفكه واللهو ، مما لاحاجة له فيه الى مراعاة ضوابط الكلام الجاد .

والشيء الآخر الذي يبدوا بارزاً في كتاباتهم هو فقدان المعلومات

وسطحية الافكار . إنهم لا يتجرؤون على ان يتكلموا في غير مسائل الدين بتلك المعلومات الناقصة وبذلك التفكير الفج لانهم يخشون ان يفقدوا اعتبارهم اذا تفوهوا بكلمة واحدة بدون التحقيق . ولكنهم لا يستلزمون شيئاً من التحقيق والتعمق والتفكير في أمر الدين ، بل هم يكونون الرأي بكل ما يسقط في أيديهم خلال دراستهم العاجلة . ويعالنون به من غير تحذر ، لانهم لا يخافون حساباً في هذا الموضوع وان حاسبهم أحد فلا بد ان يكون « رجل دين » وقد تقرر وأصبح من مسلمات الامور على سبيل الاصول الموضوعة ان « رجل الدين » في كل حال ضيق النظر مظلم الفكر نزاع الى القديم .

فالعبارة المقتبسة آنفاً للكاتب الفاضل – وقاها الله عين الحسود – تحمل كلا من هاتين الميزتين . فقبل كل شيء لا يعلم منها ان كاتبها هل هو يتكلم من موقف المسلم او غير المسلم . وذلك أن كل من تكلم في موضوع الاسلام فلا بد أن يكون له موقف من اثنين : موقف المسلم أو موقف غير المسلم . فمن تكلم من حيث هو مسلم ، سواء أكان راسخ العقيدة (Orthodox) او حر الفكر او في حاجة الى الاصلاح ، وجب عليه ان يتكلم داخل دائرة الاسلام ومعناه ان يعتقد القرآن منتهى كل كلام ، والحجة النهائية الاخيرة (Final Authority) ويذعن بما قد قرره الاسلام من مبادىء الدين وقوانين الشريعة . فانه ان لم يؤمن بحجية القرآن ورأى مجال القول في أمر قد نص عليه القرآن ، خرج عن دائرة الاسلام ولم يبق له شيء من منزلته الاسلامية حتى يتكلم في الاسلام . وأما الذي تكلم في الاسلام من حيث هو غير مسلم فله الحق

تماماً في أن ينتقد أحكام القرآن ومبادئه ويعترض عليها كيفما شاء ، لأنه لا يعتبر كتاب الله هو الحجة النهائية ، ولكنه متى وقف هذا الموقف فلا يحق له بعد ذلك أن يتكلم كالمسلم ويفسر للمسلمين أحكام الإسلام ويدلهم على أسباب رقيه . فكل عاقل رشيد متى أراد أن يتكلم في الإسلام فالمرجو منه أن يقطع ـ قبل كل شيء ـ بأنه أي الموقفين يختار لنفسه . وإذا اختار موقفاً بعينه فعليه أن يراعي في كلامه مقتضيات هذا الموقف ولا يحيد عنها ، لأنه لا يمكن أن يكون من فعل العاقل أن يتسمى باسم المسلم وفي الوقت نفسه يستعمل حق الاعتراض على المبادىء والقوانين التي جاء بها القرآن ، أو أن يشك في حجية القرآن وفي الوقت نفسه يلقي على المسلمين موعظة حسنة في أمر الدين. إنه الجمع بين النقيضين ، ومعناه الآخر أن يكون المرء مسلماً و غير مسلم في آن واحد . ويكون داخل دائرة الاسلام وخارجها في وقت معاً !.

ولا يبلغ من سوء ظننا بمنطقية صاحب المقال و كفاءته العلمية أن نتوقع منه أنه كان سيجمع المنزلتين المختلفتين في ذاته في وقت واحد على هذا النحو لو أنه تكلم في غير مسألة الاسلام . إننا لا نتوقع منه مثلا أن يكون قاضياً في إحدى محاكم حكومة الهند ثم يستعمل حقه في الاعتراض على مجموعة القوانين المنفذة في البلاد ، ولا نتوقع منه كذلك أن يدعي اتباع مذهب من مذاهب الفكر (School of Thought) ثم ينتقد المبادىء التي يقوم عليها ذلك المذهب انتقاد المعترض المخالف. ولكنه من أغرب الأمور أن صاحبنا قد وقف من الاسلام موقفين متناقضين

جداً ولم يخطر له أنه يغير موقفه مرة بعد أخرى في حديث واحد . فهو بجانب يدعو نفسه مسلماً ويتسمى باسم من أسماء المسلمين ويبدي الاسف الشديد لحالة المسلمين المتخلفة ويظهر رغبتـه في رقي الاسلام ويلقي على المسلمين موعظة «الاحسان» أي «أصل الدين» وبجانب آخر يأتي ويعترض على المبادىء والقوانين التي يقررها الكتاب الذي هو أساس هـذا الدين ومن الشرط اللازم لاسلام المرء أن يؤمن بكونه الحجة النهائية الاخيرة ان القرآن يحرم لحم الخنزير في أربعة مواضع لا في موضع [1] ، ولكن صاحبنا يحب أن يرخص لبعض الناس في أكله . وأعجب من ذلك أن هذا النزوع إلى الترخيص أيضاً لأجل رقي الاسلام ، كأن رقي الاسلام يهم صاحبنا أكثر مما يهم القرآن ، أو كأن هنـاك إسلاماً خارج حوزة القرآن يود صاحبنا رقيه . إن القرآن الكريم لا ريب يضع للانسان بيان المائدة (Menu) بمعنى أنه يهديه إلى ما يأكل وما لا يأكل وان يفرق بين الطيب والخبيث، ويقول بصراحة: (ولا تقولوا لما تَصِفُ أَلسِنَتُكُمُ الكَذِبَ ، هَذا حَلالٌ وهذا حَرامٌ) «النحل : ١١٦» ولكن صاحبنا يصر على أن له الحق في أن يقول هذا حلال وهذا حرام، ويتردد في الاعتراف بأن للقرآن حقاً في أن يجعل الأكل والشرب أيضاً تحت سيطرة الدين. ثم ان القرآن لا يحصر الدين في الحدود التي قد حصره فيها أتباع سينت بال (Saint Paul) ـ لا أتباع المسيح كما يقولون خطأ ـ بل هو يضع قوانين اللبـاس والأكل والشرب والنكاح والطلاق والوراثة والمعاملة

(١) راجع سورة البقرة الآية: ١٧٣ وسورة المائدة الآية ٣ وسورة الانعام الآية ١٤٥ وسورة النحل الآية ١١٥ .

والسياسة والقضاء والتعزير وما إلى ذلك ، ولكن صاحبنا يفند هـــذا التشريع القرآني ويعتبره مانعاً « لرقي الاسلام » ، ويعيب عليه أنه يجعل الانسان جسماً بلا حياة أو طفلا بلا شعور ، ويقترح بأن الدين يجب أن يكون منحصراً فيما حصره فيه النصرانيون ـ بل البولوسيون في الحقيقة ـ إن القرآن قد وضع بنفسه قوانين الشرع وعبر عنها بحدود الله وأمر باتباعها ولكن صاحبنا يعبر عن حدود الله تلك بالقيود والاغلال ويعتقد كسينت بال أنه من اللازم لرقي الدين واتساعه أن تحطم تلك القيود ، ثم إن القرآن يجعل الايمان الشرط الاولي اللازم لنجاة المرء ويقول عن الذين لا يؤمنون بالله بتصريح (: إنكم وما تَعْبُدونَ من دونِ الله حَصَبُ جهنّم) [1] سواء أكانوا يحصُوْنَ أم لا يحصون ، وكانوا في رغد العيش أو في بؤس وشقاء . ولكن هذا الفاضل إذا رأى خلقاً لا يحصى من الكفار والوثنيين يحيون حياة الرغد والهناء ، فانه لا يشهد قلبه بأن أولئك سيكونون حصب جهنم أجمعين بعد مدة من الزمان ، ولا يفهم أنه أي ذنب قد جنوه سوى أنهم قد عمروا أرض الله. إن السؤال أيها الافاضل أنه كيف يكون لكم أن تبقوا مسلمين وأنتم تخالفون القرآن هذه المخالفة الصريحة في آرائكم ، وأنى يكون لكم أن تكونوا مسلمين ثم تخالفوا القرآن هذا الخلاف الواضح . إن كنتم مسلمين فلا يجوز لكم ان تخالفوا القرآن . وإن أردتم مخالفة القرآن فليس لكم إلا أن تخالفوه من موقف خارج دائرة الاسلام .

إن من لم تطمئن نفسه إلى المبادىء والأحكام ، والقوانين التي يقوم

---

(١) الانبياء آية ٩٨ .

عليها دين من الاديان، ولم يشهد قلبه بصدقها وقصر عقله عن إدراك علتها ومصلحتها ، وكان يظن أن بعضها أو أكثرها موضع النقد والاعتراض ، فامامه طريقان اثنان يختار بينها : إما أن يترك ذلك الدين ، ليكون له الحق في أن ينقد كل ما يشاء من ضوابطه وأحكامه بحرية ، واما يجتنب المظاهرة عليه ، إذا هو أحب البقاء في دائرته على رغم عدم طمأنينته اليه . وبدل أن يلبس لبوس المجتهد وينحى على ضوابطه وقوانينه بمعول الهدم والتخريب يجب أن يقف منه موقف الطالب للعلم ويجتهد لحل ما يخالجه من الشكوك والشبهات في بابه . أما العقل والمنطق فلا يستسيغ إلا هذين المذهبين من مذاهب سلوك المرء وكل رجل عاقل إذا رأى نفسه في مثل هذه الحال لا بد أن يختار أحد هذين المذهبين لا غير .

ولكن صاحب هذا المقال وكثيراً من المثقفين بالثقافة الغربية مثله ليسوا من الشجاعة الخلقية بحيث يختارون لأنفسهم المذهب الأول. وأما المذهب الآخر فهم يخجلون من اتخاذه . ولهذا كله قد اختاروا لأنفسهم مذهباً وسطا بين الاثنين لا يقبله العقل السليم وهو أنهم يندمجون ـ بجانب ـ في جماعة المسلمين ويتمنون تقدم الاسلام ويضطربون ألما لسوء حالة الاسلام والمسلمين ثم هم ـ بجانب آخر ـ يقولون ويفعلون في مخالفة الاسلام كل ما قد يقوله ويفعله غير المسلم . إنهم لا يحجمون حتى عن القدح في القرآن فضلاً عن تنقصهم للحديث أو الفقه ، ويضربون بمعولهم جميع الاسس التي يقوم عليها بنيان الاسلام . إنهم يدعون أنهم أصحاب المذهب العقلي (Rationalists) ويقولون أنهم لم يكونوا ليقبلوا أمراً ينافي العقل ويخالف المنطق،وأكبر اعتراضهم على رجال الدين أن القوم لا يستعملون

عقولهم ، ولكن من شأنهم أنفسهم أنهم يقولون في أمر الدين أقوالاً ظاهرة التناقض ويختارون لعملهم وسلوكهم مذاهب متعارضة متضادة حتى يأتي قولهم اللاحق في حديثهم ناقضاً لقولهم السابق . ولا يدري المرء أي نوع هذا من المذاهب العقلية،يرجع إلى هؤلاء المحققين المستنيرين فضل إيجاده .

وتعالَ الآن ننظر إلى سعة معلومات صاحبنا الفاضل وعمق تفكيره .

إن صاحبنا يستلزم لرقي الاسلام أن ترفع قيود الشريعة عن هـذا الدين أيضاً كما رفعت عن النصرانية ، فيبقى الاسلام في صورة عقيـدة فحسب. وذلك أن الذي قد انتبه له هذا الفاضل من سر رقي الدين المسيحي هو أنه لا توجد فيه قيود الحلال والحرام ولا هناك ضوابط أخلاقية ، ولم يسلب الانسان فيه حقوقه الانسانية ولا ترك جسماً بلا حياة أو طفلاً بلا شعور ، بل قد سمح له فيه بأن يفعل مايشاء بعد أن يؤمن بالمسيح . ولكن صاحبنا لم يدرك أن الذي يقال له الاسلام هو الذي تضمه دفتا القرآن . وقد جعل القرآن الاسلام مجموعة الايمان والعمل الصالح . ثم قد وضع القيود للعمل الصالح وسن القوانين وقرر نظاماً عملياً كاملاً للحياة الفردية والجماعية ، لا يمكن أن يقوم الاسلام بدونه كدين وحضارة . وليس بيد مسلم أن ينسخ ذلك النظام ويمحو حـدوده ، لأن نسخ ذلك نسخ للقرآن ، ونسخ القرآن هو نسخ الاسلام . وإذا أريد نسخ الاسلام فأي معنى هناك للعناية برقيه وتقدمه ؟ إن المرء لا شك حر في أن يبتدع ديناً جديداً ويعمل على نشره وترويجه . ولكن كيف يكون له أن يدعو الأمر الذي هو مخالف للقرآن باسم الاسلام ويجعل رقيه رقي الاسلام!.

إن صاحبنا يطلق اسم الاسلام على مجرد العقيدة القائلة بأننا مسؤولون عن أعمالنا في الحياة الأخرى أو في هذه الحياة . ولعله قد فعل هذا رجاء أنه إن حصر الاسلام في هذه الحدود الضيقة أصبح سهلاً ويسيراً وأمكنه الانتشار في الأرض . ولكنه لو تأمل مضامين هذه العقيدة لعلم أن الاسلام بعد أن ينحصر في هذه الحدود لا يمكن أن يتفق مع هواه . وذلك أنه لكي تقام هذه العقيدة المجردة مقام الدين بكامله يجب أولاً أن يؤمن المرء بالحياة الأخرى. ويأتي بعد ذلك مفهوم المسؤولية فيتقاضى أموراً ثلاثة: أولها أن يعين الوجود الذي سيكون الانسان مسؤولاً أمامه، ويذعن بكونه فوق الانسان . والثاني أن تحدد نوعية المسؤولية ويفرق بين أعمال الحياة من حيث أن كذا وكذا من الأعمال ستفضي إلى النجاح في تلك المسؤولية وكذا وكذا ستفضي إلى الخيبة فيها . والثالث الأخير أنه يجب أن تعين النتائج المختلفة للخيبة والنجاح في تلك المسؤولية، لأنه إن كانت نتيجة الخيبة فيها كمثل نتيجة الفوز والنجاح أو لم تكن لأيهما نتيجة أبداً فلا يبقى هناك معنى لنظام المسؤولية . هذه لوازم منطقية لتلك العقيدة التي يجعلها صاحبنا أصل الدين . ولئن أقيم الاسلام على هذه العقيدة حسبما يقترحه فلا شك أنه ستعترض صاحبنا تلك المشكلة التي أراد أن يهرب منها . إذ سيكون من اللازم إذن أن يؤمن المرء بالله، بماري صاحبنا الامة اليابانية تصعد بدونه في سلم الرقي . وستكون هناك أغلال الشرع وقيود الأخلاق التي يريد صاحبنا أن تحطم، والتي يكمن فيها السر الحقيقي لعدم ارتقاء الاسلام . وستكون تلك السلسلة البغيضة من العذاب

والثواب . وإذا ما رأى صاحبنا مرة أخرى خلقاً لا يحصى من الناس ينعم برغد العيش والهناء بدون الايمان بهذه العقيدة فان قلبه سيأبي أن يشهد بأن أولئك كلهم سيكونون حصب جهنم بعد مدة من الزمان .

لأجل ذلك نرجو من صاحبنا الآن أن يتفضل ويطلق اسم الاسلام على شيء لا يكون فيه قيد ولا منع ولا تكون نتيجة الايمان به وعدم الايمان مختلفة . والذي تكفي فيه عمارة أرض الله للفوز في الدنيا والآخرة، والذي إذا رأى صاحبنا خلقاً لا يحصى من الناس ينعم برغد العيش والهناء بدون الايمان به فيستطيع قلبه أن يشهد بأن أولئك كلهم سيكونون بلابل الجنة في اليوم الآخر .

إن كون لحم الخنزير حراماً قطعياً بموجب القرآن ليس من مسلمات الأمور عند صاحبنا . فهو يزعم أن لحم الخنزير حرم على العرب لأمر مخصوص . ولكنه لو فتح المصحف ، قبل أن يبوح برأيه هذا لقرأ فيه : (قُلْ لا أَجِدُ فيما أُوحِيَ إليَّ مُحرَّماً على طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلا أن يكونَ مَيْتةً أو دَماً مسفوحاً أو لحمَ خِنزيرٍ فانه رِجْسٌ أو فِسْقاً أُهِلَّ لغيرِ اللهِ به. فمن اضطُرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فان الله غفور رحيم.)[1] ففي هذه الآية قد حرم لحم الخنزير على كل طاعم وبين من علة هذا التحريم أنه « رجس». أفيراد من كلمة الطاعم هذا الطاعم العربي وحده ؟ وهل يكون الشيء الواحد رجساً للعرب وطيباً لغير العرب ؟ وهل يحب صاحبنا أن يرخص الأمر لآكلي الميتة أيضاً بعض الترخيص . ولئن أراد الفاضل أن يسامح

(١) النحل : ١١٥ .

بعض الأمم في أكل لحم الخنزير فليفعله من عند نفسه ، ولكن من جهل له أن يقول بخلاف النصوص القرآنية أن تحريمه القطعي أمر غير ثابت في القرآن .

من طرائق الاجتهاد التي قد ابتكرها المجتهدون الجدد في هذا العصر أنهم يقولون في كل حكم إسلامي يريدون الخروج عليه أنه نزل خاصة للعرب ، وإن لم تكن في القرآن ولو إشارة خفيفة إلى هذا التخصيص ، ولم يكن عندهم من حجة عقلية أو نقلية على ذلك . وإن استمرت الحال على هذا النحو فلعل القوم يعودون يوما فيجعلون القرآن كله نزل خاصة للعرب .

أما استدلال صاحب السياحة من الآية: (فمن اضطرَّ غير باغٍ ولا عاد) فهو يبلغ من الطرافة أن لا يتمالك المرء من الاعجاب به والتصفيق له . فلعله فهم من هذه الآية أنه إذا قرمت أنفسكم إلى لحم الخنزير فكلوه ولكن بشرط أن لا تبغوا أكله على الدوام وأن لا تتخذوا أكله عادة فيكم ، إذ أنه لا يستخرج من هذه الآية مجال الرخصة والمسامحة لأهل أوربا والصين في أمر لحم الخنزير إلا من لم يكن يعلم معنى الاضطرار ولا كان يفهم المراد من كلمتي الباغي والعادي في هذا المقام. ومن المحال جداً للذي علم أن يتجاسر على مثل هذا الاستنباط . إنه ليس من مفهوم الآية أنه يدخل في حكم (من اضطر) كل من استمرؤوا أكل الميتة والدم المسفوح أو استطابوا لحم الخنزير وتهالكوا عليه ، أو كانوا يأكلون (ما اُهِلَّ به لغير الله) عادة . ولو كان الأمر كذلك لبطل حكم التحريم . فان تحريم تلك الأشياء

لو أنه مقصود للذين يعتادون أكلها ليقوا يأكلونها حسب عادتهم متمتعين بهذا الاستثناء الوارد في الآية . ولو أنه مقصود للذين كانوا يجتنبون هذه الأشياء بأنفسهم من قبل ، لما كانت لهذا الحكم ضرورة أصلاً أما ما ورد في الآية من الاستثناء المشروط بـ (غيرَ باغٍ ولا عادٍ) مع الاضطرار ، فالمقصود به في الحقيقة هو أنه من كان يوشك أن يموت جوعاً ولم يجد ما يأكله غير حرام ، فيجوز له أن يأكل من ذاك الحرام لمجرد حفظ وجوده ، بشرط أن لا يتجاوز حد الرخصة أي لا يتناول منه أكثر مما هو لازم لسد الرمق . ولا تكون في نفسه نزعة إلى البغي على حدود الله . وقد ذكر هذا في موضع آخر عند بيان تحريم الخنزير والميتة بالكلمات الآتية: (فمن اضطُرَّ في مخمصةٍ غيرَ متجانفٍ لإثم) أي إذا اضطر أحد إلى تناول شيء من هذه المحرمات في حال اشتداد الجوع بدون أن يكون في نفسه ميل إلى الإثم ، فيجوز له أن يأخذ منها قدر الضرورة . فأين هذا من اقتراح صاحبنا أنه لما كان أهل أوربا والصين مغرمين بلحم الخنزير ، فيجب أن يباح لهم ذلك انتفاعاً باستثناء (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) ، وكل ذلك لكي يسهل لهم الدخول في الاسلام . وإن نحن سرنا هكذا في عمل الترخيص والتسهيل في أحكام الاسلام مراعاة لرغائب كل أمة وشهواتها ، اضطررنا إلى إباحة كل من الخمر والقمار والزنا والربا وما إلى ذلك واحداً بعد الآخر . إن السؤال أن الذين لا يريدون أن يتبعوا أحكام الله ويلتزموا حدوده ويحرموا حرامه فأي حاجة إلى إدخالهم

في الاسلام ؟ ومتى كان الاسلام مفتقراً إليهم حتى يساومهم على ذلك بالنقص والخفض من أحكامه .

إن صاحبنا لم يتفطن بادىء ذي بدء إلى تحريم الخنزير . فلما أعمل فكره في ذلك بعدُ تبين له أن هناك بوناً شاسعاً بين معدة المرء وحوافز الاخلاق . فاستنتج من ذلك أنه لا حق للدين بأن يفرق بين المأكولات والمشروبات من حيث الحلة والحرمة . وافتضح من رأيه هذا أن مبلغ معرفته بعلم الحيوان ليس بأحسن من معرفته بالقرآن . أما الجهل بالقرآن فليس بشيء يخجل له « رجل مثقف متنور » ولكن كل هذا الجهل بالعلوم التجريبية العصرية (Science) من الخزي والعار حقاً . إن صاحبنا لم يعرف بعد: ما العلاقة بين النفس الانسانية وتركيبه الجسدي ، وما العلاقة بين تركيبه الجسدي والغذاء الذي يأكله، ولم يدرك أن الشيء الذي يعيد إلى الجسم الانساني كل ما ضاع من أجزائه التركيبية ويكون فيه جميع الأعصاب والعروق، ويبدل جسمه القديم جسماً جديداً بكامله، ليس عجيباً أن يكون لخواصه تأثير في النفس والروح بل العجيب أن لا يكون لها أي تأثير . وقد كانت دنيا العلم غافلة عن هذه الحقيقة غالباً فيما سبق ولكن التحقيق الذي تم أخيراً في فن التغذية (Dietetics) قد انكشف منه أن غذاء الانسان يترتب أثره حتماً ولازماً على أخلاقه ومداركه الذهنية . فلا يزال العلماء المعاصرون يبحثون في أنه ما هي الآثار التي تترتب على نفوسنا ومداركنا الفكرية لمختلف ألوان غذائنا . ويبدو أن معلومات صاحبنا الحائز لدرجة البكالوريوس ليست متمشية مع العصر (up - to - date) وإلا لم يدع بكل هذه الجرأة أن هناك من حيث المبدأ والأصل بوناً بعيداً بين المعدة وحوافز الأخلاق .

خداع المذهب العقلي أيضاً

ان المذهب العقلي ايضاً (Rationalism) والمذهب المادي الطبيعي (Naturalism) هما الامران اللذان لاتزال الحضارة الغربية تقوم بدعايتها وإعلانها بكل قوة وحماس منذ القرنين الماضيين . ان قوة هذا الاعلان وشدته أمر لايشك فيه أحد . وانى يمكن للمرء ان يجنب قلبه وذهنه التأثر بشيء يعرض أمام عينيه مرة بعد أخرى ويكرر على سمعه بصفة مستمرة . وإذن قدخضعت الدنيا لتأثير هذا الاعلان فاعترفت بان العلوم الغربية والمدنية الغربية تقومان على اساس المذهب العقلي والمذهب المادي الطبيعي فحسب . والحال ان دراسة نقدية لحضارة الغرب توضح جليا انه ليست اساسها النزعة العقلية ولا مراعاة نواميس الطبيعية ، بل يقوم هيكلها كله على الحس والرغبة والاحتياج . وان النهضة العلمية الجديدة لم تعدُ في الحقيقة ان تكون ثورة على العقل والطبيعة فانها قد هجرت المعقولات الى ما يدخل تحت المادة والحس وجاءت تعتمد على الحس بدل العقل،وألغت التوجيه العقلي والاستنباط المنطقي والوجدان الطبيعي وقررت — بدل ذلك — النتائج المادية المحسوسة هي المقياس الحقيقي الصحيح لتقييم الاشياء ، والغت إلهام الطبيعة وإرشادها لتتخذ الرغبة والحاجة هي الهادية في شؤون الحياة وجعلت كل شيء لايمكن انيوزن او يذرع وهما لاحقيقة له ، وكل مالا يترتب عليه نفع مادي محسوس أمراً هينا لا يحفل به وكانت هذه الحقيقة خافية على أهل الغرب أنفسهم في مبتدأ الامر ، فما زالوا يزعمون على رغم مخالفتهم للعقل والطبيعة في

سلوكهم العملي ، ان « الاستنارة الفكرية » التي قد افتتح القوم عهدها الجديد ترجع في أصلها وأساسها الى المذهب العقلي والمذهب المادي الطبيعي. وبرح الخفاء بعد ذلك وافتضحت الحقيقة الواقعة ولكنه لم يجترىء أحد على الاعتراف بها ، وبقي القوم يخفون – بكل نفاق – كل ما هم عليه من تقديس المادة واتباع الاهواء والتعبد لمطالب النفس والجسد تحت ستار الاستدلال العقلي وادعاء المذهب الطبيعي . ولكن قد تسللت الهرة الآن من الحقيبة – كما يقول المثل الانكليزي – وبلغ من مخالفة القوم للمعقول ومعارضتهم للنواميس الطبيعية ان لايمكن ان يغطيها ستار ، فجاؤوا لذلك يعلنون بثورتهم على العقل والطبيعة كل الاعلان . وقد وقعت هذه الثورة في كل ناحية من نواحي الحياة ، من بيئة العلم والفلسفة الى مادونها من أوساط الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، ويعترف جميع القادة والزعماء لهذا العالم الجديد – اللهم الا نفر من المنافقين « النازعين الى القديم » منهم – بأن الغلبة والسيطرة على حضارتهم هي للرغبة والحاجة فحسب .

وأما المستغربون المتفرنجون من أهل الشرق فيتخلفون عن أئمتهم بعدُ بخطوات . وانه لما تقتضيه التربية والتعليم والبيئة الفكرية والعوامل الحضارية والمدنية التي تمت تحت ظلالها نشأتهم العقلية ان ينشأ في هؤلاء أيضاً ذلك التقديس لكل ما هو مادي محسوس وتلك العبودية للرغبات والحاجات . وقد نشأ فيهم كل ذلك بالفعل . ولكن القوم لم يبلغوا من ذلك بعد حيث تتسلل الهرة من الحقيبة . انهم لا شك يظلون يقولون في خطبهم وكتاباتهم انهم لايخضعون الا لهداية العقل والطبيعة فيجب ان

لا يعرض عليهم الا الاستدلال العقلي المحض ، وانهم لن يذعنوا بشيء لا يثبت بالادلة العقلية والشواهد الطبيعية . ولكنه تختفي في داخل هـذا الوعاء الظاهر من الدعوى والاعلان تلك الهرة التي لا علاقة لها بالعقل او بالطبيعة . فان انت حللت مقالاتهم تبين لك ان عقولهم تعجز عن ادراك المعقولات ومشاهدات الوجدان الطبيعي ، وأن الذي يدعوه هؤلاء « الفائدة العقلية » ان استقصيت حقيقته علمت ان المراد بـه هو « الفائدة التجريبية » . و « الفائـدة التجريبية » هي ما يكون له جرم ووزن ، وما يمكن ان يعد او يقاس . فكل مالا يمكن أن تبين لهم منفعته بصورة الاعداد الاحصائية او بالوزن في كفة الميزان او بالقياس بالذراع ، لم يكن هؤلاء ليعتبروه نافعاً ومفيداً . وما دام الامر لاتثبت لهم منفعته على هذا الوجه المخصوص فان اتباعه عند القوم أمر يعبرون عنه بـ « الطريقة اللامنطقية » . وأما إلهام الطبيعة الذي هم يدعون اتباعه فتفتضح حقيقته أيضاً بقليل من النقد والتحليل . وذلك انه ليس المراد بالطبيعة عندهم هو الطبع الانساني ، بل المراد هو الطبـع الحيواني الذي يخلو من الوجدان وشهادة القلب المدرك ولا يشتمل الا على الحس والرغبة ومطالب النفس والجسد . فالمعتبر المعتد به عندهم هو مجرد الاشياء الـتي يمكن ان تؤثر في الحواس وترضي الرغبات وتفي بمطالب النفس أو الجسد والتي تقع منفعتها تحت مشاهدتهم على الفور ، وتغيب مضرتها عن الانظار أو تبدو في رأيهم أقل وأهون من جانب المنفعة . وأما الاشياء الـتي هي من مقتضيات الطبع الانساني والتي يحس بأهميتها المرء في وجدانه ، والتي ليست منافعها أو مضارها حسية مادية بل هي روحانية معنوية ، فهي كلها اوهام وخرافات وأمور هينة لايكترث لها ، ومن الرجعية والتوم

والاظلام الفكري ان يهتم بها المرء في شيء بل يقر حـق بوجودها . فبجانب كل هــذا الانحراف عن العقل والطبع ، وبجانب آخر ذاك الادعاء لمراعاة مقتضيات العقل والطبيعة . ويبلغ من افلاس العقل نفسه انه لا يحس أبداً بهذا الجمع بين النقيضين الصريحين !

إن أقل ماينبغي ان ينال المرء من فائدة التعليم والتهذيب الفكري أن لا يبقى في أفكاره تشابك ، ولا في آرائه اضطراب وتنافر ، بل يتسنى له ان يختار أسلوبا واضحاً قويما للفكر والرأي ، يرتب المقدمات على الوجه السديد فيستخلص منها النتائج الصحيحة ، ويسلم من الوقوع في الاخطاء الواضحة كالجمع بين النقيضين وخلط مواضيع البحث، ولكننا نجد عامة أصحابنا المثقفين — اللهم لا من رحم ربك — محرومين من هذه الثمرة الباكورة للتربية العقلية فهم لا يكونون من الحصانـــة والرشد بحيث يحددون موقفهم الصحيح قبل ان يبدأوا البحث في مسألة فلسفية ، ويفهمون بعد ذلك مقتضيات هذا الموقف ويراعونها فيما يختارون من خطة للمناقشة والاستدلال حتى تأتي متضامنة مع موقفهم ذلك . وانت إن تتكلم معهم أو تقرأ ما يكتبون تشعر لاول وهلة ان افكارهم فيها كثير من المماطلة والتعقيد ، وان الرجل منهم يبتديء البحث في مسألة ما من موقف بعينه ، فإذا خطا في البحث خطوات حول موقفه الاول الى موقف ثان مختلف ، وبعد خطوات مزيدة في البحث اتخذ موقفاً ثالثاً جديداً . إنهم لم يتعلموا حتى الآن كيف تنتخب المقدمات بروية وتدبر لاثبات الدعوى ، وكيف ترتب على الاسـلوب المنطقي . فالقاريء

لكتاباتهم أو السامع لكلامهم لا يدري من أول حديثهم إلى آخره ماذا أراد الباحث الفاضل في الحقيقة وما هي المسألة التي كان يقصد بحثها وما الذي أثبته وبرهنه .والسبب لهذا كله أن اتجاه الحضارة الجديدة ومايتبعه من اتجاه التعليم العصري هو في الأغلب إلى الشؤون المادية والحسية . إن هذا التعليم لا شك يثير الرغبات في النفوس ويقوي إحساسها بالمطالب والضرورات ويؤكد أهمية المحسوسات في القلوب ، ولكنه لا يربي العقل والذهن ولا يشحذ مقدرة النقد والتمييز . ويغفل كل الاغفال عن تهذيب النفس وتنوير الأفكار . وهو فوق كل ذلك يخل بالتوازن العقلي في المرء بما يبعث فيه من الميل المتطرف إلى الماديات .فالذين يخرجون من الجامعات متحلين بهذا التعليم فلا ريب يغلبهم الزعم بكونهم عقليين ومفكرين ، وهذا الزعم هو الذي يجعلهم ينقدون كل شيء نقداً عقلياً ويجحدون بكل ما لا يسوغ منها في عقلهم ، ولكن ذهنهم يكون في الحقيقة منحرفاً عن مقتضى العقل ولا تكون فيهم الأهلية المطلوبة لتصفية مسألة ما على الطريق العقلي الصحيح، أو تكوين رأي سديد في أمر من الأمور.

وتظهر هذه « النزعة العقلية » غير المنطقية أكثر ماتظهر في المسائل التي تتعلق بالدين ، لأنها هي المسائل التي تصطدم مبادئها الروحية والخلقية والاجتماعية والعمرانية بنظريات الغرب في كل نقطة وفي كل مكان !

تكلم مع رجل مثقف بالثقافة الانكليزية في مسألة دينية ، واجعله — على سبيل الامتحان لذهنيته — يعترف قبل كل شيء بأنه مسلم . ثم

اعرض عليه حكماً شرعياً مدعماً بسند ، تجده يهز كتفيه ويقول كمنطقي مؤمن بالعقل : هذا من خرافات رجال الدين . ائتوني بحجة عقليـة على الأمر . وإن لم يكن عندكم تلك الحجة وكان كل ما بيدكم مقصوراً على المنقول . فاعفوني من الاتفاق معكم في الأمر . وهذه الجملة أو الجملتـان من كلام الرجل تفضح السر أن الرجل لم يتشمم رائحة المذهب العقلي، ولم يعرف المسكين حتى بعد التعليم والتربية العلمية المستمرة على السنوات الطوال أنه ما هي المقتضيات العقلية لطلب الحجة وماذا تكون المنزلة الصحيحة لطالب الحجة والبرهان . إن المرء يمكن أن يقف تجاه الاسلام موقفين اثنين لا غير : أحدهما أن يكون مسلماً والآخر أن يكون كافراً . وإن يكن مسلماً فمعنى إسلامه أنه قد آمن بأن الله هو الإله المعبود وأن محمداً ﷺ رسول من عنده ، وقد أقر بأن كل ما بلغه الرسول عن ربه سيتبعه بدون سؤال أو نقاش . فلم يبق له إذن أن يطلب الحجة العقلية في كل واحد من الأحكام الشرعية على حدة وليس له من حيث هو مسـلم إلا أن يحقق في حكم بعينه هل أمر به الرسول أم لم يأمر . ومـتى أثبت بالحجة النقلية أنه قد أمر به الرسول فليس له إلا أن يخضع له ويتبعه . إنه يجوز له أن يطلب برهاناً عقلياً للحكم لطمأنينة قلبه وزيادة بصيرته فيه، ولكن بعد أن يطأطيء رأسه لاتباع ذلك الحكم أما اشتراط الحجة العقلية للاطاعة، ورفض الاطاعة إذا لم تتهيأ تلك الحجة أو لم تطمئن إليها النفس فمعناه أنه يجحد بحاكمية الرسول وسلطته ، وهـــذا الجحود يستلزم الكفر ، والحال أنه اعترف بكونه مسلماً عند ابتداء البحث . فالآن إذا

اختار لنفسه موقف الكافر فموضعه الصحيح ليس داخل دائرة الاسلام بل خارجها . ويجب أن يكون — قبل كل شيء — من الشجاعة الأخلاقية بحيث يخرج من دائرة الدين الذي لا يؤمن به في حقيقة الأمر . فاذا فعل اعتبر حقيقاً بأن يطلب الحجة العقلية وبأن يجاب إلى طلبه .

هذه القاعدة من مقتضيات العقل السليم ولا يقوم بدونها تنظيم أو ضابطة في هذه الدنيا . ولا يمكن أن تقوم حكومة في الأرض — ولو لساعة — يطالب كل فرد من أفراد رعاياها بالحجة العقلية على حكمها ويرفض اتباعه بدون تلك الحجة . وكذلك لا يمكن أن يكون جيش ما جيشاً بمعنى الكلمة إذا سأل كل جندي منه عن السبب وراء أمر القائد، وجعل اطمئنان قلبه نفسه شرطاً في اتباع كل مايؤمر به . ولا يمكن أن تقام مدرسة أو كلية أو نقابة وبالجملة أي نظام اجتماعي على مبدأ يحاول اقناع كل فرد من الأفراد على حدة ، ولا يطاع أمر من أموره مالم يطمئن إليه كل واحد من أفراد ذلك النظام . وإنما الحق أن كل نظام يدخل فيه المرء يدخل بهذه المفروضة الأساسية البدائية أنه يعتقد بالسلطة العليا لذلك النظام اعتقاداً كلياً ويذعن لحاكميتها . لذلك ما دام المرء جزءاً لهذا النظام فإنما واجبه أن يطيع تلك السلطة العليا سواء اطمأنت نفسه إلى أمر جزئي من أوامرها أم لم تطمئن . إن عصيان المرء لأمر من أوامر السلطة على سبيل الاجرام شيء مختلف ، ويمكن أن يبقى المرء داخلاً في نظام مع عصيانه لبعض جزئياته . ولكنه إن جاء يتطلب اطمئنانه الذاتي ويشترطه لاطاعته في جزئية بعينها من تلك الجزئيات مها

صغرت ، فانه قد أبى – في الحق – الاقرار بحكم السلطة العليا . وهذا إن ارتكبه رجل في نظام حكومة حاكمته السلطة باتهام الغدر ، وان ارتكبه في جندية سيق إلى محكمة القضاء العرفي ، وإن فعل ذلك في مدرسة أو كلية اتخذ الاجراء لطرده منها ، وإن اقترفه في دين حكم عليه بالكفر . وذلك بأن مثل هذه المطالبة بالحجة العقلية لا يسمح بها لأي فرد في داخل أي نظام من النظم. وليس المقام الصحيح لمثل هذا الطالب للحجة داخل ذاك النظام بل خارجه . فعليه أن يخرج من دائرته أولاً ثم يعترض عليه كما يشاء .

هذه القاعدة هي الأصل والأساس في تنظيم الاسلام . فان الاسلام لا يصدر الأحكام قبل كل شيء ، بل هو يدعو الانسان إلى الايمان بالله والرسول ، ويركز على هذا كل ما هناك من الأدلة والحجج . فهو يعنى بأن يقنع الانسان بكل حجة عقلية وكل شهادة من شهادات الفطرة الانسانية بان الله الواحد هو إلهه ، وأن محمداً ﷺ رسول من عنده . فكل ما شئت من البحث والتدقيق العقلي فلك أن تعالجه في هذه المسألة الجوهرية ، ولئن لم تطمئن نفسك إلى الاسلام بأية حجة أو دليل ، فلن يكرهك أحد على الدخول فيه ولا يجري عليك حكم من أحكام الاسلام. ولكنك متى اخترت لنفسك هذا الدين بعد ذلك البحث والامتحان، كنت في منزلة « المسلم » . ومعنى « المسلم » هو المطيع الخاضع . ولم يكن من اللازم إذن أن تعرض عليك الحجة والبرهان لكل أمر من أوامر الاسلام وتكون إطاعتك لتلك الأوامر موقوفة على طمأنينتك القلبية . وإنما

كان واجبك الأول بعد أن أصبحت مسلماً أن تطأطىء رأسك لاتباع كل مايبلغك من أوامر الله ورسوله .(إنما كانَ قولَ المؤمنينَ إذا دُعوا الى الله ورسولهِ ليَحكُمَ بينهم أن يقولوا سمِعْنا وأطَعنا)(١). ان الايمان وطلب الحجة العقلية كشرط في الإطاعة والإذعان أمران متناقضان لا يسوّغ العقل السليم اجتماعهما أبداً . فالذي هو مؤمن لا يمكن ان يكون طالباً للحجة بحكم منزلته هذه ، واما الذي هو طالب للحجة العقلية على هـذا النحو ، فلا يمكن ان يكون مؤمناً(وما كانَ لِمؤمنٍ ولا مُؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُهُ أمراً أن يكونَ لهمُ الخِيَرَةُ من أمرهم)(٢).

إن العمل الجبار الذي قد قام به الاسلام في محيط الاصلاح والتنظيم يرجع الفضل فيه كله إلى هذه القاعدة المتينة . فالذي نهى عنه الدين بعد تثبيت الإيمان في القلوب ، انتهى عنه جميع المؤمنين . والذي أمرهم به جرى العمل عليه بإشارة واحدة في ملايين من بني آدم ولو أنه وجب تقديم الحجج العقلية لكل أمر من أمور الدين وتوقفت إطاعة الأوامر على تبيين المنافع والمصالح لكل أمر ونهي ، لما أمكن أن يتحقق إلى يوم القيامة ذاك الاصلاح لأخلاق الإنسان وذلك التنظيم لأعماله الذي تم على يد النبي ﷺ في مدة قليلة لا تربو على ٢٣ عاماً .

على أنه ليس المراد بذلك أن أحكام الاسلام مخالفة للعقل او أن حكماً مهما صغر من أحكامه الجزئية يخلو من حكمة أو مصلحة ، وكذلك لا يعني

---

(١) النور : ٥١ .
(٢) الأحزاب : ٣٦ .

ذلك ان الاسلام يطلب من متبعيه تقليداً أعمى ويمنعهم من البحث عن الاسس العقلية والفطرية لأحكامه ومن تفهم مصالحها وحكمها . بل الحقيقة هي على عكس ذلك . والتدبر والتفكير لازم لاتباع الاسلام على الوجه الصحيح المرضي . لأن الانسان كلما أدرك حكمة الأحكام ومصالحها أكثر كان اتباعه لها أصح وأكمل . ومثل هذا التفهم والتبصر لا يصد عن الاسلام بل هو يشجع عليه . ولكنه شتان ما بين التحقيق العقلي الذي يتبع الاطاعة والامتحان العقلي الذي يتقدم الاطاعة ويكون شرطاً مشترطاً فيه . فالمسلم يطيع قبل كل شيء إطاعة غير مشترطة ثم يجتهد لإدراك مصالح الأحكام . وليس من الضروري ان يحيط فهمه بمصلحة كل حكم . وإنما قد حصل له في الحقيقة اطمئنان تام إلى ألوهية الله ورسالة الرسول . وهو يريد مزيداً من الطمأنينة في الجزئيات متوخياً للبصيرة الكاملة . وإن حصلت له هذه الطمأنينة شكر الله ، وإن لم تحصل له ، ظل يطيع الأحكام في بابها بلا حرج في النفس بفضل ذلك الاطمئنان الحاصل له بالله والرسول . فأين هذا الطلب للحجة العقلية من ذاك الطلب الذي يقدمه المرء عند كل خطوة ، ويقدمه مع الايذان بانه إن اقتنع بتلك الحجة سيقبل على الاطاعة والا سيرجع على أعقابه .

وقد صادفنا أخيراً عبارة قد نشرتها جماعة مسلمة تشتمل على المثقفين بالثقافة الجديدة العليا من المسلمين . وليست معرضة عن الدين ، بل هي - عند نفسها - تقوم بخدمة دينية جليلة . فمن الامور التي تقوم بنشرها وتبليغها باسم « الاصلاح الديني » انها تمنع المسلمين من التضحية أيام عيد

الاضحى من كل سنة وتقترح عليهم أن الاموال التي يهلكونها في ذبح الانعام يجب أن ينفقوها لاعانة الهيئات والمؤسسات الاقتصادية وتربية الايامى والايتام وتهيئة المعاش لذوي البطالة . وقد اعترض على هذا التبليغ رجل من المسلمين لم يبلغنا مقاله كاملا ، فالذي قيل جوابا عليه في هذه المسألة هو ما يأتي :

« انه ما عدا اللجوء إلى النقل والتقليد لم نر أحداً يلقي لنا الضوء على المصالح العقلية والتجريبية من وراء عمل التضحية هذا ..... ولئن أطلعنا فاضل قبل هذا كله على الناحية العقلية مما يعتقد من وجوب التضحية لاستحق منا الشكر والامتنان ! »

هذه العبارة مثال لذهنية الرجال الذين يدعون أنفسهم « متعلمين مثقفين » فبجانب ذاك الادعاء الشديد للمذهب العقلي ، وبجانب آخر هذا الاظهار السافر لمخالفة مقتضى « العقل » فهاتان الجملتان الاثنتان اللتان قد خرجتا من قلم الباحث الفاضل تشهدان بانه لم يحدد موقفه الصحيح قبل الكلام ، فان كان يتكلم من حيث هو مسلم ، فواجبه أن يخضع أمام « المنقول » قبل كل شيء . ويكون له بعد ذلك أن يطلب الحجة العقلية بعد أن يطاطىء رأسه للاطاعة أما إن كان ذلك منه شرطا في إطاعته فليس له حق في أن يتكلم في موقف « المسلم » . فمثل هذا الطالب للحجة العقلية يجب أن يتخذ موقف غير المسلم أولا ثم له أن يعترض على ما يشاء من أحكام الاسلام ومسائله . ولكن لن يكون له عندئذ ان يلبس جلباب الافتاء فيصدر فتواه في أمر من أمور المسلمين الدينية . أما صاحبنا الفاضل فيتخذ كلا من هذين الموقفين المتعارضين في آن واحد ، ولكنه

لا يفي بالمقتضيات العقلية حتى لموقف واحد منها . فبجانب لايقوم الرجل مقام المسلم فحسب بل يتبوأ منصب المفتي الديني ، وشأنه بجانب آخر أنه يستخف « بالمنقول » . واذا أثبت له كون الحكم « حكما دينيا » بواسطة النقل فانه يأبى أن يتبعه ويشترط لذلك ان يلقى الضوء على مصالح هذا الحكم العقلية والتجريبية قبل كل شيء . ومعناه أن الرجل لن يقبل حكما ما لمجرد كونه حكم الله والرسول ، بل سيقبله نظراً إلى فوائده العقلية والتجريبية . ولئن لم تتبين له تلك الفوائد أو لم يرها الرجل « فوائد » بما عنده هو من المقياس ، فانه لابد أن يرفضه وينادي بمخالفته ويجعله حكما « نكداً » لامعنى له غير ملائم لروح العصر ، بل شيئاً مضراً وتقليداً إسرافيا ، ويبذل جهده كله لصد المسلمين عن اتباعه. ويا ليت شعري أي عقل هناك يستسيغ الخلط بين هاتين الخطتين المتناقضين والموقفين المتعارضين ؟ ولو فرض أن مطالبة صاحبنا بالحجة العقلية أمر جائز صحيح الا يجب قبل ذلك أن يبرهن أن صاحبنا من ذوي « العقول »؟

إن الفائدة « العقلية » و « التجريبية » ليس المراد بها في الحقيقة شيء معين معلوم ، بل هي شيء نسبي إضافي . وذلك أن عقل رجل من الرجال يعتبر شيئاً ما نافعاً ومفيداً وعقل الرجل الآخر يحكم على نفس الشيء حكما بخلافه ، ويأتي الثالث فيقر بنوع من المنفعة في ذلك الشيء ولكنه لايعيره اهتمامه بل يظن شيئاً آخر أكثر منفعة منه . ومجال الاختلاف أوسع في دائرة الفوائد التجريبية . فان « الفائدة » أمر تختلف فيه نظرية كل امرىء عن الآخر . وبناء على هذه النظرية يرتب المرء تجاربه نفسه أو تجارب الغير فيحكم عليها بانها مفيدة أو غير مفيدة . ثم

هناك رجل يطلب النفع العاجل ويظن المضرة العاجلة شيئاً واجب الحذر فلا بد أن يكون اختياره مختلفا عن اختيار الذي ينظر إلى عواقب الأمور . وثمة كثير من الاشياء فيها نوع من المنفعة ونوع آخر من المضرة ، فيختارها رجل لانه يرضى قبول المضرة لاجل الفائدة المرجوة منها على جانب آخر ، ويجتنبها ثان لانه يرى أن مضرتها أكثر من منفعتها . ثم يوجد هناك كثير من التعارض بين الفوائد العقلية والتجريبية فمن الاشياء ما هو مضر من ناحية التجربة، ولكن العقل يحكم بانه ينبغي أن تحتمل مضرته لاجل ما فيه من فائدة عقلية كبرى . كما أن هناك من الاشياء ما هو مفيد من الناحية التجريبية ولكن العقل يفتي بانه يجب اجتنابه لتفادي مافيه من مضرة عقلية . وما دام كل هذا التعارض بين أحكام التجربة وأحكام العقل ، فليس من الممكن أن يلقى الضوء على الفوائد العقلية والتجريبية لشيء ما على نحو يجعل جميع الناس يتفقون على كونه مفيداً ولا يبقى مجال الانكار لدى أحد . ولا يقف الأمر على التضحية وحدها ، فأي عمل من الاعمال الدينية كالصلاة والصوم والحج والزكاة وسائر الاوامر والنواهي الشرعية هو الذي قد ألقي الضوء على فوائده العقلية والتجريبية بحيث يكون الناس قد عادوا يرونها لامعة كالشمس المشرقة ، ويكونون بأجمعهم قد اعترفوا بها وجروا على التزامها . ولو كان الامر كذلك لما بقي على وجه الارض اليوم تارك للصوم والصلاة ولا منكر لاحكام الحج والزكاة . وهذا هو السبب في أنه لم يقف الاسلام أحكامه على فتوى العقل والتجربة لدى كل فرد ، بل وضع أساسها على الاطاعة والايمان . فالمسلم لا يؤمن بالفوائد العقلية

والتجريبية بل هـــو يؤمن بالله والرسول . وليس مذهبه أن يقبل شيئاً بعد أن تثبت له فائدته من ناحية التجربة والعقل وأن يجتنب شيئاً بعد ما تبرهن له مضرته على محك العقل والتجربة ، بل مذهبه أن كل حكم يثبت من عند الله والرسول هو واجب الاتباع وكل حكم لا يثبت على هذا النحو لا يتبع !

فالسؤال الجوهري في هذا الوضع كله هو أنه هل آمنت بالعقل والتجربة أم بالله والرسول ؟ فان كانت الأولى فلا علاقة لك بالاسلام ، ومن جعل لك ان تتكلم كالمسلم وتشير على المسلمين باجتناب « تقليد » من تقاليد الارض غير ذات الزرع بدعى سنة . وان كانت الاخرى فلا يجب أن تكون موضوع البحث الفوائد العقلية والتجريبية بل ينبغي أن يبحث ويرى : هل التضحية مجرد تقليد قد ابتدعها المسلمون أو هي عبادة قد رضيها الله لعباده وأجراها الرسول في أمته ؟!

تهافت مذهب التجدّد

قد تناول الاستاذ (ن) مجلتنا الشهرية «ترجمان القرآن» بنقد تفصيلي في عدد يونيو من مجلته المعروفة ، فنشكر له هذا الصنيع . ومع أنه ليس من المعمول به عامة أن يناقش النقد الذي يظهر في الجرائد والمجلات ويعقب عليه بمثله ، ولكن الناقد الفاضل لما أنه قد أبدى في نقده هذا أفكاراً وآراء تتصل بالمبادىء والأصول المخصوصة لمذهب التجدد الذي هو يعرف به، ومن أهم مقاصد مجلة «ترجمان القرآن» إصلاحها وتصحيحها، نرى من اللازم أن ننتهز أول فرصة سانحة لابداء الرأي في موضوعها . يكتب الاستاذ (ن) :

« إن الغرض من إصدار هذه المجلة « أي مجلتنا ترجمان القرآن » ظاهر من اسمها، وهو عرض مطالب القرآن وتعاليمه على الناس في صورتها الصحيحة المشرقة. ولا شك أن هذا الغرض مفيد ولا ينكر نفعه أحد. ولكن ـ كما أشار إليه رئيس التحرير الفاضل نفسه ـ ليس يسهل تحقيقه في العصر الحاضر . وذلك أن العصور الماضية التي كان الدين فيها عبارة عن مجرد تقليد السلف واتباع القديم لم يكن يصعب على المرء فيها أن يتولى عمل المصلح والمبلغ، ولكن الآن وقد جاءت العلوم الجديدة والاكتشافات العصرية بأسلوب مبتكر للعمل والتفكير فأسبغت على الأذهان نعمة حرية

الفكر والرأي ، لا يمكن لدين من الأديان أن يحتفظ بوجوده الآن لمجرد أنه يدعو إلى عمل كان يسير عليه السلف ويعرض فكراً كان يفكر في مثله الماضون .

فبينما كان البحث يدور فيما مضى حول وحدانية الله فقد أصبح الآن حتى وجود الذات الإلـٰهية محل نظر . وبينما كانت تثبت هداية النبي فيما مضى بما أتى من المعجزات ، فقد كادت « العلوم المغناطيسية » الآن تخرج آلافاً من الرسل والأنبياء بحجة إتيان تلك المعجزات . وكان الواعظ قبل هذا الزمان يجوز له أن يرفع نظره إلى السماء ويدعو إلـٰه العرش والكرسي ، ولكن اليوم وقد تحقق أن السماء ليست بشيء لم يكن عمله ذلك ليفيد اليقين . وموجز القول أن هذا العصر لم يعد عصر « الذين يؤمنون بالغيب » بل هو عصر « الذين يؤمنون بالتجربة والمشاهدة». وليس من الهيّن في هذا الوضع الحرج أن يقوم رجل لمناصرة الدين وحمايته على حين أن فكرة الدين نفسه قد أضحت غير مقبولة » .

ويكتب بعد ذلك :

« إن القرآن الكريم ينقسم باعتبار معانيه إلى أقسام ثلاثة : فالاول يحتوي على تعليم الأخلاق ، والثاني هو الذي قد عرضت فيه العقائد ، والثالث هو المشتمل على القصص والتمثيل . أما القسم الأول فلا حاجة هناك إلى أن يكتب فيه المرء ويسوق الحجج والبراهين في بابه ، لأن التعليم الاخلاقي يكاد يكون سواء في جميع النحل والأديان ، ولا محيص عن الاعتراف بأن تعليم الدين الاسلامي في باب الأخلاق لا يختلف ولا

يقصر عن تعليم الأديان الأخرى . أما القسمان : الثاني والثالث فيجب ولا شك أن يوليهما الباحث أكثر العناية ، لأنهما هما اللذان قد جاءت العلوم الجديدة والاكتشافات العصرية تبعث الريبة والشك في أمرهما في نفوس الناس . والواقع أنه إن وفق رجل في إزالة كل هذه الشبهات من أذهان الجيل الحديث،فانه سيكون حقيقاً بأن يدعى مجدد هذه المائة».

« لذلك من نصحنا لصاحب المجلة أن يجعل على صفحاتها باباً مستقلاً مختصاً بهذا الموضوع ، يستقصي فيه جميع الآيات القرآنية التي نزلت بخصوص العقائد والقصص ، ويبين معناها ومدلولها على الوجه الصائب المعقول ، ويدفع بذلك تلك الاعتراضات التي يوجهها الآن أهل العلم والتحقيق الجديد » .

ويكتب في ختام نقده :

« وإنا ندعو صاحب المجلة أن يبتدىء - قبل كل شيء - بالكلام على حقيقة الوحي والإلهام لأنه على فهمها يقف فهم حقيقة كلام الله، وبالكلام على مسألة المعاد لأنه على حلها يتوقف اختيار المرء للطريقة الدينية أو اللادينية . ونحن نحب أن نرى أي معنى يعنيه صاحبنا للكلام الإلهي والمعاد . وسنعرض بعد ذلك شبهاتنا واعتراضنا في الموضوع . وإن فازت جهود صاحبنا في إزالتها سررنا بالأمر جداً ، لأن شناعة « الايمان التقليدي الاضطراري » التي قد وقع فيها كثير من الناس من أكبر أسبابها عقيدة المعاد أيضاً » .

هذه مقتبسات من مقال الناقد الفاضل . وإنا نترك المسائل الفرعية

والجزئية التي قدألم بها في نقده ونتناول بالبحث المسائل التي تتصل بالاصول.

إن صاحبنا قد قسم مباحث القرآن الكريم على أقسام ثلاثة . ولكنا نستطيع أن نقسمه على قسمين اثنين بيسر وسهولة . فالقسم الأول يحتوي على الأمور التي هي خارجة من حدود علمنا أو هي فوق إدراكنا والتي لا نستطيع أن نحكم بكونها صحيحاً أو خاطئاً بالجزم ، وإنما يدعونا القرآن إلى أن نؤمن بها على الغيب . والقسم الثاني يتضمن الأمور التي لا تخرج من دائرة علمنا ولذلك يمكننا أن نحكم في أمرها حكماً جازماً قطعياً . فيدخل في القسم الأول: الوجود الإلـهي والصفات الإلـهية، والملائكة والوحي والكتب السماوية وحقيقة النبوة والبعث بعد الموت ونظام العقوبة والثواب في اليوم الآخر وما عـــدا ذلك من الأمور التي تعلو على حدود العلم والادراك الانساني ، مما ورد في القرآن الكريم في ضمن القصص والتماثيل، سواء أكانت هذه الأمور فوق الادراك الانساني العام بحكم نوعيتها أم كانت كذلك لكوننا لا نصلح لأن نحكم بصدقها وصحتها ما دمنا في هذه المنزلة العقلية والعلمية التي نحن فيها الآن . وأما القسم الثاني فيدخل فيه جميع الأمور التي ترتبط بمبادىء تعليم الحكمة وتزكية النفوس وتنظيم الحياة الانسانية في الاسلام .

وحسبما يرى الناقد الفاضل لا حاجة هناك إلى البحث في القسم الثاني لأنه يتساوى فيه الاسلام والديانات الأخرى . وإنما البحث يجب أن يباشر في القسم الأول وحده لأنه لم تطرأ على النفوس حالة الريبة والتردد إلا في تلك الأمور التي تدخل في هذا القسم . أما السؤال عن السبب

في انبعاث هذه الريبة والتردد في تلك الأمور فيجيب عنه صاحبنا بأن الناس في الزمان الماضي كانوا يؤمنون بالغيب لجهالتهم وتقديسهم للقديم . ولكن الآن قد جاءت العلوم الجديدة والاكتشافات العصرية بأسلوب مبتكر للعمل والتفكير وأسبغت على العقول نعمة حرية الفكر والرأي لذلك لم يعد هذا العصر عصر « الذين يؤمنون بالغيب » بل هو عصر « الذين يؤمنون بالتجربة والمشاهدة » .

وهذا الرأي يقوم على أخطاء . أولها عدم التفطن للفرق الحقيقي بين العصر الماضي والعصر الحالي. ومن سوء الحظ أنه قد وقع لا الاستاذ (ن) وحده ، بل طائفة كبيرة من أمثاله في الظن الخاطىء أن مشعل الدين كان لا يمكن أن يضيء إلا في ظلام العصر الماضي ، ومن المحال جداً ان يضيء في هذا العصر الذي قد أشرقت فيه شمس العلوم الجديدة. والحال ان العلوم العقلية التي يعبر عنها صاحبنا بضياء الشمس لا تخص هذا الزمان وحده ، بل ان ضياء هذه العلوم قد برقت له الأبصار في الزمان الغابر أيضاً ، وكان الذين برقت أبصارهم للألائها في الزمان الغابر أيضاً يظنون أن مشعل الدين لا يمكن أن يبقى مضيئاً الآن ، إذ أن العلوم التي كانت بمنزلة « العلوم الجديدة » في ذلك الزمان والاكتشافات التي تعتبر « الاكتشافات العصرية » عندئذ كانت — على حد زعمهم — قد جاءت بأساليب مبتكرة للعمل والتفكير واسبغت على العقول نعمة حرية الفكر والرأي على وجه لم يدع مجالاً للقوم لأن « يؤمنوا بالغيب » في عصرهم المتنور . أفلم تحدث هذه الحالة في تاريخنا من القرن الثاني بعد الهجرة إلى القرن الرابع ؟ وهل رأيت أنه لما انتشرت في البلاد الاسلامية أفكار

افلاطون وأرسطو وابيقوريس وزينو وبرقليس والاسكندر والفردوسي وفلاطينوس ومن سواهم من علماء الفلسفة والحكمة ، فطلع عليها بذلك عصر التفكير الفلسفي والاجتهاد العقلي الجديد ، ألم تظن طائفة من الناس حينئذ عين ما تظنه الآن طائفة منا ؟ وهل لم تدفع الناس موجة « حرية الفكر والرأي » و « الاسلوب المبتكر للعمل والتفكير » في ذلك الزمان إلى الريبة والشك في عقائدهم الدينية؟ ولكنه ماذا حدث بعد ذلك؟ حدث أن وجدت تلكم المسائل النظرية والقياسية الكثيرة التي عرضها الفلاسفة وآمن بها كثير من الناس باطلة مخطئة بعد ، وأمست شمس الحكمة والعلوم التي كان الناس يرون مشعل الدين يخفق ويتضاءل أمامها منكسفة مظلمة في دورة واحدة من دورات الحدثان ، وانقلبت « العلوم الجديدة » عندهم علوماً « متقادمة » ولم تبق في « اكتشافاتهم العصرية » قوة لابداع « الأساليب المبتكرة » للعمل والتفكير . وأصبحت الأساليب المبتكرة التي كانت ابتدعتها فيما قبل قديمة مزمنة . وانتهى الأمر إلى أن الاستنباطات العقلية التي قد باشرها القوم بناء على إيمانهم وثقتهم الكاملة باكتشافات عصرهم والتي أسسوا عليها مذاهب الفلسفة والحكمة ، قد بلغ من هوانها اليوم أن لا يتحرج من تفنيد أكثرها طالب عادي من طلاب هذا العصر .

فالآن إذا كان يزعم أحد أن مشعل الدين كان يمكن أن يضيء في ظلام العصر الماضي ولكنه لا يمكن أن يضيء في عصر النور هذا ، فانه ليخيل إلينا أن التاريخ يعيد نفسه . والأشياء التي يسمونها اليوم « العلوم الجديدة » و « الاكتشافات العصرية » ويدعون بناء عليها أموراً ادعتها

أسلافهم في الغابر ، انا نعتقد أن أكثرها سيلقى المآل الذي لقيته «العلوم الجديدة» و «الاكتشافات العصرية» لعهد السالفين، وإن هذه الأساليب المبتكرة للعمل والتفكير أيضاً ستبلى وتندرس لامحالة مع مرور الزمن.

وإن أنت أمعنت في جميع هذه العلوم والاكتشافات التي هي مفخرة الجيل المتجدد الحاضر، وسألت عن أمرها الرجال الذين هم محققو تلك العلوم ومعالجو تلك الاكتشافات أنفسهم علمت أن هذه أيضاً — كالعلوم الماضية — تحوي عنصراً قليلاً جداً من الحقائق اليقينية التي يمكن أن يقال عنها بثقة انه لا إمكان لبطلانها فيما بعد. وأما ما سواهم من مضامين تلك العلوم فكلها ظنون وأقيسة ونظريات وشكوك واحتمالات عقلية قد يقال عنها بجزم انه كلما خطا الزمان خطوات نحو الرقي لبست هـــذه «العلوم الجديدة» و «الاكتشافات العصرية» كسوة الخلوقة والقدم وعادت «الاساليب المبتكرة للعمل والتفكير» التي هي مدينة بوجودها لهذه العلوم والاكتشافات تترك المجال لاساليب مبتكرة اخرى.

فإذا كان الواقع هكذا فليس هنـاك ما يجعل عاقلا ذا حلم وبصيرة يخاف انه — وقد جاءت «العلوم الجديـدة» و «الاكتشافات العصرية» بالاساليب المبتكرة للعمل والتفكير وأسبغت على العقول نعمـة «حرية الفكر والرأي» — فماذا يكون مصير الدين! وانما شأنه أن يمتحن تلك العلوم والاكتشافات بنظرة فاحصة ليعلم أن جوانبها التي هي متعـارضة مع الاسلام هل هي يقينية في نفسها أم لا . فان كانت من اليقينيات حقاً وكانت بجانب آخر متعارضة مـع المعتقدات الحقيقية التي يقوم عليها

الدين ، كانت هناك أزمـة ولا شك وتساءلت نفسه هل يؤمن بالدين او بتلك النتائج اليقينية للبحث والتحقيق . ولكنه ان كانت تلك الجوانب المتعارضة مع الدين مجرد أقيسة ونظريات ، او كانت مما يـدفع المرء الى الريبة والشك فحسب ، لم يتهيب من تصادمها مع الدين ، لانه ان كان الدين قائماً على دعائم اليقين والاذعان فـلا عبرة بالظن والقياس والشك والتردد بازائها . وان كان الدين شيئاً مبنياً على الظن والقياس ، فهذا الظن والقياس هو الاساس للنظريات العلمية الجديدة أيضاً . فبم يرجح أحدهما على الآخر ؟

ان التهيب للعلوم الجديدة والاكتشافات العصرية والنظر الى الدين بقصد الاصلاح والترميم انما هو مذهب من قد رسب في نفوسهم ان كل جديد هو العلم والاكتشاف ومن اللازم لمسايرة العصر أن يتقبله المرء أو يؤمن به وان كان مجرد قياس او نظرية وكان القوم لم يمتحنوه على محـك النقد الصحيح ببصيرة علمية نافذة . وهؤلاء هم الذين قـد ولعوا بابتداع الاساليب المبتكرة للعمل والتفكير وان كانوا لا يعرفون كيف تبتدع تلك الاساليب وأي الاساليب تكون رشيدة معقولة وأيها تكون سخيفة صبيانية . وكذلك أضحى الادعاء لسبوغ نعمة « حرية الفكر والخيال » من خصيصة أهـل النظر السطحي ، ولكنهم لا يعلمون ان مجرد حرية الفكر والشعور فتنة وحالة خطرة ان لم يصحبها علم واسع محكم ونظرة بالغة عميقة وذهن متوازن صحيح الفكر . وكل هذا مما لا تجود به الفطرة للناس بالسخاء الذي يفرضونه في هذه الايام .

والنظرية الثانية التي قد تولدت من هذه النظرية هي أنه لم يعد هـذا العصر عصر « الذين يؤمنون بالغيب » بل هـو عصر « الذين يؤمنون بالتجربة والمشاهدة » . وانا لم نستطع حتى بعد كثير من التأمل ان ندرك المقصود الحقيقي الذي عناه القائل من وراء كلمته هذه . ان كان المقصود ان هذا العصر لا يؤمن فيه بشيء يدخل في نطاق الغيب ولا يعالج بالتجربة والمشاهدة ، فهو خطأ بالمرة . لان معناه بعبارة أخرى ان الناس في هذا الزمان قد ارتضوا ان يعيشوا داخل الحدود التي يمكن ان تكون تجربتهم ومشاهدتهم فيها وسيلة لاكتساب العلم والتي يمكنهم ان يستخدموا فيها حواسهم ، وان الانسان قد ترك التفكير فيما يخرج من تلك الدائرة من الامور وألغى ان يحكم في بابها بالقياس والاستقراء . ولكن كل من أتيحت له ولو نظرة عاجلة في « العلوم الحديثة والاكتشافات العصرية » لن يقبل هذا القول . دع الفلسفة وعلوم ما بعد الطبيعة التي تبحث تماماً في أمور الغيب . وخذ العلم التجريبي وأموره الطبيعية التي انما يعتمد عليها صاحبنا حينما ينادي بالايمان بالتجربة والمشاهدة ، فأي ناحية من نواحي هذا الفن لا يتوقف تحقيقها على الاقرار بالقوة والطاقة الكامنة ، وقانون الطبيعة ، والمادة والنسبة والعلة والمعلول وما اليها من الامور . وأي علم من علوم الطبيعة لا يؤمن بهذه الامور ؟ ولكن اذهب الى خبير من أكابر خبراء العلوم التجريبية واسأله : أي هذه الامور هو يعلم حقيقته وأيها قد أدرك كنهه بحواسه ؟ وأيها قد جرب أصل وجوده وشاهده بأم عينيه ؟ وأيها يمكنه ان يقدم الثبوت القطعي لوجوده ؟ ان لم يكن هذا كله من الايمان بالغيب فأي شيء هو ؟ .

وقد يكون المعنى الآخر لكلمة صاحبنا ان هذا الزمان لايؤمن فيه الا بالشيء الذي قد جربه وشاهده جميع البشر والذي هو عند جميع أفراد النوع الانساني بمنزلة الحاضر والمشهود . ولكن هذه الكلمة لاتخرج من فم امرىء عاقل . لانـــه من البديهي ان جميع المعلومات الانسانية ليست حاصلة للافراد الانسانيين على حدتهم وانفرادهم ، بل ان جانبها الاكبر يتخصص فيه الجماعات المعينة والافراد المعلومون ، وتكون كل شعبة من هـــذه المعلومات المخصوصة في حكم « الحاضر » للعالمين الاخصائيين في موضوعها وفي حكم « الغائب » لسائر أفراد البشر . ويضطر الجمهور الى ان يؤمن — على الغيب — لذلك الرجل أو لتلك الطائفة التي تكون خبيرة فيها .

وقد يكون المفهوم الثالث لهذا الحكم الكلي ان كل امرىء في هذا الزمان لايؤمن الا بما يدخل تحت تجربته أو مشاهدته الشخصية ولا يؤمن بشيء يكون له في حكم الغيب . ولكنه قول لايمكن ان يخرج من ذهن الانسان شيء أسخف منه . وذلك ان امرءاً بهذه الصفة لم يوجد على الارض في الماضي ولا هو يوجد اليوم ولن يوجد كذلك الى يوم القيامة . وإن كان مثل هذا الرجل موجوداً في الواقع فلا يحجمن صاحبنا من الايماء اليه ، لان هذا الاكتشاف سيكون أكبر وأهم من سائر الاكتشافات العصرية .

فمن أي وجه نظرت في هذه الجملة التي نقلناها لصاحبنا لم تجدها تقارب الصدق . وإن التجربة والمشاهدة لنفسها شاهدة بأن عصرنا هذا أيضاً عصر من يؤمنون بالغيب ، كما أن العصر الماضي . والشيء الذي

يقال له « الايمان بالغيب » لم ينج منه الانسان قط ولا هو يستطيع ان ينجو منه أبداً . وكل امرىء يؤمن بالغيب – وهو مضطر لان يفعل ذلك – في تسع وتسعين وتسعمائة ، بل أكثر ، في كل الف من أمور حياته . وهو إن أخذ على نفسه أن لن يؤمن الا بما يأتي تحت تجربته ومشاهدته فانه سيضطر الى ان يقصي عن ذهنه كل تلك الذخيرة من المعلومات التي قد أنزلها في ذهنه منزلة العلم واليقين اعتماداً على الغير ، وان يلغي كل تلك الوسائل لاكتساب العلم التي هي خارج تجربته او مشاهدته نفسه. وستكون هذه حالة لن يمكنه ان يعيش فيها، فضلا عن ان يقوم بعمل من أعمال هذه الحياة، لذلك لايمكن النفي الكلي للايمان بالغيب ولا الإيمان الكلي بالتجربة والمشاهدة في هذا الزمان ، وايضاً لا يرجى إمكانه أبداً في زمان أنور وأشرق من هذا الزمان. وانما الانسان مضطر لامحالة في كل زمان وفي كل حال الى ان يؤمن بكثير من الاشياء بدون تجربته ومشاهدته نفسه اعتماداً على الغير فمن الامور مايؤمن به المرء للخبر المتواتر الذي وصل اليه فيه كأن يهلك الانسان اذا أكل السم . فهذا لم يجربه كل امرىء لنفسه بأكل السم ولا شهد آخر بأم عينه يموت بأكله . ومنها مايضطر المرء الى الايمان به لرواية رجل أو بضعة رجال يوثق بهم ، كاعتماد القضاة والحكام على الشهادات ، فهم إن لم يفعلوا ذلك لايمكن أن يتحرك دولاب القضاء ولو لساعة . كما أن هناك أموراً يضطر الانسان إلى الاقرار بها لأنه يعرضها خبير اختصاصي في فنها . وهذه الحالة يمر فيها كل طالب علم في كل مدرسة وكل كلية، فانه إن لم يؤمن الطالب – على الغيب – بالبحوث والاكتشافات والنظريات التي يقدمها أكابر الخبراء في ذلك الفن لم يخط خطوة إلى

الأمام في طريق العلم، ولا استطاع أن يتقدم في عمله الى المنزلة التي تؤهله هوَ نفسه ـ كأولئك العلماء والخبراء ـ لأن يبحث في الحقائق العلمية .

فالثابت إذن أننا نؤمن للغير إيماناً بالغيب ـ ونحن مضطرون الى أن نؤمن كذلك ـ في تلك الأمور التي لم نكتسب العلم فيها بتجربتنا ومشاهدتنا الذاتية ، وقد اكتسبه غيرنا. فيواجهنا بعد ذلك سؤال واحد ، هو الذي يتوقف عليه الفصل في هذه القضية وهو أنه : لأي شخص يجب أن نؤمن ، وفي أية مسألة ؟ ومن المسلم به مبدئياً أنه في كل أمر من مثل هذه الأمور يجب نؤمن للرجل أو للجماعة التي نطمئن إلى أنها تملك أصح الخبرة وأكملها فيه وتهيأ لديها أحسن الوسائل لمعرفته . فتبعاً لهذه القاعدة العامة لا يستشير المريض محامياً بدل الطبيب ، ولا يذهب المرافع الى مهندس بدل المحامي . بيد أنه يقع الاختلاف في مسائل الإلهيات والروحانية وينشأ السؤال أن هذه المسائل هل يقبل المرء فيها آراء علماء الفلسفة وأساتذة العلوم العقلية أو آراء الهداة الدينيين والروحيين للعالم الانساني؟ أي هل يؤمن المرء في موضوع الوجود الإلهي والملائكة والوحي والالهام والروح والحياة بعد الموت والعذاب والثواب في اليوم الآخر وما الى ذلك من أمور الغيب ، هل يؤمن في كل ذلك بما يقول امثال كانت واسبنسر وآين شتاين وبرجسان أو بما يدعو إليه الدعاة كابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ؟ فالذين ينادون « بحرية الفكر والرأي » يميلون الى الطائفة الاولى ويمتحنون دعوة الانبياء عليهم السلام على المحك الذي أخذوه من تلك الطائفة ـ طائفة الفلاسفة والمفكرين ـ فكل ماثبت عليه آمنوا به ، لا لأن الانبياء ـ عليهم السلام ـ قد دعوا إليها ، بل

لأنها قد حازت قبولاً لدى الحكماء والفلاسفة « ومن سوء الحظ أن مثل هذه الامور قليلة جداً بل هي تكاد تنعدم » . وأما ما وجد زائفاً على المحك رفضوه كشيء لا اعتبار له . وبخلاف ذلك إن الذين يدعون « أنصار القديم وأتباع السلف » يذهبون إلى انه ليس من الصحيح أن يستفسر أهل الإلهيات والروحانيات عن المسائل الطبيعية والعقلية ولا من الصحيح أن يستفسر أصحاب العلوم الطبيعية والعقلية عن الإلهيات والروحانيات . وإنما يختلف اختصاصها وتتباين دائرتا عملها، ومن الخطأ الأساسي الاول أن يستطلع المرء في علم من العلوم آراء خبير في غير ذلك العلم . ان الحكماء والفلاسفة مهما كان لهم من عمق البصر في العلوم العقلية فانه لا تسمو منزلتهم في العلوم الإلهية على منزلة عامي ، وليس عندهم من وسائل المعلومات في بابها إلا مايملكه كل امرىء عادي . وإنما تختص هذه العلوم بالانبياء عليهم السلام ، فهم الخبراء الاخصائيون فيها وبيدهم وحدهم الوسائل الحقيقية لمعرفتها . لذلك يجب أن يؤمن المرء في أمور الإلهيات والروحانيات بالانبياء عليهم السلام وحدهم . وإن كان لك مجال للمناقشة والبحث في هذا الخصوص فهو في أنه هل هم صادقون وذوو البصيرة التامة في العلوم الإلهية أم لا ؟ ولكنه إن ثبت أو أثبت لك أنهم في الحقيقة كذلك ، يتحتم عليك عندئذ أن تؤمن بكل ماقاله أولئك عن علمهم وبصيرتهم . ويكون إنكارك لها وسوق الأدلة والحجج بخلافها كمثل إنكار أعمى لوجود الشمس وتقديمه الحجج لامتناع وجودها تكذيباً للبصراء. فمثل هذا الرجل مهما كان فيلسوفاً عظيما عند نفسه فإن الرأي الذي سيراه ذلك البصير الذي يرى الشمس بعيني رأسه في هذا الاعمى الفلسفي الجاحد لايحتاج الى بيان .

وعسى أن تعترض أن الذي قد قاله الانبياء عليهم السلام في أمور الغيب لاتصدقه « العلوم الحديثة » و « الاكتشافات العصرية » ولذلك قد ابتلي الناس بحالة « الريبة والحيرة » و « بالايمان التقليدي الاضطراري » ولكنا نسأل أي تلك الحقائق اليقينية من تلك العلوم والاكتشافات هي التى تتعارض مع الاسلام ؟ إن كانت هناك مثل هذه اليقينيات فهاتوها لنطلع عليها ونفكر في أننا هل نؤمن بالقرآن أو بالعلوم الحديثة والاكتشافات العصرية . وان لم تكن ، ولن تكون ، كما يبدو من كلمات « الريبة والحيرة » و « الايمان الاضطراري » التي جاءت في كلام ناقدنا الفاضل . فهل العلوم الحديثة والاكتشافات العصرية لاتملك الا أسلحة النظريات القياسية والظنية التي اعتماداً عليها قد أعلنت الحرب على الدين ، والتي قد جاء بريقها - لاقوة فتكها - يجعل « أنصار حرية الفكر والرأي » يؤملون ان الدين اذا سمع بها هلع جزعاً واضطر الى التخلي عن المضمار . انك مهما أوليت هذه العلوم والاكتشافات من الاهمية فلا تنسى ان هذه لم تكن لتفيد اليقين في أمور الغيب . اقصى ما يكون من تأثير هذه العلوم فيك ان تصاب « بالريبة والحيرة » فتقول انه لايمكن لنا ان نحكم في أمور الوحي والالهام والبعث بعد الموت والجزاء والعقاب في اليوم الآخر ووجود الملائكة ووجود الذات الإلهية حكماً قاطعاً بالنفي أو بالإثبات . ولكنه ليس من الممكن ان تنفعك هذه العلوم في شيء في الخروج عن حالة « الايمان التقليدي الاضطراري » والتمتع بنعمة الكفر المفيدة برد اليقين لأن هذه العلوم لاتزودك بحجة للجحود القطعي بالأمور المذكورة آنفاً . وان شيئاً ما

لايكفي للقطع بعدم وجـوده ان يحتج بأنه لا برهان هناك لوجوده . « فالريبة والحيرة » اذن هـو المنزل النهائي الاخير الذي تنتهي بك اليـه علومك الحديثة وا كتشافاتك المصرية . ولكنه أسوأ المنازل من الناحية العقلية والذهنية . وان العلوم التي لاتستطيع أن ترفد الانسان براحة اليقين ، بل تتركه حيران في موضع لايجد فيه ملاذاً للطمأنينة والهدوء والتي تدفع به الى ورطة «الايمان التقليدي الاضطراري» لكونه لايجد برد اليقين في مذهب الكفر ، لاريب أن هذه العلوم أسوأ للانسان من الجهل .

وان كان ثمة ما يخرج الانسان من هـذه الازمة فهو الايمان بالغيب وحده . فإنك إذا آمنت بأن فلاناً من عباد الله نبي واعتقدت أنه يملك البصيرة الكاملة في العلوم الإلهية ووثقت بأنه لايكذب أبداً فإنه لايبقى لك مجال للحيرة والارتياب في أمور الغيب ، ويقوم اعتقادك على أساس محكم من اليقين والاذعان لايصدمه علم من العلوم الحديثـة ولا شيء من الا كتشافات المصرية ولا أسلوب مبتكر للعمل والتفكير ولا غلبة حرية الفكر والرأي في كل مكان . ولذلك قـد صرح الله تعالى في القرآن بأن هذا الكتاب هدى للمتقين ، ومن أولى صفـات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب . (هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب) «البقرة : ٣» . فهذا الايمان بالغيب هو الذي يقوم عليه بناء الدين بكامله . وان هدمت الجذر والاساس فانك لاتستطيع ان تهتدي في أمر المعتقدات الدينية الاساسية التي لاوسيلة عندك لمعرفة حقيقتها الى رأي تكون موقناً بصحته ويكون باستطاعتك أن تقنع الغير أيضاً بصدقه .

ويبقى السؤال الأخير في هذا المقام وهو أنه ماهي الوسيلة لتحقيق ان رجلًا بعينه نبي في الواقع وله البصيرة الكاملة في العلوم الإلهية، وهو من الامانة والصدق بحيث ان أخبرنا من أمور الغيب بأشياء تخرج عن حدود عقلنا وتسمو على منتهى علمنا نؤمن له ونصدق مايعرض ونستطيع ان نقول بجزم انه لايكذب؟ هذا السؤال يتوقف حله على أمرين اثنين : أولهما أن نمتحن السيرة الشخصية لذلك الرجل بأشد وأقسى مايكون من المقياس الذي تمتحن به سيرة إنسانية، والآخر أن نأخذ من دعوته تلك الامور التي لاتخرج عن دائرة علمنا والتي يمكننا أن نحكم فيها حكماً عقلياً بجزم، فننظر فيها نظر الدارس المتأمل. فإن ثبت لنا كنتيجة الامتحان لسيرته وللجوانب المدركة من دعوته أنه لانظير له في صدق المقال وأنه بجانب ذلك يعلم في جميع نواحي الحياة العملية والفكرية تعليما مكتملاً من الحكمة والسعادة والخير لايستطيع العقل الانساني أن يجد فيه مغمزاً من أية ناحية، فلا مبرر هناك لئلا نعتقده صادقا ونظن به سوءاً أنه قد اختلق كل هذا الكذب والتزوير من وجود الإله والملائكة والعرش والكرسي والوحي والالهام والبعث بعد الموت والجنة والنار لمجرد أن يخدع به الدنيا بدون أن يكون عنده علم بذلك.

لذلك فالخطأ الثالث الذي وقع فيه الاستاذ (ن) لأنه لايعتبر القسم الأول (أي القسم الثاني حسب تقسيمنا) من القرآن جديراً بالبحث، ويظن بعد ذلك أن هذا الجانب تتساوى فيه جميع النحل والأديان او تكاد، ولا يختلف تعليم الدين الاسلامي في بابه عن تعليم الأديان الأخرى أو يقصر دونه. وبخلاف هذا كله نقول إنما يتوقف الفصل بصدق القسمين

(الثاني والثالث) (أي القسم الاول حسب تقسيمنا) على أن نمتحن سيرة النبي محمد ﷺ ونستعرض القرآن الكريم فننتقد منه ذلك القسم الذي لايتعلق بأمور الغيب وألا نكتفي بقول ان هـذا القسم من التعليم الاسلامي لايختلف عن تعليم الأديان الاخرى او يقصر دونه ، بل نثبت بالأدلة والبراهين أن هذا أسمى وأرفع وأجل من كل مايوجد منـه عند الأديان الاخرى غير الاسلام . وما دمنا لانقطع بشيء في هذه المرحلة من البحث ، فإن من الخطأ المبدئي أن ندخل في المرحلة الثانية (المتعلقة بأمور الغيب) منه . وبدون تسوية البحث في هذه المرحلة الاولى لاتمكن التسوية في مرحلة الامور الغيبية أبداً .

ويريدنا الاستاذ (ن) أن نبحث في المعاد و « الكلام الإلهي » والآيات التي تتعلق بالعقائد والقصص . ولكن هذا البحث له عندنا وجهان اثنان وهمـا يتعلقان بفئتين مختلفتين : احداهما الفئـة التي لا تؤمن برسالة النبي ﷺ ، فهي تشك لذلك في هذه الامور والاخرى التي تؤمن برسالته ﷺ ولكن تخالجها شكوك وشبهات في أمور الغيب . فاساليب البحث والمناقشة مع هاتين الفئتين تختلف وتتباين . لذلـك مادمنا لانعلم الى أي الفئتين ينتمي المعترض لا يسعنا ان نتباحث معه في الموضوع .

وذلك ان الفئة الاولى لايجدي معها البحث والمناقشة حـول المعاد والكلام الإلهي وسائر أمور الغيب لأنه ليس من الممكن الوصول الى النتيجة بالبحث في الفروع مع بقـاء الاختلاف في الاصل والجوهر . فالامور التي نحن نؤمن بها من المعاد والكلام الإلهي وما يتعلق بوجود

الإله وصفاته ليس إيماننا بها وإذعاننا في بابها آتياً من أن تحقيقنا العقلي او تجربتنا ومشاهدتنا الذاتية قد أعطتنا علماً قطعياً يقينياً في تلك الامور لا يمكن أن تقام في وجهنا حجة عقلية بخلافه . ولو كان الامر كذلك لكان من الميسور أن نبحث في تلك المسائل بالاعراض عن البحث في الرسالة . ولكن الواقع أن أساس إيماننا وإذعاننا بتلك الامور هو اعتقادنا بأن محمداً ﷺ صادق في قوله وأن كل ما عرضه علينا مما يتصل برسالته وبكون القرآن الكريم من عند الله هو حق لامرية فيه . ومن هذا الاصل يتفرع قولنا بأنه ما لم نجمل رجلاً منكراً لرسالة محمد ﷺ يقر ويذعن بهذه المسألة الاساسية لن نباشر البحث معه في مسألة فرعية .

وأما الفئة الثانية فانا لا نعرف لها حقاً في أن تؤمن بجانب برسالة محمد ﷺ وتتكلم بجانب آخر في أمور الغيب من جهة ان ما جاء في القرآن وما نبأ به محمد ﷺ هل هو صحيح أم خطأ ؟ وذلك انها حالما تقف هذا الموقف من تعاليم القرآن والنبي تدخل في عداد الفئة الاولى. ولو ان المرء من الفئة الثانية حقاً فانه يتحتم عليه ان يسلم بأن كل كلمة جاءت في القرآن صحيحة وأن كل ماعرضه محمد ﷺ سليم الخطأ . وإنما يحق له ان يتكلم في هذا كله من جهتين : اولاهما انه هل جاء هذا وهذا في القرآن في واقع الامر ام لم يجيء ، وهل قال النبي ﷺ هذا وهذا في الواقع أم لم يقل ! والأخرى ان الذي قد ثبت مجيئه في القرآن والسنة ماهو مفهومه الصحيح !

وأمر آخر نريد ان نتكلم عنه في الختام هو ان الاستاذ (ن) قد اقترح ان يفتح في مجلة « ترجمان القرآن » باباً للمناظرة وأظهر من نيته

انه سيعرض فيه ما يعتريه من الشكوك والشبهات . فأما شغل المناظرة المصطلح عليه عامة فقد اجتنبناه دائماً ونريد ان نجتنبه في هذه المجلة ايضاً لأنا لا نود نقاشاً لاتكون غايته سوى الرياضة الذهنية والصراع العقلي. وأما المناظرة العلمية التي يكون المقصود من ورائها التحقيق والاثبات والتي يخوضها الفريقان بالرغبة الصادقة في أن يظهرا ماهو الحق عندهما ويؤمنا بما يثبت انه حق، فنحن مستعدون لها في كل حين . فالاعتراضات والشبهات التي ستعرض على صفحات مجلة الاستاذ (ن) ستنقل بلفظها كاملة على صفحات « ترجمان القرآن » ويجاب عليها . وكذلك من المرجو أنه إن تناول الاستاذ (ن) جواب « ترجمان القرآن» بالنقد نقل الجواب المنتقد بلفظه على صفحات مجلته، حتى يطلع قراء المجلتين على جانبي البحث كليهما ويتمكن من أن يكون في الأمر رأياً بأنفسهم أيضاً . وإن عرض جانب واحد من البحث واجتناب عرض الجانب الآخر هو عندنا اعتراف بالضعف الشخصي !



ملاحظـــة :

ومما عسى ان يروق القراء علمه أن هذا المقال أجاب عليه الاستاذ (ن) بأن ألغى مبادلة مجلته بمجلتنا « ترجمان القرآن » ، وهي لاتزال ملغاة حتى اليوم . إن من الناس من يحسنون خداع شبيبتنا بزخرف من القول والرأي . ولكنهم إذا دعوا إلى البحث الاصولي الجدي على الطريقة العلمية المحضة فانه قلما ترسخ قدمهم في هذا المضمار . (المؤلف)

النقص الأساسي لخطتنا التعليمية

إن مجلس الجامعة المسلمة بعليكره قد وجه عنايته في جلسته السنوية الماضية (المنعقدة في ابريل سنة ١٩٣٦) إلى أمر هام كان يستدعي العناية منذ بعيد، وهو إصلاح الطريقة الناقصة لتعليم علوم الدين والإلهيات وضرورة بعث الروح الاسلامية الحقيقية في طلبة الجـامعة . أما تعليم العلوم الجديدة والآداب والفنون الغربية فقد تهيأت له في جامعات الحكومة أحسن الاسباب ، مما يساوي على الاقل ما يوجد منها في جامعة عليكره فلم يكن المسلمون في حاجة إذن إلى تأسيس جامعة خاصة لهم لهذا الغرض وحده . وإنما الامر الذي جعل المسلمين يفكرون في تأسيس جامعة مستقلة لأبناء أمتهم والذي نالت هذه الفكرة لأجله رضى النـاس هو كون المسلمين يريدون أن يستفيدوا من التعليم الجديد ويبقوا مع ذلك « مسلمين أيضاً » ، وهذا مالا تحققه الكليات ولا الجامعات الحكومية ، وهذا هو الذي احتاج المسلمون لأجله إلى جامعة اسلامية لهم . ولكنه إن لم يكن هذا المقصود متحققاً حتى في جامعتهم أنفسهم ، ولم يتخرج منها من حاملي الشهادات العليا إلا مثل من يخرجون من الجامعات الحكومية حذو القذة بالقذة ، ولم ينبغ في هذه إلا مثل من ينبغ في تلك الجامعات

من « السادة الافرنج الملونين » أو « الوطنيين الهنديين» أو « الملاحدة ـ الشيوعيين » فأي ضرورة هناك لانشاء جامعة مستقلة وإدارة شؤونها بصرف ملايين من الروبيات ؟!

هذا السؤال كان من اللازم أن يوضع موضع العناية والاعتبار منذ البداية . وأول ما كان يجب أن يفكر فيه حينما ابتدأ العمل بانشاء الجامعة هو أنه ما الحاجة بنا إلى جامعة مستقلة . وما المنهاج لقضاء هذه الحاجة في الوقت الحاضر .

ولكنه قد صدق من قال يصف المسلمين في هـذا العصر : انهم قوم يعملون اولاً ويفكرون ثانياً . فالذين كان بهم شغف بانشاء الجامعـة كانوا مشغوفين بإنشاء الجامعة فحسب ، ولم تكن في ذهنهم صورة واضحة منها . فلا يعنيهم كيف ينبغي أن تكون الجامعـة المسلمة وما هي الميزات التي يصح ان تدعى معهـا جامعة باسم « الجامعة المسلمة » . فكان من نتيجة هذا العمل المنفصل عن التفكير أن تأسست في مدينة عليكره أيضاً جامعة من نفس الطراز الذي أنشئت الواحدة منه في اكره والثانية في لكنو والثالثة في داكا من قبل . ولمناسبة صفة « المسلمة » في عنوان الجامعة أدخل جانب من عـلوم الدين في برامج تعليمها ، حتى اذا سأل سائل عن السبب في إلحاق صفة « المسلمة » هذه باسم الجامعـة عرضت عليه مقررات هذه العلوم من القدوري ومنية المصلي والهداية برهاناً على « اسلامية » الجامعة . ولكن الواقع انه لم يراع في تأسيس هـذه الجامعة

وتشكيلها ما تنفرد به عن غيرها من الجامعات الحكومية وتكون «جامعة إسلامية» بكل معنى الكلمة .

من الممكن أن يكون الهج والشغف الشديد بعمل التعبير لم يدع القوم في بدء الامر يفكرون في أمر التصميم الصحيح الملائم ولكن العجب أنه قد مضت على تأسس الجامعة خمسة عشر عاماً ولم يشعر أرباب تعليمنا «ولو مرة واحدة» : ماذا كانت الغاية المقصودة من بناء الجامعة والى اين يسير هذا الموكب المولى عن وجهته . ومما تدل عليه الاحوال منذ البداية ان هذه الجامعة لاهي جارية على النهج الذي يجب ان تجري عليه جامعة إسلامية ، ولا هي آتية بتلك النتائج التي كانت مطلوبة منها حقاً . فلا فرق بين طلبتها وطلبة جامعة حكومية . ولا يوجد في جوها شيء من السيرة الاسلامية والروح الاسلامية والسلوك الاسلامي ، كما ينعدم فيه التفكير الاسلامي والعقلية الاسلامية . ولعله ليس واحداً في المائة عدد الطلبة الذين قد تخرجوا من الجامعة بوجهة نظر إسلامية وبمطمح رجل مسلم والذين قد أهلهم التعليم والتربية في هذه الجامعة بأن يستعملوا علمهم وقواهم العقلية فيبثوا في حياة الامة المسلمة روحا حماسية جديدة ، أو يقوموا — على الاقل — بخدمة علمية او عملية نحو أمتهم . ولو أن نتائج تعليم هذه الجامعة كانت من النوع السلبي فحسب ، لهان الامر . ولكن المؤسف انه يوجد بين خريجي الجامعة والطلبة المتعلمين فيها عدد ضخم من الشبان الذين ليس وجودهم ذا منفعة للاسلام والحضارة الاسلامية بل هو ذو مضرة لها . فهؤلاء ليسوا أجانب فحسب عن الروح الاسلامية بل هم

قد انحرفوا عنها وهاجروها . ولا يوجد فيهم مجرد الجفاء للدين والاعراب عنه ، بل قد نشأ في نفوسهم نوع من الكراهية له . وقد ركبت أذهانهم تركيباً جاوز بهم موقف التشكك إلى موقف الجحود والإنكار التام . فعادوا يتمردون على الأصول الاولية التي يقوم على أساسها بنيان الإسلام

ومنذ قريب قد ألم ببعض أحوال الجامعة في خطاب شخصي له شاب خريج من الجامعة المسلمة نجا من الوقوع في الارتداد لسلامة طبعه ، وقد كان أشرف عليه . وهذا الخطاب لم يكتب للنشر ولا هو كتب خاصة لبيان أحوال عليكره . لذلك نرى أن ما جاء في هـذا الخطاب هو صورة صحيحة غير مموهة لبواطن أمور الجامعة . فيكتب صاحب الخطاب بسرد حالة ارتقائه الذهني :

إني واجهت في جامعة عليكره تلك الفئة النازلة بالعالم الإسلامي من الخارج ، وهي التفرنج . ووقفت أمام منزله الارتقائي النهائي ، وهو الشيوعية ، وكنت قبل هذا لاأعد التقليد الغربي شيئاً ذا خطر . ولكن تجاربي في عليكره عرفتني الحقيقة . ففي هذا المركز الكبير في قلب الهند الاسلامية رأيت عدداً لابأس به من الافراد الذين قد ارتدوا عن الاسلام وأصبحوا دعاة متحمسين للشيوعية . ورأيت أن كثيراً من أفراد هذه الجامعة هم الاساتذة . وهؤلاء ينوون كل فطن زكي من الطلبة الواردين في الجامعة فيوقعونه في شركهم . والقوم لم يختاروا الشيوعية لانهم يريدون حماية وإسعاف المعدمين والفلاحين والعمال ، فهذه حياتهم وطرق معاشهم الاسرافية تكذب ما يدعون ، بل هم قـد اختاروها ليستطيعوا أن يبرروا انحلالهم الخلقي وميولهم الالحادية وتفكيرهم

المهلهل (Loose Thinking) تحت جناح حركة عالمية . وقد انخدعت أنا نفسي بالشيوعية أولاً اذ زعمت انها طبعة غير رسمية (un - authorized Edition) للاسلام . فلما درستها بشيء من الوعي والتفكير علمت انه شتان ما بين مقاصدها الاساسية ومقاصد الاسلام . . . » .

ويتضح جلياً من هذا البيان أن التعليم والتربية في جامعة عليكره ليس ناقصاً فحسب بل هو مثمر من النتائج ما يخالف ويضاد تلك المقاصد التي نادى لأجلها السير سيد أحمد خان ومحسن الملك ووقار الملك بضرورة جامعة مسلمة ، والتي احتفى لاجلها المسلمون ببناء هذا المعهد احتفاءاً حاراً وشاركوا في تأسيسها بما هو فوق استطاعتهم .

وماذا تقول في مهندس صنع سيارة ولكنها اذا حركت جعلت تسعى إلى الخلف بدل أن تجري إلى الامام ؟ وما رأيك في فنية المهندس الذي ظل يلاحظ ان السيارة التي صنعها تتحرك حركة مقلوبة بصفة دائمة مستمرة ، ثم لم يشعر بأن هنــــاك فساداً في تركيب السيارة . وأغلب الظن أنك لن تصادف مثل هذا المهندس الميكانيكي في دنيا الواقع . ولكنك تستطيع أنك تقدر فنية المهندسين التعليميين لاشك من أنهم تصدوا لاختراع «ميكانة» تعليمية يراد بها أن تتحرك نحو الغاية الاسلامية ، ولكن «الميكانة» التي صنعوها أضحت تتحرك في الجهة المعاكسة له على الخط المستقيم وظلت تتحرك في تلك الجهة الخاطئة مدة خمسة عشر عاما على التوالي ، ولكنهم لم يشعروا بذلك ولم يتساءلوا يوما واحداً أنه أي نقص هناك في تصميمهم وتركيبهم بل لم يشعروا بأنه هل هناك من خطأ في تركيبه أم لا ؟ .

وبعد كل هذا الخطأ والفساد المستمر عبر السنوات الطوال قد تذكر مجلس الجامعة أن : « من مقاصد الجامعة الاولية أيضاً أن تبث في طلبتها الروح الاسلامية » وعينت لجنة من سبعة رجال لهذا الغرض قد عهد اليها أن «تدرس وضع الحالة الحاضرة في الجامعة فتقترح لتعليم العلوم الدينية والالهية وسائل مستجدة راقية تلائم حاجات العصر ، ويمكن أن تعرض بها التعاليم الاسلامية على طريقة أحسن وأرضى » .

أمر حسن ولاشك ، وخطة طيبة مباركة ! ولايعد ضالاً من يضل بياض النهار ويعود مع المساء كما يقول المثل . فان كان مهندسونا التعليميون قد تنبهوا حتى في هذه المرحلة المتأخرة أن «ميكانتهم» التعليمية قد ركبت تركيباً خاطئاً وانه ليس السبب في حركتها على عكس الجهة التي كانت مقصودة من صنعها هو مجرد المصادفة والاتفاق بل هو الفساد في تصميمها وتركيبها ، فإنا مستعدون لان نقول لهم : دعوا ما مضى وتعالوا الآن فتفطنوا للاخطاء التي كانت في تصميمكم السابق ، فركبوا «الميكانة» الآن على تصميم آخر صحيح . ولكنا نشك في أنه قد شعر القوم شعوراً صحيحاً بخطئهم . فتراهم لايعترفون بأن هناك فساداً جذرياً في عمل بنائهم وانما تأثروا بالصورة الرهيبة الظاهرة لنتائج عملهم ولا يزالون ينظرون إلى الاحوال بنظر سطحي غير متعمق .

وإنا ندعو الله أن تكون شبهتنا هذه في غير محلها . ولكن تجاربنا الماضية تحملنا على مثل هذا الشك .

إنه في منتصف القرن الماضي ، حينما كان الانحطاط الممتد على القرنين قد أدى إلى انقلاب سياسي رهيب ، ظهر من الغيب بضعة رجال

لينقذوا من الغرق سفينة المسلمين المضطربة . وكان ذلك الوقت لا يسمح بكثير من التأمل . ولم تكن اذ ذاك فرصة للتفكير في أنه على أي تصميم تصنع السفينة الجديدة القوية بدل هذه السفينة القديمة المحطمة . وانما كانت المسألة عندئذ أن هذه الأمة التي قد أشرفت على الغرق كيف تنقذ من الهلاك ؟ فقامت فئة من هؤلاء المصلحين تصلح وترمم تلك السفينة القديمة . فرتبت من جديد ألواحها السابقة وسدت ما تخللها من الفروج ورفت أشرعتها الرثة وجعلتها صالحة ليملأها الهواء فتجري السفينة . وقامت فئة أخرى فا كترت سفينة بخارية جديدة ، فحملت عليها عدداً كثيراً من المتعرضين للغرق وراحت لسبيلها . وبهذا التدبير نجحت الفئتان كلاهما في دفع النكبة المفاجئة . ولكن هذين التدبيرين نجحا من حيث أنهما عالجا المشكلة بحسب الضرورة العاجلة الشديدة فأنقذوا الغارقين من الهلاك . ولم يكن كل ما فيها من الحكمة والكياسة الا محدوداً عند هذا الحد . فالذين يريدون الآن أن يبقوا على هذين التدبيرين في شكليهما الحاليين مع أن ساعة الخطر قد مضت ، فان منهج عملهم يخالف الحكمة والكياسة . وذلك أنه ليست السفينة الشراعية القديمة تصلح لأن يركبها المسلمون ويسابقوا الامم التي تحملها السفن الميكانيكية ذات ألف الضعف من طاقة مركبهم ، ولا السفينة البخارية المكتراة تصلح لأن تحمل المسلمين إلى غايتهم المقصودة ، لان هذه السفينة وإن كانت ذات جهاز مستحدث وسير سريع ومحرك ميكانيكي ، الا أنها سفينة الاجانب في كل حال ، وتصميمها وتركيبها إنما يلائم

مقاصدهم ويلبي حاجاتهم فحسب . ثم ان ربانها وملاحيها أيضاً من أولئك القوم . لذلك لا نتوقع أبداً من هذه السفينة أن تجري بنا إلى الغاية التي نطمح إليها ، بل نحن نخاف لسرعة سيرها أن تبعد بنا هذه في الجهة المخالفة بأعجل من ذي قبل ، وتقصينا عن غايتنا المقصودة يوما بعد يوم . أما وقت الضرورة العاجلة فقد أصاب من قام ليرمم السفينة القديمة ولم يخطىء من أنقذ الغارقين من الهلاك باكتراء سفينة أجنبية . ولكن الآن ، وقد ذهب الخطر العاجل ، يخطىء من يصر على ركوب تلك السفينة القديمة المرممة ويخطىء كذلك من يأبى مفارقة السفينة الاجنبية المستعارة .

إن الزعيم الحقيقي والمصلح الصحيح هو الذي يتولى الاجتهاد الفكري ويتخذ من التدابير ما هو أكثر ملاءمة للوقت والمناسبة . والذين يتبعونه بعد ذلك يكونون مقلدين بلا تفكر . فهم يظلون يسيرون على الطريق الذي كان اختارها مراعاة للظروف ، بدون اجتهاد أو فكر حتى بعد انقضاء تلك الظروف ولا يفطنون أن الذي كان الامثل في الماضي هو في الحال الحاضرة غير الامثل . فبعد اولئك الزعماء الذين كانوا في القرن الماضي لا يزال متبعوهم يصرون على انتهاج ذلك الطريق الذي تركهم عليه اولئك ، مع أنه قد زالت الملابسات التي اختار فيه أولئك هذا الطريق . والحاجة الآن هي أن يعمل الاجتهاد الفكري فتتخذ طريقة جديدة للعمل .

ومن سوء الحظ أننا لا نرى أية من الفئتين مجتهدة . وان اجتهد أحد من أهل السفينة القديمة بأقصى ما يمكنه من الجرأة فهو يعلق فيها عدداً من المصابيح الكهربائية ، ويفرش فيها أثاثاً من النمط الجديد ويركب فيها «ميكانة» بخارية صغيرة لا تنفع إلا أن تصفر من بعيد كمثل الصفارة البخارية فيخدع الناس إن هذه السفينة القديمة قد أصبحت جديدة ميكانيكية . وبجانب آخر ، إن أهل السفينة الجديدة وإن كانوا راكبين في مركب الاجانب ، وتجري بهم السفينة بسرعة هائلة إلى الجهة المخالفة إلا أنهم قد رفعوا أشرعة قليلة من الطراز القديم على ظهر باخرتهم الجديـــدة صنع القرن العشرين ، حتى يخدعوا المسلمين - ويخدعوا أنفسهم كذلك - بأن هذه السفينة أيضاً سفينة إسلامية قد جرت نحو كعبة الله من طريق لندن .

إلامَ يا ترى هذا التقليد الأعمى وهذا التظاهر الزائف بالاجتهاد ؛ قد مر طوفان ، وقد اقترب جداً طوفان آخر . ونحن نشاهد إرهاصات لانقلاب سياسي آخر في الهند، كما أنه تتخذ الآن في أقطار العالم الاخرى وسائل للانقلاب يخشى أن تؤدي إلى انقلاب مفاجيء أعظم وأهلك أضعافاً مضاعفة ، قبل هذا الانقلاب المتوقع في الهند . وستكون هذه الانقلابات المنتظرة مختلفة تماماً في نوعيتها وشدتها عن ثورة ١٨٥٧ الكبرى. والذى نراه الآن من حالة المسلمين الحاضرة من حيث العقيدة والايمان والاخلاق والاعمال لا يجعلنا نظن ونتفاءل أنهم سيتحملون صدمة واحدة من صدمات الطوفانات الآتية بخير وسلام . ذلك لأن سفينتهم القديمة

لا تصلح لأن تقاوم طوفاناً هائلاً ينبعث في هذا العصر الجديد ، وربما
تفككت ألواحها وتمزقت أشرعتها بلطمة واحـدة من لطمات الامواج
الثائرة . أما سفينتهم المستعارة فهي أكثر خطراً من القديمـة ، والذين
قد ركبوا فيها نخشى عليهم أن يذهب بهم أول موج من الطوفان بعيداً
عن الملة الاسلامية ويطرحهم لأبد الآباد ـ لا قدر الله ـ في أعماق الضلال.
لذلك قد آن الأوان لأن يبرح المسلمون سفينتهم القديمة المتضعضعة وينزلوا
أيضاً من السفينة الأجنبية المكتراة ، ويصنعوا لأنفسهم بدل ذلك سفينة
تكون مركبة من أحدث الآلات والأدوات وتكون « ميكانتها » كالتي
تنصب في أقوى وأسرع سفينة عصرية ولكن تصميمها يجب أن يكون
تصميم « سفينة إسلامية » خالصة ، وتكون دفتها بيد الربابين و المهندسين
الذين هم عارفون بمعالم الطريق الموصل إلى كعبة أهل الاسلام .

وندع الآن اسلوب الاستعارة والتعريض ونتكلم في الموضوع بلغة
صريحة مباشرة .

إن الحركة التعليميـة التي انبعثت من عليكره بقيادة السير سيـد
أحمد خان ـ عفا الله عنه ـ كان من غايتها الموقتة أن يتأهل المسلمون
لاصلاح أمرهم الدنيوي بحسب حاجات هـذا الزمن الجديد . وذلك أن
يتحلوا بالتعليم الجديـد . فيستنقذوا حياتهم الاقتصادية والسياسية من
البوار ، ولا يتخلفوا عن الشعوب الأخرى في الاستفادة من الوضع
الحديث لادارة شؤون البلاد . ولعله لم تسمح الظروف عندئذ بأكثر
من هذا . وهذه الحركة وإن كانت بجانب فوائدها مضار وأخطار ،

ولكنه لم تكن لدى القائمين بهذه الحركة فرصة لأن يفكروا في هـــذا الجانب ويتخذوا خطة تعليمية صارمة تسلم من تلك المضار وتجمع المنافع كلها ، ولا كانت تتهيأ لهم آنئذ وسائل وأسباب يمكن بهـا تنفيذ خطة تعليمية من ذاك النوع. لذلك كله دفع المسلمون عندئذ إلى المنهج التعليمي الذي كان رائجاً في البلاد مراعاة لضرورة الساعة . ولتفادي الأخطار أدخل فيه عنصر من التعليم والتربية الاسلامية ، لم يكن يلائم في شيء التعليم الجديد والتربية الجديدة .

كان هذا تدبيراً موقتاً وكفى ، لجؤوا إليه لمكافحة النكبة المفاجئة من الفور ، ولكن الآن قـد انقضت الظروف التي كانت تتطلب تدبيراً عاجلاً . وقد تحقق أيضاً النفع الذي كان يقصد بهذا التدبير ، وأيضاً ظهرت ظهور الواقع المحسوس تلك الأخطار التي كانت عندئـذ متوهمة فحسب . وهـذه الحركة لا ريب أصلحت من أمر دنيانا بعض الشيء ، ولكنها أفسدت ديننا أكثر مما صلحت من دنيانا . وذلك بأنها نشأت من بيننا « الافرنجيين الملونين » وولدت فينـا طبقت من « الانجلو محمديين » (Anglo - Mohammadans) و« الانجلوهنديين» (Anglo-Indians) ممن يتضاءل في نفسياتهم العنصر «المحمدي » و « الهندي » ويغلب العنصر « الانكليزي » . ثم إنها ضيعت الطبقتين العليا والمتوسطة من أمتنا ـ وهما في الحق الاعضاء والجوارح الرئيسية في كياننا القومي ـ وباعتها من الوجهين الظاهر والداخل لحضارة أوربا المادية بثمن بخس هو أن يحرز بعض المناصب وبعض الالقاب وبعض الكراسي التشريفية لرجال يتسمون

بأسماء المسلمين . فانا نتساءل في هذا الوقت : هل يجب أن تبقى خطتنا التعليمية هكذا على الدوام ؟ وإن كانت هذه هي خطتنا الدائمة الباقية فلا نحتاج لأجلها إلى جامعة عليكره ، بل هناك في كل مدينة كبيرة من مدن الهند جامعة عليكره يتخرج منها « الانجلو محمديون » و « الانجلو هنديون » بسرعة . ولا ندري لماذا نطلب هذه المزرعة المستقلة لحصد هذا الزرع المسموم . وأما إن كان المقصود تبديل هذه الحالة فلننظر نظرة الطبيب الفاحص : ما هي أسباب الفساد في حقيقة الأمر وما هو التدبير الصحيح لمعالجته ؟

إن التأمل في مزاج التعليم والتهذيب الجديد وفي طبيعته يوضح أنه ينافي مزاج الاسلام وطبيعته كل المنافاة . فان نحن قبلناه كما هو وروجناه في أجيالنا الناشئة ، أضعناهم للأبد . فانكم في هذا التعليم الجديد تعلمونهم الفلسفة التي تحاول أن تحل لغز هذا الكون بغير الايمان بالله ، وتعلمونهم العلم التجريبي (Science) الذي هو منحرف عن المعقولات وتابع للمحسوسات، وتعلمونهم في التاريخ والسياسة والاقتصاد والقانون وسائر العلوم العمرانية تعليماً يختلف من أصولها إلى فروعها اختلافاً كلياً عن نظريات الاسلام ومبادئه العمرانية . وإنكم تربونهم كذلك في الأغلب تحت تأثير حضارة هي متعارضة مع حضارة الاسلام من حيث روحها ومقاصدها ومناهجها . فأي شيء بعد ذلك يجعلكم تؤملون في أجيالكم أنهم سوف ينشؤون على دينهم، وسيكون نظرهم نظراً إسلامياً، وستكون سيرتهم إسلامية وحياتهم حياة إسلامية ؟ إنه لا يتلاءم مع هذا التعليم

الجديد تعليم القرآن والحديث والفقه على الطريقة العتيقة المتوارثة ولم يكن عمل التعليم هـذا ليأتي بثمرات طيبة . وإنما مثله كمثل أن تنصب الأشرعة البالية في باخرة انكليزية من الطراز الجديد لأجل الاظهار والاعلان وحده . فلم تكن الباخرة الاوربية لتعود بهـذا التدبير باخرة إسلامية أبداً .

لذلك إن كنتم تريدون حقاً أن تتخذوا من جامعة عليكره جامعة مسلمة فعليكم أن تعيدوا النظر في تعليم العلوم والفنون الغربية . ولا يصح أبداً أن تتبنى هذه العلوم كما هي بدون إصلاح أو تعديل ، لأنه ينطبع أثرها على أذهان طلبتنا الصافية الساذجة انطباعاً يعودون به يؤمنون بكل شيء غربي ولا تنشأ فيهم ملكة النقد ، وإن نشأت في واحـد من ألف متعلم ، وذلك أيضاً بعد أن يقضي جانباً كبيراً من عمره بعد فراغه من التعليم الجامعي ، في دراسة متعمقة ويبلغ مرحلة من العمر لا يكون فيها أهلا للقيام بخدمة عملية جدية. فالمطلوب إذن أن يبدل هذا المنهج التعليمي، وذلك أن تعرض جميع العلوم الغربية على الطلبة بعد عملية من النقد تكون من زاوية النظر الاسلامي الخالص ، حتى يسهل التمييز ، فيطرح عند كل خطوة ما هو ناقص من تلك العلوم ، ويقبل ما هو نافع فحسب.

وبجانب هذا يجب أن لا تأخذوا العلوم الاسلامية أيضاً من الكتب القديمة كما هي بدون تعديل . بل يجب أن تفرزوا منها ما هو دخيل فيها من آثار المتأخرين ، وتأخذوا ما يبقى بعـد ذلك من مبادىء الاسلام الابدية ومعتقداته الحقيقية وقوانينه الثابتة غير المتبدلة ، فأنزلوا روحها

الحقيقية في القلوب وابعثوا فكرها الصحيح في الاذهان . ولا نظن أنكم تجدون برامج تعليمية مهيأة لهذا الغرض ، بل لا بد أن تهيئوا كل هذا بأنفسكم من جديد، إن تعليم القرآن الكريم والسنة النبوية فوق كل شيء ، ولكنه يجب ألا يكون هذا التعليم من مجموعات التفسير والحديث القديمة ، ويجب كذلك أن يكون المعلمون لهذه العلوم رجالا قد تعمقوا القرآن والسنة وأدركوا مغزاهما. ويلزم أيضاً التعليم القانوني الاسلامي، ولكنه في هذا العلم أيضاً لن تجدي الكتب المتقادمة . وسيكون محتوماً بعد ذلك أن تدخلوا مبادىء نظام الاقتصاد الاسلامي في تعليم الاقتصاد، ومبادىء القانون الاسلامي في تعليم القانون ونظريات الحكمة الاسلامية في كتب الفلسفة ، وحقائق فلسفة التاريخ الاسلامية في تعليم التاريخ، وأن تدخلوا هكذا في تعليم كل علم وفن عنصراً إسلامياً من حيث العنصر الرئيسي الغالب المسيطر !

هذا وواجب بجانب ذلك كله أن تعفوا كل من انضم في أسرتكم التعليمية من الملاحدة والمتفرنجين . ومن حسن الحظ أنه قد انبعث في الهند جماعة من الافاضل ، هم بجانب بصيرتهم النافذة في العلوم الجديدة مسلمون صادقون بقلوبهم وأذهانهم ونظرهم وتفكيرهم . فالمطلوب أن يجمع شتات هؤلاء النوابغ ويعهد اليهم تصميم باخرة إسلامية بكل جديد من الآلات والأدوات .

ولعلك أن تقول : كل هذا صحيح ولكنه لن يسمح بذلك الحاكم الانكليزي . وهذا صحيح إلى حد ما . ولكن ينبغي أن نطرح عليه هذا

السؤال : أي الرجلين تؤثر ؟ المسلم الخالص أم الشيوعي الخالص ؟ لانك لا بد أن تختار واحداً بعينه من الاثنين . أما المسلم من طراز « الانجلو محمدي » الذي ظهر حوالي سنة ١٩١٠ فلا يمكن أن يوجد إلى بعيد . فان كنت تريد الآن أن تجد أجيال المسلمين الناشئة واقعة في حضن الشيوعية تماماً فاثبت على عدائك للاسلام وستجد النتيجة لهذه الخطة ماثلة أمام عينيك عما قريب . وإن لم تكن تريد ذلك فاعلم أنه لا يمكن أن يحارب تيار الشيوعية الجارف ، لا في صفوف المسلمين وحدهم بل في جميع الهند ، بالدعاية الفارغة وبرامج الاذاعة للربفيين ، وإنما هذا التيار لا تستطيع أن تدفعه إلا قوة واحدة ـ هي قوة الاسلام !



المنهج السديد لتعمير كيان الأمة

إن الاصلاح والثورة يقصد من ورائهما جميعاً إصلاح حالة فاسدة . ولكنه يكون هناك فرق جوهري بين محركاتهما ومناهج عملهما. فالاصلاح يكون ابتداؤه من التروي والتفكير . وذلك أن المرء يدرس الأوضاع القائمة بقلب هادىء وبروية وإمعان نظر ، ويفكر في أسباب الفساد ويقيس حدوده ويبحث عن تدابير إزالته . وإذا تصدى لمحوه فلا يستخدم قوة الهدم والتخريب إلا إلى الحد الأدنى الذي لا بد منه . وأما الثورة ، بخلاف ذلك، فيكون ابتداؤها من السخط والغضب واضطرام الحقد والإلحاح على النقمة. فيؤتي بفساد آخر في رد فساد أول ،ويقاوم التطرف الذي أدى إلى ذلك الفساد بتطرف آخر يأتي فيقضي على الحسنات أيضاً مع السيئات . ولا شك في أنه يضطر المصلح في كثير من الاحيان أن يصنع مثل ما يصنعه الثوري . فكلاهما يأخذ مبضع الشرح ويعمد به إلى الموضع المألوف من الجسم . ولكن الفرق بين الاثنين هو أن المصلح يقدر من ذي قبل أين الفساد في الجسم وكم هو ؟ فيستعمل مبضعه بقدر لا بد منه لإزالة الفساد ، ويهيء بجانب عمل شرحه بلسماً شافياً لكي

بضمه على الجرح من الفور. ولكن الثوري - بخلاف ذلك - يعمل مبضعه في الجسم في فورة الغضب بدون حيطة أو حذر ، ويروح بقطع أجزاءه بدون تمييز بين الصالح منها والفاسد. ولا يخطر بباله أن يستعمل البلسم، وإن خطر فبعد أن يكون أثخن في القطع والبتر ويتنبه لخطئه في العمل عقب ما يضيع جزءاً كبيراً من الجسم .

وفي الأعم الأغلب أنه حينما تكثر المفاسد وتتخطى حدود القصد، يخون الناسَ الصبر والاحتمال ولا يدعهم الاذى الذي يلحقهم من الأوضاع الفاسدة يفكرون في الأمر بقلب هادىء ، ويجتهدون للاصلاح . فتقوم في هذه الظروف عامة حركات ثورية بدل حركات إصلاحية ، ويقوم صراع حاد بين الرجعيين والثوريين ، مما يهيىء الحطب الجزل لنار الغضب والحقد والثأر ، فيبلغ الفريقان منتهى الخصومة والعناد ، وكلاهما يخنق صوت الحق والصدق . فيرى بجانب انه تستنفد القوة في حماية الباطل على الحق ، ويرى بجانب آخر أنه يتحامل القوم على المذنب والبريء ، بدون تمييز بين الحق والباطل . فاذا تمت الغلبة للثوريين في عاقبة الأمر فهم يأتون فيبيدون كل شيء كان بيد الرجعيين ، سواء أ كان حقا أم باطلا وصحيحا أم خاطئاً . وتتقدم الثورة كالسيل الجراف تكتسح أمامها اليابس والاخضر بدون تمييز. وبعد كثير من الهدم والتخريب ومتى عاد العقل الى نصابه فانه ينبعث حينئذ الشعور بضرورة التعمير . ولكن العقلية الثورية تبتكر في هذا أيضاً بدعا من الأساليب ، فتحاول أن تترك كل شيء راج بين المحافظين ، ولا تعتبر لشيء ما عيباً أكبر من انه

ينتسب إلى النظام القديم . وان كان بذاته صائباً . وهكذا يحاول القوم أن يبنوا بنيان الحياة على المبادىء الثورية الجديدة لمدة من الزمان . ولكنه عندما يتعب الذهن الثوري من تلك التجارب الجديدة وتعاقب الخيبة والفشل ، يعود في آخر المطاف الى موقف الاعتدال الذي كان يقصده المصلح منذ ابتداء الأمر . ويصدق الشعر الفارسي :

كل مايفعله العاقل يفعله الاحمق كذلك . ولكن بعد كثير من الفوضى والاضطراب !

ان المثال الأبرز لما ذكرناه آنفاً هو الثورة البولشوفيكية . وذلك أن الحالة الفاسدة السيئة للنظام المدني القائم في روسيا الملكية لما تناهت في الفساد حتى أصبحت لايطاق عليها الصبر ، ظهرت في وجهها كرد عمل حركة ثورية ، وبدأت النظريات الاشتراكية والديمقراطية الاوربية تفشو وتنتشر في روسيا . فقامت الحكومة وصنائعها من الطبقات تستعمل القوة والعنف الاستبدادي للاحتفاظ بما تتمتع به من المنافع غير الشرعية. فكان من النتيجة أن أخذ الثوريون يحتدمون غضباً وحقـــداً ، لا على الاستبداد الملكي والتقسيم غير العادل للثروة فحسب ، بل على كل نظام التمدن الذي كان توارثه القوم منذ قرون . وتأدى الأمر إلى أن تقمص الهيولي الماركسي شخصية لينن، فدكَّ عرشَ حكومة زار، ونسفت نسفاً جميع المبادىء السياسية والاقتصادية والمدنية والاخلاقية والدينية التي يقوم عليها المجتمع الروسي فيما قبل الثورة . وبعد كل هذا الهدم والتخريب ابتدأ تعمير مجتمع جديد على مبادىء شيوعية مبتكرة . وبذل البناؤون

الجدد كل ما يملكون من قوى التفكير في محاولتهم لئلا يدخل في بنائهم الجديد أي شيء من باقيات الطبقة البورجوازية . حتى أمروا « الاله » أيضا بالخروج من حدود روسيا للحال . ولكنه مع مرور الزمن قد أخذ الجنون الثوري يهدأ أخيراً ويحل محله العقل البناء . وأخذت تلك البولشوية المتطرفة التي كانت عاملاً فعالاً في نشأة الثورة تعود الى نقطة الاعتدال.

ومثل هذا التطرف ظهر في زمان الثورة الفرنسية أيضاً . إذ نهض رجال الثورة ليهدموا في سورة هيجهم كل ماهو صالح أو فاسد مما يتعلق بالنظام القائم ، ووضعوا مبادىء انقلابية جديدة ، فروجوها في البلاد ، ولكنه كان من عاقبة هذا الطوفان الثوري المتشدد أنه لم يمكن إلى الآن أن يعود المزاج الفرنسي السياسي والمدني والاخلاقي الى نقطة الاعتدال، ولا يجد المرء في أية ناحية من نواحي الحياة الفرنسية القومية ذلك الرسوخ والاحكام الذي يوجد عند الانكليز .

ومثال آخر لهذا التطرف هو الانقلاب التركي . حيث اجتهدت مثل هذه العقلية الانقلابية أن تجعل من أمة « أمة » أخرى مختلفة تماماً عن الأولى ، بين عشية أو ضحاها ، بقوة سحرية . ولتحقيق هذا الغرض كما أخذ الانقلابيون المبضع بيدهم فانهم في محاولتهم لشرح المواضع المأووفة قطعوا الأجزاء الصالحة الصحيحة أيضاً من جسم الامة ، وركبوا في مكانها أعضاء جديدة مستوردة من أوربا ، حتى استبدلوا بالعقل القديم أيضاً عقلا متنوراً جديداً تحت قبة أوربية . ولكنه مع مرور الزمن عاد الاتراك الانقلابيون يتفهمون أنه لا يصح ما اتخذوه إلى الآن من القاعدة

الكلية التي تحكم بأن كل قديم سيء وكل جديد حسن مرضي . ولم يجدوا بدا بعد ماخسروا وأخفقوا في أكثر التجارب الجديدة من ان يدعوا الافراط ويرجعوا إلى بعض الاعتدال .

كل هذا قد قلناه نظراً إلى ان المسلمين الهنديين أيضاً يقفون الآن أمام هيجان ثوري . وقبل أن تظهر النتائج الوخيمة لهذا الهيجان نريد ان ندعو كلتا الطائفتين من المحافظين والثوريين إلى الفكر والتأمل .

إن فساد الاحوال في هذا القطر الهندي يماثل ما كان منه في تركيا وسائر الممالك المسلمة ومايوجد هناك حتى الآن. فان الطبقةالتي تتولى قيادتنا الدينية منذ قرون قد جعلت الاسلام شيئاً جامداً غير متحرك . ولعلها لم تبدل « النتيجة » الملقة أمامهامنذ القرن السابع . إنهم لاشك يدرسون ويدرسون في مباحث فلسفتهم وكلامهم أن العالم متغير وكل متغير حادث، ولكنهم قد أغمضوا عيونهم في الحقيقة عن تغير العالم وتقلب العصر وتطور الزمن وجريانه . انه قد تبدلت الارض غير الارض ، وتغيرت حالات الدنيا وأفكارها وميولها ونظرياتها من صورة إلى أخرى وتقلبت شؤون التمدن ومسائله تقلبات متعددة ،ولكن هداتنا لايزالون يتصورون أنفسهم بعد في تلك البيئة التي كانت تسود قبل خمسة أو ستة قرون . إنهم لم يتقدموا خطوة مع الزمن ، وبقوا غير متأثرين بالتطورات الحديثة ولم يعنوا بالمسائل المتجددة للحياة ، وظلوا يحاولون أن يمنعوا أمتهم أيضاً عن مسايرة الزمن ، بل يجذبوها من المستقبل إلى الماضي . وهذه المحاولة لم تكن لتنجح إلا إلى حين ، فنجحت بالفعل . ولكن مثل هذه المحاولات

لايمكن أن تنجح دائما . وكيف يمكن لامة تتصل بالدنيا وتعاملهـا أن لا تتأثر بأفكار العالم ومسائل الحياة المتجددة ، فان لم يتقدمها هداتهـا في هذه الحياة المعاصرة ولم يرشدوها في السبل الجديدة العقلية والعلميـة والعملية فمن الطبيعي أن تتجانف هذه للخروج من قيادتهم .

إن هذا الفساد أساسه في الحقيقة شيء آخر ، هو أن هداتنا الدينيين أمعنوا في الفروع إلى حد أنهم تركوا الاصول وراء ظهورهم . ثم جاءت الفروع فحلت محل الاصول وتفرعت عنها مئات وآلاف من الفروع الجديدة واعتبرت أصل الاسلام . والحال أنه لا أهمية لها أصلا في الدين. إن بنيان الملة الاسلامية أقيم في الحقيقة على هذا الترتيب ، وهـو أن القرآن الكريم هو الاساس والطابق الاول ، تتبعه وتنبني عليه السنـة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ، ويأتي بعد السنة اجتهاد أهل العلم والبصر في الدين . ولكنه لسوء الحظ قلب هذا الترتيب رأسا على عقب ، وأصبح الترتيب المبتدع أن الاول هو اجتهاد ذوي البصيرة والعلم من عصر معين معلوم ، والثاني سنة النبي ﷺ والثالث الأخير : كتاب الله ! وهـذا الترتيب المقلوب البدع هو المسؤول عن كل هذا الجمود الذي قد جعل من المسلمين شيئاً ساكنا لايتحرك .

مَن مِن المسلمين يستطيع أن يجحد بفضل الأئمة الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمحدثين رحمهم الله ومن ينكر رجاحة علمهم وعلو منزلتهم؟ ولكنهم على كل حال كانوا بشراً . وكانوا يملكون من وسائل اكتساب العلم ما هو حاصل لعامة بني آدم . ولم يكن يأتيهم الوحي . وانما كانوا

يستعملون عقلهم وبصيرتهم ليسبروا غور كلام الله وسنة رسوله، فكل ما تحقق عندهم من المبادىء كانوا يستنبطون منها الفروع للقوانين والمعتقدات. فاجتهادهم هذا يجوز أن يكون عوناً لنا ونور هدى يسعى بين أيدينا، ولكنه لم يكن ليتخذ بذاته أصلاً ومصدراً وإن الانسان سواء اجتهد بمجرد رأيه أم بالاستفادة من كتاب من الكتب السماوية فان اجتهاده لا يمكن أن يكون قانوناً أبدياً وقاعدة حتمية لازمة للدنيا، لأن التعقل والعلم الانساني يتقيدان أبداً بقيود الزمان.

وان كان هناك من يجل عن كل قيد من قيود الزمان والمكان فهو إله العالم وحده. فهو الذي عنده العلم الحقيقي ولا يطرأ على علمه مثقال ذرة من التغيير بتقلبات الزمان. وهذا العلم الأبدي أودع منه ما أودع في آيات القرآن الكريم وفي صدر النبي الذي جـــاء به، وإذن القرآن والسنة الثابتة هما اللذان يمكن أن يكونا المأخذ والمنبع الذي يستنبط منه البشر في كل زمان ومكان علومـــاً وأفكاراً وقوانين بحسب أحوالهم المخصوصة وبمراعاة حاجاتهم وضروراتهم. وما دام العلماء المسلمون يكتسبون العلم من هذا المأخذ ويحلون المسائل العلمية والعملية باجتهادهم المستند إلى التفكر الصحيح، بقي الاسلام يساير الزمن. ولكنهم لما تركوا التدبر في القرآن وألفوا التحقيق والتفحص في الاحاديث، وراحوا يقلدون السلف من المفسرين والمحدثين تقليداً أعمى، واتخذوا اجتهاد الفقهاء والمتكلمين الماضين قانوناً أبدياً لا يغير أو يبدل، وتركوا اكتساب العلم مباشرة من القرآن والسنة وجعلوا الفروع التي استنبطها السلف هي الاصل مكان أصول الكتاب والسنة لما حدث هذا كله، وقف سير الاسلام بغتة وجعلت قدمه تتراجع إلى

الوراء بدل أن تخطو إلى الامام .وغدا حملته وورثته ينغمسون في شرح وتفسير العلوم والمسائل القديمة بدل ان يهدوا العالم في ميادين العلم والعمل الجديدة وأصبحوا يتجادلون في الفروع والجزئيات ويبتدعون مذاهب جديدة ويتشيعون فرقا في المباحث العقيمة التى لا تجدي ، ووزعوا الكفر والفسق على المسلمين بسخاء جعل العالم يشهد منظر الذين « يخرجون من دين الله أفواجا» بعد أن كان شهد في الماضي منظر الذين (يدخلون في دين الله أفواجا) وعاد المسلمون « رحماء على الكفار أشداء بينهم » في كل مكان بدل أن يكونوا (أشداء على الكفار رحماء بينهم)، وأضحت الحالة التي ذكرها القرآن بالنسبة للكفار والمنافقين بكلماته (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) حالة المسلمين أنفسهم .

فمن رد فعل هذه الحركة الرجعية ما نجده اليوم بصورة هيجان ثوري رهيب . انه لما أحس المسلمون أن هداتهم الدينيين لا يقومون بواجب القيادة نحوهم ، بل هم يجرونهم الى الوراء بدل أن يتقدموا بهم إلى الامام، صاروا يتحررون من سلطانهم ويهيمون في كل واد كأنهم جند بلا قائد. فجاءت طائفة منهم تتهم الدين نفسه لاخطاء حملة الدين وهفواتهم ، تعتبره أكبر عائق في سبيل رقيها وتنادي علانية بان يترك الدين وتقلد الأمم الراقية . وجاءت ثانية فجعلت شعارها شتم العلماء والهداة الدينيين ، كأن فلاح المسلمين ورقيهم موقوف الآن على هذا السب والشتم ، والوقيعة في الاعراض . وقامت طائفة ثالثة فأخذت في عملية القطع والبتر في الدين . وجاء آخرون فأطلقوا لسان القدح في الفقهاء والائمة. وجاء منهم من ضم الحديث أيضاً إلى الفقه فغيرهما جميعاً . كما جاء من أحس بضرورة

التعديل والترميم في أحكام القرآن وتعاليمه أيضاً .ومنهم من نادى بفصل الدين عن الدنيا ، فقال :ان الدين يجب أن ينحصر في العقائد والعبادات. وأما الامور الدنيوية فلا يكون فيها دخل للدين وقوانينه .

وهكذا قد قامت جماعات مختلفة لاصلاح تلك الاحوال الفاسدة . ولكن اتجاهها ليس إلى الاصلاح ، بل إلى الثورة والانقلاب . إنها لم تفكر بقلب هادىء سليم في انه ما هو الفساد الحقيقي ؟ ومن أين أتى ؟ وإلى أي حد يمتد ؟ وما هي الصورة الصحيحة لاصلاحه ! انها أحست بالفساد بمجرد الظن والقياس،فأخذت المبضع وجعلت تعمله لحسمه بدون حيطة أو تدبير ، وان كانت نتيجته أن يذهب المريض أيضاً مع ذهاب المرض .

ان الممالك المستقلة قد يقال بالنسبة اليها — ويصح هذا القول إلى حد — أنه لا يكون فيها مناص من حركة ثورية ، لانه تكون فيها إحدى الطوائف قابضة على السلطة الفعلية ، ولا يمكن للطائفة الاخرى أن تنزع هذه السلطة من أيديها إلا بحركة ثورية شديدة . ويلاحظ مع ذلك أنه متى وقعت على زعماء الثورة مسؤولية القيام بشؤون الحكم ، فإن تجارب الوقت والزمان تصحح أذهانهم وترجع عقولهم إلى الرشد في مدة قليلة جداً ، فيضطرون إلى أن يعودوا من الافراط إلى القصد والاعتدال. ولكنه يجب أن لا ننسى أننا في هذا الوقت في حال العبودية فتختلف أحوالنا عن أحوال الممالك المستقلة اختلافاً كلياً ،فها هنا لا نحتاج -أولا- إلى حركة ثورية ، لاننا لا نخاف معارضة قوية شديدة لا تنجح في وجهها حركة اصلاحية معتدلة . وثانياً انه إن جرت في البلاد الآن حركة ثورية

فنجحت في أهدافها ، فانه لا يرجى منها أن تعود إلى القصد والاعتدال لزمن طويل ، لان رجال ثورتنا لن يكون على كواهلهم مسؤولية تثقلها وترد تطرفهم إلى الاعتدال . وعلى هـذا لن تكون عاقبة بقاء حركة ثورية — بل بعبارة أصح — بقاء حركات ثورية متعددة إلى زمن بعيـد إلا أن تتزلزل الأسس التي يقوم عليهـــا المجتمع المسلم ، ولا يثبت مكانهــا أساس محكم رصين يمكن أن يبنى عليه نظـــام اجتماعي من جديد . ومما لا يصعب فهمه وتصوره انه حين يهدم ويشتت النظام الاجتماعي لهذه الامة التي هي في حال الضعف والعبودية من قبل ، فأي هوة سحيقة من الانحطاط الخلقي ستهوي اليها وتنتهي إلى قرارها .

وهذا هو السبب في أننا كثيراً ما نضطر إلى ان نقاوم الثوريين بالقوة والشدة أكثر من الرجعيين . وإلا فاننا أيضاً نوافقهم في الشعور بضرورة إصلاح الأحوال الفاسدة ، وإننا أيضاً نود أن يحوّل هذا الجمـود الذي قد لازم الإسلام إلى الحركة والنشاط ولكنه ليس من الحيلة الصحيحة لبعث هذه الحركة ان تترك الشعائر الاسلامية، وتتبنى الطريقة الافرنجية للحياة . ولا من حيلته أن يتناول الدين بالقطع والبتر بدون علم وتحقيق وبدون تأمل وتفكير . ولا من حيلته ان تهدم بلا ضرورة تلك المباني الـتي أقامها المجتهدون الماضون بجهدهم ومشقتهم . ولا من تدبيره أن تلقى مجموعة الاحاديث النبوية كلها في النار — عياذاً بالله — ولا أن يعمـد الانسان إلى الكلام الالهي لينتقص منه ويزيد عليه بحسب عقـله . كل هذه الحيل والتدابير لا تضمن الاصلاح ، بل هي تؤدي إلى فساد اكبر مما كان . وليس العلاج الناجح للحالة الفاسدة القائمة إلا ان يصحح من

جديد ذلك الترتيب الذي قد قلب ، وهو أن يوضـــع القرآن الكريم موضع القيادة والارشاد الذي كان له في الواقع ، وتعرف للحديث تلك المكانة التي كان جعلها له النبي ﷺ هو نفسه وأصحابه وأهل بيته على عهد النبوة ، وتنزل مآثر الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمحدثين بتلك المنزلة التي قررها لها اولئك الافاضل بأنفسهم . وذلك ان تستفيدوا منها وتستبقوا منها مالا حاجة هناك إلى تبديله ، ولكن لاتظنوا أبداً أن كل ماقدخرج من أقلامهم هو القانون الأبدي الذي لايمكن تبديله او ان كتبهم وآثارهم قد أغنتنا عن التدبر في القرآن والتحقيق في الأحاديث النبوية ، أو أنه قد انغلق بعدهم باب اكتساب العلم من الكتاب والسنة مباشرة .

فلو أن هذا الترتيب الصحيح يقام من جديد ، فلا جرم أن سيتحرك القطار الاسلامي الواقف ، لان السبب الحقيقي لهذا الوقوف والجمود أنه قد نحيت القاطرة الهادية من أمام القطار وجعلت في المكان الخلفي . وكذلك أبعد السائق عن موضعه وأجلس في بعض العربات الخلفية ، ووضعت الثقة كلها في العربة الامامية واعتقد أنها ستسير بنفسها وتجر سائر القطار أيضاً معها . وهذا محال !

على أن هذا العمل لاحاجة فيه إلى غضب أو اهتياج . وانما الغضب يجوز حيث يرتكب خطأ أو ظلم بالعمد. وأما ما وقع هاهنا فلم يتعمده أحد . ولا يستطيع أحد أن يقول أن العلماء كانوا قد اجتمعوا في مكان ليتآمروا على أن يدخلوا على الاسلام هذا الجمود ويوقفوا ركبه المتحرك . إنما هذا كله نتيجة ذلك الانحطاط الذي لايزال يطرأ على القوى العلمية والعقلية والفكرية لجميع الأمم المسلمة كطروئه على قواهـــا السياسية

والعسكرية والاقتصادية والمدنية منذ القرن السادس أو السابع للهجرة . فهذا الانحطاط كما أخمد في المسلمين روح الجهاد قد أمات فيهم روح الاجتهاد أيضاً ، وكما أنه تبدلت نظرياتهم في جملة مسائل الحياة ، تبدلت نظرياتهم كذلك في الأمور الدينية والعلمية . وبقيت جميع قواهم الذهنية يستولي عليها الهمود والجمود مع الايام بغير شعور منهم . فهذا كله مما لا يصح أن يتهم به العلماء ولا متبعوهم . وان شئت اتهمت به الفطرة. ولكنه لا هذا الاتهام يجديك شيئا ولا الغضب ولا فورته الهدامة . إنما الصورة الصحيحة لمعالجة الاصلاح أن تبحثوا بنفس هادئة رزينة عن أسباب المفاسد وحدودها ، وتحولوها بالحكمة والتدبير الموفق إلى المحاسن !



طلائع الثورة على الدين

كل أمة تشتمل على طبقتين : إحداهما العامة والاخرى الخاصة .

اما طبقة العامة فمع أنها كثيرة العدد ومنها تتألف القوة العددية للأمة ولكن العقول المفكرة الهادية لاتنبغ منها فهؤلاء لايكون لهم حظ من العلم أو قوة اقتصادية تذكر . ولا هم في شيء من العز والجاه ولا بيدهم سلطة الحكم . لذلك لايكون تسيير الأمة من شأنهم . وانما شأنهم أن يسيروا خلف من يسيرهم. وكذلك لايكون هؤلاء ممن يضعون طرائق العمل ويمهدونها ، بل هم يسيرون على ما يمهد لهم من الطرق . أما الواضعون للطرق والمسيرون لجميع الامة عليها فهم في الحقيقة الخواص ، وهم الذين يحمل كل قولهم وكل فعلتهم من ورائه قوة العقل والثروة والعز والحكم . وتضطر الامة إلى اتباعهم طوعا وكرها . لذلك يصح القول : ان القوة الحقيقية لامة مالاتكون في عامتها ، بل في خاصتها . فهؤلاء هم الذين يتوقف عليهم صلاح الامة وفسادها ، يؤدي رشدهم إلى رشد الامة بكاملها ويؤدي ضلالهم إلى ضلال الامة جماء . فمتى كانت الامة في إقبال نبغ من بينها خواص يسيرون على الصراط السوي ويسيرون الامة معهم عليه. (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا)(وأوحينا اليهم فعل الخيرات) . ومتى كانت الامة في إدبار ابتدأ الفساد فيها من خاصتها

الذين يتأثر بضلالهم وفساد أخلاقهم عامة أفرادها فيقعون جميعاً في الضلال وسيئات الاعمال .(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا) .

وتدعى الخاصة في المصطلح القرآني « المترفين » ، وهم الذين يكونون في نعمة واسعة من عند الله . ويشهد الله عز وجل بأن هؤلاء المترفين هم الذين يرتكبون أولا الفسق والفجور والظلم والعدوان في البلاد ، ثم تبتلى البلاد كلها بالسيئات .

وأي شك في هذه الشهادة الإلهية . انظر إلى أمتنا نحن . فقد نتج الفساد فيها عن مترفيها لا غير . لأنهم هجروا الطريقة التي كانت طريقة الأئمة الهادين بمقتضى الاحكام الإلهية وبدؤوا يتبعون السبل الشيطانية . فهم الذين جروا على ارخاء القيود الشرعية اتباعا لاهوائهم ، وجعلوا عباد الله يعبدونهم شأن الفراعنة والقياصرة ، وهم الذين عودوا أمتهم الخضوع للملوك والامراء بدل الخضوع أمام الله وعلموا الرقاب التي أمرت بأن تسجد لله وحده كيف تسجد للعباد . وهم الذين زينوا المعاصي والذنوب لامتهم بارتكابهم اياها في القصور الزاهية والازياء الفاخرة .وبأكلهم الحرام عودوا أفراد أمتهم أن يأكلوا الحرام ويؤكلوه وهم الذين استخدموا العلم للضلال والعقل للافساد والفطنة المكر والائتمار ، والثروة لاشتراء سلعة الايمان والحكم للظلم والعدوان ،والقوة للاستكبار . ثم هم الذين سدوا معظم الطرق الشرعية إلى نيل المصالح والحقوق وإلى الترقي والصعود ،ودفعوا الناس على أن يحتالوا لنيل مقاصدهم بالرشوة والتملق والكذب والمكيدة وما إلى ذلك من الطرق المهينة .

وبالجملة ليس هنالك من فساد خلقي أو عملي لم تكن نشأته من هؤلاء المترفين . انهم أساؤوا استعمال ما آتاهم الله من النعم ، فضلوا وأضلوا .

كان كل هذا واقعاً منذ القرون، وكان كيان المسلمين القومي ينخر فيه الفساد الخلقي الداخل في أحشائه ، ولكن القلوب على الاقل كانت عامرة بنور الايمان . وانه وان تضاءل الاتباع لاحكام الله والرسول إلا أن عظمة الله والرسول كانت باقية في الصدور . ومهما خالف القوم القانون الاسلامي فان احترام القانون لم تخل منه نفوسهم . ومهما ازداد الانحراف من الحكم الاسلامي فانه لم يتجرأ أحد على البغي عليه . وكل ماعده الاسلام حقا كان يعد من الحق لاشك وان غلا القالون في الاعراض عنه واتباع الباطل ، ولم يتجاسر أحد على أن يعد ما هو حق في الاسلام باطلا وماهو باطل فيه حقا ،ويجعل واجبه لغواً وعبثاً وجائزه مكروهاً وحرامه حلالا بل مستحسنا ويجعل إثمة عملا صالحاً . ولا ريب أن كان الناس يركبون الاثم وتدنس أعراضهم بلؤم الجرائم وكانوا يتعدون حدود الشرع ويمعنون في مخالفة القوانين الاسلامية ، ولكنهم على هذا كله كانوا يشعرون بالخجل في أنفسهم وتندى جبنهم حياء ، وكانت نفوسهم تعترف على الاقل بانهم يعصون الله والرسول .

ومرد ذلك إلى ان حضارة المسلمين على كل ما يوجد فيهم من انحلال العقائد وفساد الاعمال كانت تقوم على تلك الدعائم والاركان التي رفعها الاسلام . ومع ان استيراد الافكار اليونانية والفارسية في المجتمع المسلم نشرا كثيراً من الضلال الا ان هذه الافكار الطارئة لم تنجح إلى حد أن تقلب وجهة نظر المسلمين وتجعل تركيب عقليتهم شيئاً متنافياً مع الاسلام

ولم يبلغ من تأثيرها فيالديهم من قوى العقل والفكر والتميز ان يتركوا النظر بنظرة المسلم والتفكير بذهن المسلم . وكذلك ان ارتقاء المدنية والحضارة وان انحرف كثيراً عن السبل التي خططها الاسلام ، بتأثير المؤثرات الخارجية ، إلا أن المبادىء التي رفعت عليها قواعد هذه الحضارة والمدنية بقيت موجودة في أساسها، ولم تحل محلها مبادىء الحضارة والمدنية الاخرى المعارضة . وفسد كذلك نظام التعليم الرائج بين المسلمين كثيراً ولكنه كان للعلوم الدينية فيه مكان ملحوظ أبداً . ولم يكن أي فرد متعلم من المسلمين يكون غير عارف بالعلم الاساسي الابتدائي — على الاقل — للعقائد الاسلامية والاحكام الشرعية والتقاليد الملية .

وضعفت سيطرة القانون الاسلامي على حياة المسلمين العملية ولكن شؤونهم بالجملة بقيت تحت سلطان قانون واحد هو القانون الاسلامي . وملخص القول انه على الرغم من كل المفاسد والمساوىء الرائجة بين المسلمين كان للاسلام تأثير بالغ في أفكارهم وأخلاقهم وأعمالهم .فكانوا يؤمنون بمبادئه حنفاء لايميلون إلى شيء آخر . ولم تكن المبادىء المخالفة للاسلام نجحت في الدخول في حظيرة إيمانهم على الاقل . وكانت القيم الاخلاقية والعملية التي قررها الاسلام لم تتغير إلى حد أن تنقلب رأساً على عقب وتقوم مقامها قيم أخرى .

ولكنه لما انتزع الحكم من أيدي المسلمين في القرن التاسع عشر ورأى مترفو هذه الامة أنه يكاديضيع عنهم الجاه والمنزلة والعز والاحترام والثرة والاموال ، مع ماضاع من الحكم والامر ، وأنه ما من وسيلة للاحتفاظ بكل ذلك واستدراك ما فات منه في حالة العبودية سوي تعلم

علوم الغرب وتقليد حضارة الغرب ، أصاب سيرتهم وسلوكهم تغيير آخر لم يكن في حقيقة الامر تغييراً فحسب بل كان انقلابا . فان التغيير معناه تبدل الشيء ولكن « الانقلاب» معناه التقلب والانكباب . فالمسلمون انقلبوا حقا في تقلبهم هذه المرة إلى حد ان انقلبت عقليتهم وانقلبت نظرياتهم وتحول اتجاههم من الاسلام إلى الطريقة الافرنجية التي تقف في الجهة المعاكسة للاسلام .

فلما ابتدأ هذا الانقلاب جعل ذلك الخجل والتندم الذي كان يشعر به المسلم عند عصيانه للقوانين الاسلامية يزول ويتلاشى . وعاد المسلمون لا يحسون أبداً أنهم بتجاوز حدود الشرع يرتكبون إثما أو خطيئة . وحل محل الندامة والخجل على مرور الايام التجرء والوقاحة . فغدوا يرتكبون كل نوع من عصيان القانون علناً ويفتخرون به بدل أن يندموا عليه . ولكن تيار الانقلاب هذا لم يقف عند هذا الحد ، وانما الذي أصبح يسمع ويشاهد اليوم في مجالس المسلمين المتفرنجين المستغربين يتخطى حدود الوقاحة ويشير إلى علامات البغي الصريح على الاسلام . وقد آل الامر اخيراً إلى أن الرجل الذي يخالف القانون الاسلامي لايخجل من فعلته بل يخجل من لا يزال الى الآن يتبع ذلك القانون البالي القديم ؟ فكأن المذنب والمجرم الآن ليس من يخرج على القانون الاسلامي بل الذي يلتزمه . وأصبح المسلمون اليوم لايكتفون بان يجتنبوا الصوم والصلاة بل هم يتباهون في ذلك ويشجعون على تركها ، فيسخرون من الذين يصلون ويصومون في هذا العصر المتنور ، ويرجى من المصلين والصائمين ــ خصوصاً إذا كانوا من الطبقة المتعلمة المثقفة ــ

ان يعودوا في يوم من الأيام نادمين على فعلتهم . وصار من الرأي الآن انه ليس اجتناب الصوم والصلاة بل التزامه هو العار الذي يجب ان يستحيى منه . وقد بلغ الامر من ذلك انه ان ظهر عيب او معرة في رجل يلتزم الصلاة فانه يتناوله القوم بالسخرية والطعن ويقولون : لا غرو فان حضرتنا من المصلين . كان السبب في صدور ذلك العيب من الرجل ليس غير العمل الذي قد عده الله عز وجل ناهيا للفحشاء والمنكر وجعله النبي ﷺ أفضل الاعمال كلها .

وليس هذا البغي والخروج عن الدين موقوفاً عند الصلاة والصوم بل قد تجاوزهما إلى جميع شؤون الحياة على التقريب . فالآن يعبر عن التزام الاحكام الإسلامية بـ « الرجعية الدينية » و « الرجعية الدينية » في مصطلح عصرنا الجديد عبارة عن مركب حاد من ضيق النظر وإظلام الفكر والجهالة والسفاهة والنزوع إلى القديم . وبكلمة أخرى إن المسلم الراسخ الاعتقاد المتبع للشريعة اسمه في المصطلح العصري « رجل الدين الرجعي » . و « رجل الدين الرجعي » هو الذي يكون بعيداً عن التهذب والاستنارة الفكرية ولا يكون أهلاً للاندماج في المجتمع المهذب . فهذا لقلب يهون في جنبه كل الشتائم وإذا أراد « أفرنجيونا السود » أن يبيدوا كراهيتهم للذي يتبع الدين فانهم بدل أن يستعملوا لذلك كلمات متعددة يودعون بغضهم ونفرتهم كلها في كلمة واحدة هي « رجل الدين الرجعي » وهي جماع كل عيب .

وليس من الحجة الكافية اليوم لتبرير قول أو فعل أنه موافق للقرآن

والسنة ، وإنما يقوم ويرفض سند القرآن والسنة المسلم نفسه ، لا غير المسلم، نعم المسلم الذي قد أصبح لسوء الحظ « مثقفاً مستنيراً »، ثم لا يخجل على ذلك شيئاً بل يرى أنه ينبغي للذي قدم تلك الحجة الدينية أن يخجل ويستحيي . ودع القول في سند القرآن والحديث وحجتيهما ، إنما شاهدنا أن امرءاً ما إذا عرض على تلك « الطبقة المثقفة المستنيرة » باسم الاسلام فانه تمجه نفوسهم وينشأ فيها تعصب شديد عليه ، لكنه إذا عارض نفس الأمر باستدلال عقلي أو باقتباس من كاتب غربي فانهم يصيحون : آمنا وصدقنا . فاسم الاسلام يلقي في أذهان « المسلمين المتفرنجين » منا أنواعاً من الشكوك ويحملهم على الظن أنه إذا اقترن أمر بالاسلام فلا بد أن يكون فيه ضعف أو مغمز . وكأن سند القرآن والحديث الآن لا يقوي لهم أمراً في أعينهم بل هو يجعله ضعيفاً مفتقراً إلى الحجة والبرهان .

وكانت هذه الآفة قبل سنوات منتشرة في رجالنا وحدهم ، وكانت نساؤنا بمأمن منها . وإنا نستطيع أن نقول بالنسبة للحضارة الاسلامية على الأقل أن الحريم(١) هو الملجأ الأخير الذي يدافع الاسلام فيه عن مدنيته وحضارته . ولا ريب أن من المصالح الكبرى التي جعل الاسلام المرأة من أجلها من وراء الحجاب أن يتطهر على الأقـــل ذلك الصدر الذي يتغذى بلبانه الطفل المسلم ، فيبقى مشرقاً بنور الاسـلام وأن يحفظ على الأقل ذلك الحجر الذي يتربى فيه الطفل المسلم من تأثير الكفر والضلال وفساد الأخلاق والأعمال ، وأن يقام حول ذلك المهد الذي يجتاز فيه

---

(١) حريم الرجل : ما يدافع عنه ويحميه ، ومنه سميت نساء الرجل بالحريم .

الجيل المسلم منازل حياته البدائية جو إسلامي خالص ، وأن تحرس من فعل المؤثرات الخارجية تلك الحدود البيتية – على الأقل – التي ترتسم فيها على ذهن الطفل وقلبه الصافي أولى نقوش التعليم والتربية والمشاهدة. « فالحريم البيتي » إذن هو أحكم وأمنع قلعة للحضارة الاسلامية ، بنيت في الحقيقة لأجل أن تلجأ إليها هذه الحضارة متى انهزمت ونكصت من الميدان الخارجي . ولكن الأسف أن هذه القلعة أيضاً قد بدت فيها أعراض الخراب . وأصبحت آفة « الطريقة الافرنجية » تدخل في البيوت أيضاً . وذلك أنه عاد متروفا المتفرنجون يجرون النساء أيضاً معهم إلى مزدحم الحياة لكي يتسممن بذلك السموم الذي قد سرى قبل ذلك في الرجال . وها هن بنات أمتنا ترسل الآن إلى معاهد التعليم الغربي لكي يتلقين فيها دروس الضلال وسوء الاعتقاد وفساد الأخلاق والحضارة الافرنجية ، كما أرسل إليها أبناؤنا من قبل ، فتلقوا منها كل ذلك وجاؤوا خارجين على الاسلام .

وهذه الخطوة الأخيرة سوف تكون – في رأينا – مكملة لذلك الانقلاب الذي قد أشرنا إليه آنفاً . وليس هذا من ظننا وقياسنا فحسب، بل قد شاهدنا إمارات تكميل هذا الانقلاب بعينينا هاتين وسمعنا عنها باذنينا هاتين .وقد آل الأمر إلى أن المرأة المسلمة تخرج من بيتها سافرة متبرجة جاعلة أحكام القرآن والسنة الصريحة وراء ظهرها ، فتتناول الغداء والعشاء في الفنادق الاوربية وتجلس في صف الرجال في قاعة السينما وتمشي في الأسواق من محل إلى آخر وتبيع وتشتري . وآفة الآفات أنها تأتي كل هذه الأعمال خلافاً للشرع الاسلامي ولا تندم أو تستحي عليه

بل تذكر أعمالها هذه بكل فخر وسرور وتوجه الملام إلى تلك العفيفة التي أبت أول الأمر أن تترك الحجاب الشرعي اتباعاً للقانون الاسلامي، ولما نزعها زوجها إلى الخارج بالعنف فانها استحيت من التفرج بين ظهراني الرجال ولم ترض أن تطوف في الأسواق وتحضر حفلات العشاء والرقص في فنادق (تاج) و (جرين) وتتنزه في المصايف والشواطىء لم ترض ذلك ولم تؤثره على الأشغال البيتية الرتيبة التي كلفها بها الله ورسوله. ومعنى ذلك أن روح الخروج على الاسلام قد جاوزت الرجال إلى النساء أيضاً وهن أيضاً أصبحن يعتبرن اتباع القوانين الاسلامية - لاعصيانها - شيئاً تندم عليه المرأة المسلمة وتخجل. فانا لله وإنا إليه راجعون. وإنا نتساءل: إن كنتم أنتم الذين تربيتم في حجور الامهات العابدات الصالحات قد انحدرتم إلى هذا كله فماذا يكون إذا افتقدت نساؤكم أيضاً الغيرة الايمانية وتخطين حدود الاطاعة لله والرسول، وماذا تكون حال الأجيال التي ستنشأ في حجور أولئك الآنسات المتفرنجات الجديدات؟ وقل لي بالله إن الأولاد الذين سيرون أول ما يفتحون أعينهم آثار الحياة الافرنجية فيما حولهم ولن تقع عيونهم البريئة على مظهر من مظاهر الحضارة والتمدن الاسلامي. ولن تقرع مسامعهم كلمات الله والرسول ولن ترتسم على ألواح ذهنهم وقلبهم الصافية إلا نقوش الطريقة الافرنجية منذ أول يوم هل يمكن أن يرجى منهم أن يكونوا مسلمين في عواطفهم وأفكارهم وأخلاقهم وأعمالهم أو في أي شيء آخر!.

إن المرحلة الأولى لجريمة ما هي أن يرتكبها الانسان ولكن يعتبرها

جريمة ويندم عليها . مثل هذه الجريمة انما تستحق العقاب بحسب نوعيتها ودرجتها فحسب ، بل هي قد تغفر لمرتكبها إذا تاب الى الله ونـدم على ما فعل ، لأن مثل هذه الجريمة تعتبر من مظاهر ضعف الانسان .

والمرحلة الثانية للجريمة هي أن يتولى كبرها الانسان ثم يعد فعله هذا حسنة « لا سيئة » ، فيعلن به بكل فخر . ومعنى هذا ان الرجل ليس في قلبه احترام لذلك القانون الذي قد قرر ذلك الفعل جريمة .

والمرحلة الاخيرة النهائية للجريمة هي ان لا يكتفي الانسان بان يرتكب ما يخالف قانونا من القوانين، بل يعتقد جريمته تلك جائزة وعملاً مستحسناً باعتبار قانون آخر يخالف ذلك القانون ، ويستهزىء بالقانون الذي يقرر فعلته تلك جريمة، ويخطىء متبعيه . مثل هذا الرجل لا يعصي القانون فحسب بل هو يهينه ويرتكب البغي عليه .

كل من أوتي حظاً من العقل السليم لا بد أن يسلم بأن الانسان إذا وصل إلى هذه المرحلة النهائية فانه لا يمكن أن يبقى في حدود القانون الذي قد بغى عليه علنـاً . ولكن ما أخبث الشيطان الذي يقنعكم بأنه يمكن أن تظلوا مسلمين مع إهانتكم للاسلام وتهكمكم به وتعييركم لاتباعه وتصويبكم لعصيانه . فبجانب ها أنتم أولاء تستقبحون ما يستحسنه الله والرسول وتستحسنون ما يستقبحانه ، وتعدون صواباً ما يجعلانه إثمـاً وتعدون ذنباً ما يجعلانه ثواباً،وتسخرون بما يأمران به وتعصون ما يضمان من قانون ، ثم لا تخجلون عليـه بل تخجلون ـ على العكس ـ ممن يتبع ذلك القانون ، وبجانب هـذا ادعاؤكم أنكم تؤمنون بالله والرسول

وتعمر قلوبكم عظمتها وتتبعون الدين الذي يرتضيانـه - أي الاسلام - .
فهل يمكن لذي عقل أن يقبل أن هذا الادعاء الفارغ مع ذلك العمل أمر يصح ويجوز. ولئن كان من الممكن أن يجتمع الانكار بالايمان والاهانة بالتعظيم ، وإن كان من الممكن أن يحترم المرء أحداً ويستهزىء بـه في الوقت نفسه. وإن كان مما يتصور أن المرء الذي يفتخر بالمخالفة ويعد الاتباع حقيقاً باللائمـــة يكون متبعاً ومطيعاً قانتاً ، فانه لا بد أن يذعن بأن البغي هو الاطاعة عينها وأن الاهانة هي التعظيم نفسه وان الانكار هو الايمـان في الواقع ، وان الذي يحقرك ويركلك برجله هو في الحق يعظمـك ويكرمك وان الذي يسخر منك هو الذي يحترمك وان الذي يفندك ويدعوك كاذباً هو الذي يصدقك !

إلا أن الاسلام ليس بشيء غـير الاطاعة . ولا تتحقق الاطاعة الحقيقية بغير الايمان،وأولى مقتضيات الايمان أنه إذا بلغ المرء أمر من أوامر الله والرسول خضع له خضوعاً ولم يسعه أن يرفع رأسه بازائه .(إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكمَ بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون)[1] . ثم ان هذا الخضوع يجب أن يكون عن طوع ورضى ، لا عن كراهية ، حتى ولا يجد المرء في قلبه من حرج أو سخط على ما يأمر به الله والرسول . ومن تظاهر بالخضوع والتسليم ووجد في نفسه حرجاً من كل هـــذا فانه ليس بمؤمن ، بل في زمرة المنافقين . (وإذا قيل لهمْ تعالَوْا إلى ما أنزلَ اللهُ وإلى الرسولِ رأيت

(١) النور :آية - ٥١ .

المنافقين يصدُّون عنك صدوداً)[1]. (فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شَجرَ بينهمْ ثم لا يجدوا في أنفسِهمْ حَرَجاً مما قضيتَ ويسلّموا تسليما)[2].

ولكنه من رفض اتباع الامر علانية وهجر شريعة الله والرسول ليتبع القوانين الاخرى واعتقدها صحيحة وحقاً ، وبجانب اتباعه لتلك القوانين سخر من شريعة الله والرسول وقبح إطاعتها والتزامها فانه لا يمكن أن يكون مؤمناً وإن كان يدعو نفسه مسلماً بلسانه ويتسمى باسم من أسماء المسلمين وكان اسمه مقيداً في ثبت المسلمين في سجل الاحصاء. وذلك أن المرء يمكن أن يبقى مؤمناً مع ارتكابه لمعصية ولكن بشرط أن يعتبر معصيته معصية ويندم عليها ويسلم بذلك القانون الذي قد ارتكب عصيانه لضعف كامن في فطرته . ولكنه إذا كانت مع المعصية الوقاحة واللجاج وكان المرء يتباهى بها ويستحسنها ويلوم من يحجم عنها ، فان هذه المعصية لعمر الله لا يمكن أن يبقى بعدها الايمان أبداً ، وعلى المرء قبل أن يدخل في هذه المرحلة أن يقضي ويقطع : هل أنه يريد أن يبقى في دائرة الإسلام أو يجب أن يغادرها ويدخل في إطاعة القانون الذي قد انشرح صدره لاطاعته !

ومن فضل الله على هذه الامة أن عامة المسلمين بمأمن بعدُ من هذا التيار العنيف للطريقة الافرنجية والثورة الالحادية. فلا تزال قلوبهم عامرة

---

(١) النساء آية ـ ٦١ .
(٢) النساء آية ـ ٦٥ .

باحترام الله والرسول وهم الذين يوجد فيهم اتباع القوانين الاسلامية كثيراً أو قليلا . ولكن سلوك الخاصة كما أثر من قبل في أخلاق هؤلاء وشؤونهم ، كذلك يخشى أن يصيب سلوكهم هذا الجديد ايمان هؤلاء الضعاف بتأثيره المهلك. وان السرعة التي يزداد بها ميل العامة المسلمين إلى ترك الصوم والصلاة واقتراف المنكر والمنهي وتقليد الطرق الأفرنجية والتفرج بالالعاب والمعارض المسرحية والسينمائية التي تعرض الحضارة الأفرنجية بمظهر خلاب ، هي في الحق منبهة على الخطر المخشي الآتي .
ولئن لم يقوم عوج مترفينا في الفكر والرأي وبقي عدولهم عن صراط الاسلام المستقيم على ما هو عليه الآن ، فانه لا يبعد اليوم الذى تبتلى جميع الامة فيه بهذا الضلال وتتحقق سنة الله التي أشار إليها القرآن بقوله : (وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمرناها تدميراً !)

الفساد الاجتماعي

من القواعد الكلية التي أثبتها القرآن أن الله تعالى ليس بظالم ، حتى يهلك أمة بلا سبب وهي تعمل صالحاً (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)[1] وليس المراد بهذا الاهلاك والتدمير أن تقلب طبقات البلاد ويورد العمران الانساني حياض الموت فحسب ، بل من صور الافناء والتدمير أيضاً أن يشتت أمر الامم وتكثر قوتهم الاجتماعية وتضرب عليهم الذلة والعبودية والخزي. وبحسب هذه القاعدة القرآنية لا يصيب أمة ما أي نوع من أنواع الدمار والخراب إلا اذا تركت منهج الخير والصلاح وأخذت تسلك مناهج الشر والفساد والعتو والعصيان ، وبذلك ظلمت نفسها بنفسها . وان الله تعالى حيث ما ذكر في كتابه أمة أصيبت بعذاب وهلاك قد ذكر بجانب ذلك جريمتها أيضاً إثباتاً لتلك القاعدة ، حتى يتبين للناس أن وبال أعمالهم السيئة هو الذي يفسد دنياهم وآخرتهم (فكلاً أخذنا بذنبه.....وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)[2] .

والأمر الآخر الذي يستخرج من هذه القاعدة هو أنه لا يكون

---

(١) هود – آية ١١٧ .

(٢) العنكبوت – آية ٤٠ .

باعث الهلاك والدمار هو الفساد الفردي بل هو الشر والفساد الاجتماعي القومي . ومعنى ذلك أنه إن كانت المفاسد الاعتقادية والعملية إنما توجد متفرقة في الافراد وكان مستوى الأمـة الديني والخلقي رفيعاً من حيث المجموع بحيث يحجب مساوىء الافراد، فمهما يكن من فساد سيرة الافراد على حدة تظل الامة من حيث المجموع محتفظة بكيانها ولا تحل بها فتنة عامة تجر عليها الهلاك بأكلها . ولكنه متى جاءت المفاسد الاعتقادية والعملية تجاوز الافراد إلى الأمة بأسرها وتخدر شعور الأمة الديني والاخلاقي إلى حد أنها أصبحت صالحة لأن يزكو فيها الشر والفساد بدل الخير والصلاح فان العناية الإلـهية عندئذ تنصرف عن هذه الأمة، وتأخذ هذه بالهبوط من علياء العز إلى درك الهوان ، حتى تحين الساعة التي يهيج فيها غضب الله عليها فيدمرها تدميراً .

وقد جاء في القرآن الكريم كثير من أمثلة هذه الامم .

فتلك أمة نوح عليه السلام قد أهلكت حين تأصلت فيها مفاسد الاعتقاد والعمل وجعلت تنمو وتنتشر في المجتمع كله ولم يبق من أمل في أن شجرتها الخبيثة ستنتج ثمراً صالحاً أبداً . فاضطر نوح ـ عليه السلام ـ إلى أن ينادي ربه : (رَبِّ لا تذَرْ على الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً. إنك إن تَذَرْهم يُضِلوا عِبادَك ولا يَلِدوا إلا فاجراً كفّاراً)[1] .

وتلك عاد أهلكوا حينما بلغ الشر والفساد من نفوسهم بحيث أصبح المفسدون الظالمون الأشرار زعماءهم وحكامهم . ولم يبق لأهـل الخير

---

(١) نوح ـ آية ٢٦ .

والصلاح من متسع في نظامهم الاجتماعي (وتلكَ عادٌ جَحَدوا بآياتِ رَبِّهم وعصوا رُسُلَه ، واتّبعوا أمْرَ كلِّ جبّارٍ عَنيدٍ)[1] .

وأمة لوط ـ عليه السلام ـ قد أخذها الله بعذابه عندما بلغ من تبلد حسهم الخلقي ووقاحتهم ونذالتهم ان عادوا يرتكبون الفواحش علانية في المجالس والأسواق . ولم يبق فيهم شعور بكون الفواحش فواحش (أإنَّكم لتأتُون الرِّجالَ وتَقْطعون السَّبيلَ وتأتُون في ناديكُمُ المُنْكر)[2] .

وأهل مدين ذاقوا عذاب الله عندما أصبحت الأمة كلها خائنة غاشة سيئة المعاملة. ولم يبق التطفيف في الوزن والكيل وأخذ الزائد على الحق شيئاً معيباً عندهم. ومات الحس الخلقي فيهم إلى حد أنهم متى عذلوا على ذلك لم يطرقوا حياء وندامة بل أقبلوا على العاذل نفسه يلومونه ، ولم يشعروا أن فيهم عيباً يستحق الملام . وكانوا لا يستقبحون الفواحش، بل يحطئون من يندد بها ويعتبرونه حقيقاً بالطعن والملام (ويا قوْمِ أوْفوا الكَيْلَ والمِيزانَ بالقِسْطِ ولا تَبْخَسوا الناسَ أشياءَهُم ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسِدِين ..... قالوا يا شُعَيْب ما نَفْقَهُ كثيراً مِمّا تَقول وإنّا لَنَراك فينا ضَعيفاً ولولا رَهْطُك لرَجَمْناك)[3] .

وأما بنو إسرائيل فقد قضي بضرب الذلة والمسكنة عليهم وابتلائهم

---

(١) هود ـ آية ٥٩ .
(٢) العنكبوت ـ آية ٢٩ .
(٣) هود ـ آية ٨٥ .

بغضب الله ولعنته حينما جعلوا يندفعون إلى العمل السيء والعدوان وأكل الحرام ، وأصيب زعماؤهم وهداتهم بمرض الأثرة والجري وراء المصالح الذاتية ، يسامحون الخطايا والذنوب وليس فيهم رجال يدعون العيب عيباً وينهون عنه (وتَرى كَثيراً مِنهم يُسارعون في الإثم والعُدوان وأكلِهم السُّحت ، لَبِئسَ ما كانوا يَعمَلون . لولا يَنهاهم الرَّبانِيُّون والأحبار عن قَولهم الإثم وأكلِهم السُّحت، لبئس ما كانوا يصنعون)[1].

(لُعِنَ الذينَ كَفَروا مِنْ بَني إسْرائيلَ على لِسانِ داوود وعيسى ابْنِ مَرْيَم . ذلِكَ بما عصَوا وكانوا يَعتَدون . كانوا لا يَتَناهَوْنَ عنْ مُنْكرٍ فَعَلوهُ)[2] .

والأحاديث التي أثرت عن النبي ﷺ في تفسير هذه الآية الأخيرة توضح مطالب القرآن الكريم إيضاحاً مزيداً ، وخلاصة تلك الآثار جميعاً أن النبي ﷺ أخبر أنه : لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي كان الرجل منهم يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض. ثم قال: (لُعِنَ الذينَ كفروا من بني إسرائيل على لِسان داود وعيسى بن مريم .... الخ) . قالوا وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال : « لا والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذنَّ يد المسيء ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعننكم كما لعنهم » .

---

(١) المائدة ـ آية ٦٣ .

(٢) المائدة ـ آية ٧٩ .

إن فساد الاعتقاد والعمل مثله كمثل الاوبئة . فان مرضاً وبيئاً من هذه الأمراض يصيب أولاً بعض الأفراد الضعاف. فان كان المناخ جيداً والتدابير المتخذة للرعاية الصحية محكمة وكان هناك نظام مضطرد معمول به لازالة الأقذار والانجاس وعولج المصابون الأولون بدون تأخير ، فان هذا المرض لا يتحول إلى وباء عام ، ويسلم منه عامة الناس . ولكنه إن كان الأطباء غافلين وكان قسم الرعاية الصحية غير مهتم بواجبه ، والمسؤولون عن التنظيف قد أصبحوا يحتملون وجود النجس والقذر ، فان جراثيم المرض تنتشر في الجو رويداً رويداً ويبلغ من سوء تأثيرها في المناخ العام أنه يعود صالحاً لفشو المرض بدل الصحة . حتى إذا لم يجد عامة أفراد البلد أىشيء من الهواء والماء والطعام والسكنى واللباس سالماً من أثر النجس والسمية فان قوة حياتهم تبدأ تخونهم ويصاب السكان جميعاً بالوباء العام ، فحينئذ لا يستطيع حتى أقوى الافراد وأصحهم أن يدفعوا عن أنفسهم غائلة المرض ، بل المرض يعم حتى الأطباء المعالجين أنفسهم ومن معهم من القائمين على التنظيف والرعاية الصحية ، ولا ينجو من الهلاك حتى أولئك الذين يتخذون بالنسبة لأنفسهم جميع التدابير الصحية ويستعملون الأدوية والعقاقير ، لأن تسمم الهواء وتغير الماء واتساخ الأرض وفساد وسائل الغذاء ليس مما ينفع في وجهه أي علاج أو تدبير وقائي .

وقس على هذا كله فساد الأخلاق والأعمال وضلالات الاعتقاد . فالعلماء هم أطباء الامة . والحكام ورجال الدولة هم القائمون على التنظيف

والرعاية الصحية . والغيرة الايمانية للأمة والحاسة الخلقية للمجتمع هي بمثابة قوة الحياة (Vitality) . والبيئة الاجتماعيـة تقوم مقام الهواء والماء والطعام والسكنى واللباس . ومنزلة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحياة القومية باعتبار الدين والخلق كمنزلة عمل التنظيف والتدابير الصحية باعتبار الصحة الجسدية . فمتى ترك العلماء وأولو الامر واجبهم الحقيقي وهو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وعادوا يحتملون وجود الشر والفساد ، فان الضلال والانحلال الخلقي يأخذ في الانتشار بين أفراد الامة وتجعل الغيرة الايمانية فيهم تضمحل وتتلاشى حتى تفسد البيئة الاجتماعية كلها ويصبح جو الحياة صالحاً للفساد وغير صالح للخير والصلاح ، فيفر الناس من الحسنات ، وينجذبون إلى السيئات بدل ان ينفروا منها ، وتنقلب القيم الاخلاقية رأسا على عقب . فتعود المعايب محاسن والمحاسن معايب . وعندئذ تنمو الضلالة والمفاسد الخلقية ،ولا يبقى هناك من بذرة للخير تصلح للنمو والنبات ، اذ يأبي كل من الارض والماء والهواء أن يغذيها وينشئها لكون هذه كلها منصرفة بجميع قواها إلى تغذية الشجرة الخبيثة وتنميتها . فاذا وصلت أمة من الامم إلى هذا الحال فانها تستحق العذاب الالهي ويحل بها من النكبة الشاملة ما لا يسلم منه أحد وإن كان يعبد ليل نهار في الزوايا والخلوات .

وفي هذا قال الله عز وجل في القرآن :(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُم خَاصَّةً)[١] . وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية أن المراد بقوله تعالى أن لا تقروا المنكرين ظهرانيكم فيعمكم الله بالعذاب. وقد فسر النبي صلى الله عليه

(١) الأنفال : ٢٥

وسلم هذه الآية بقوله : إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلاينكروه . فاذافعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة .

إن أنجع الأسباب للمحافظة على صحة الامة الخلقية والدينية هو أن توجد في كل فرد من أفرادها الغيرة الايمانية والحاسة الخلقية التي قد عبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة « الحياء » الجامعة . ان الحياء في الحقيقة جزء من الايمان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الحياء من الايمان » . بل سأله سائل في مناسبة أخرى: هل الحياء جزء من أجزاء الايمان ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم :« بل هو الدين كله » .

والمراد بالحياء أن تشعر نفس المرء بانقباض فطري من السيئة والمعصية فيكرهها قلبه . فالذي كان على هذه الصفة فإنه لا يجتنب القبائح بنفسه فحسب ، بل لا يصبر على رؤيتها في غيره أيضاً ، فهو لا يستطيع أن يرى السيئات ترتكب أمامه ولا يمكنه أن يهادن المعصية والظلم . واذا ارتكبت السيئة أمامه هاجت فيه الغيرة الدينية وهب ليمنع عنها ويمحوها بيده أو بلسانه ، أو تململ على الأقل في نفسه حرصاً على محوها . وفي ذلك جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » .

فالامة التي تتصف بهذه الصفة على العموم ، يسلم دينها من الآفات ولا يهبط مستواها الخلقي لأن كل فرد من أفرادها يكون محاسباً

ورقيباً للآخر ، ولا يجد فساد العقيدة والعمل منفذاً للدخول في كيان الامة .

إن غاية القرآن الكريم في الحقيقة هي ايجاد مجتمع مثالي كهذا يقوم كل واحد من أفراده بواجب الرقابة والاحتساب بميلانه الطبيعي وغيرته الفطرية وحافزه القلبي ، ويكون في مجتمعه محتسباً ربانياً بدون أن يأخذ على عمله ذلك أجرة (وكذلِكَ جَعلْناكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شُهَداءَ على النّاس ويكونَ الرسولُ عليكم شَهيداً)[1].

لأجل ذلك يبين المسلمين مرة بعد أخرى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو خصيصتهم القومية التي يجب أن تتحقق في كل رجل منهم وامرأة .

(كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجت للناس تأمُرون بالمَعْروف وتَنْهَوْنَ عن الْمنكَرِ وتُؤمِنون بالله)[2] .

(والْمُؤمِنون والمؤمِناتُ بَعضُهم أَوْلِياءُ بَعْض يَأمُرون بالمعروف ويَنْهَون عن الْمنكَر)[3] .

(الآمِرون بالمعروف والنّاهون عن المنكَر والحافِظون لِحُدود الله)[4] .

---

(١) البقرة ـ آية ١٤٣ .
(٢) آل عمران ـ آيه ١١٠ .
(٣) التوبة ـ آية ٧١ .
(٤) التوبة ـ آية ١١٢ .

(الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر)[1] .

فان كان المسلمون على ما تدعو إليه هذه الآيات كان مثلهم كمثل البلدة التي يكون كل واحد من سكانها ذا إحساس وشعور بالنظافة والرعاية الصحية ، فهو لا يطهر جسمه وبيته فحسب ، بل يزيح النجس والقذر أينما وجده فيما حوله ، ولا يصبر على رؤية أثر من آثار النجس في أي مكان . فمن الظاهر أن مثل هذه البلدة يبقى هواؤها صافياً نظيفاً ولا تنمو فيها جراثيم الامراض . ولئن كان بين سكانها رجل مريض أو ضعيف على الوجه النادر الشاذ عولج للحال أو كان مرضه على الاقل مرضاً شخصياً لا يتعداه إلى الآخرين ويتخذ صورة الوباء العام .

ولكنه إن لم تتمكن الأمة المسلمة كلها من البقاء بهذه الدرجة السامية فلا أقل من أن تكون منها طائفة تكون في كل حين مستعدة لتعهد صحة المجتمع الدينية والخلقية ، وتظل تعمل دائماً لإزالة درن الاعتقاد ونجس الأخلاق والأعمال . (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)[2] .

والمراد بهذه الأمة هو جماعة العلماء وأولي الأمر التي يجب أن تكون منهمكة أبداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يجب أن يكون قسم التنظيف والرعاية الصحية في البلدة مستعداً أبداً للقيام بواجباته . فان

---

(١) الحج ـ آية ٤١ .
(٢) آل عمران آية ـ ١٠٤ .

أغفل العلماء وأولو الأمر واجبهم هذا ولم يبق في الأمة جماعة واحدة تدعو إلى الخير والصلاح وتصد عن المنكرات ، فان هلاك تلك الأمة من ناحية الدين والأخلاق أمر محتوم ، كهلاك البلدة التي لا تتخذ فيها تدابير التنظيف والرعاية الصحية . وان الآفات والنكبات التي نزلت بالامم السالفة إنما نزلت لأنها لم تبق من بينهم طائفة واحدة تنهاهم عن المفاسد وتسعى لإصلاحهم وإبقائهم على الخير والصلاح . (فلولا كان مِن القرون مِن قَبلكم أولو بَقيّةٍ يَنهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجَينا منهم)[1] . (لولا ينهاهم الرّبانيّون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السّحت)[2] .

لأجل ذلك إن واجب العلماء والمشايخ وأولي الأمر من كل أمة هو أكبر الواجبات والتبعات . وذلك أنهم ليسوا مسؤولين عن أعمالهم أنفسهم فحسب ، بل تقع عليهم أيضاً إلى حد كبير تبعة أعمال الامة بكاملها . ولا نقول شيئاً في أمر الظالمين الماجنين ومن يتملقهم من العلماء والمشايخ لان الله سيصنع بهم يوم الحساب ما يصنع ، وانما الحق انه لن ينجو من هذه المسؤولية عند الله أولئك الأمراء والعلماء والمشايخ الذين هم قابعون في قصورهم وبيوتهم وزواياهم يزاولون التقوى والزهد ويشتغلون في العبادة والرياضة . وذلك انه اذا كانت أمتهم قد أحاط بها من كل جانب طوفان من الضلال والانحلال الخلقي فإنه ليس من شأنهم أن يجلسوا في زواياهم خاشعين منهمكين في العبادة بل من واجبهم أن

---

(1) هود ــ آية ١١٦ .
(2) المائدة ــ آية ٦٣ .

ينبروا كالمناضلين ويستخدموا كل ما آتاهم الله من القوة والنفوذ في مقاومة هذا الطوفان . وانه لا شك أن المسؤولية في دفع هذا الطوفان وصد تياره ليست عليهم ، ولكنهم مسؤولون ولا شك عن أن يبذلوا أقصى وسعهم وإمكانياتهم في مقاومته . واذا هم قصروا في القيام بهذه المسؤولية فلن تبرئهم عبادتهم ورياضتهم وتقوام الشخصية من مسؤوليتهم يوم الفصل . وأنت لن تعفي من المسؤولية موظف التنظيف والرعاية الصحية الذي اذا انتشر الوباء في البلدة وراح ضحيته آلاف من الناس ، انقبع في بيته ولم يفكر الا في إنقاذ نفسه وأهله وعياله من أثر الوباء . فهذا إن فعله عامة سكان البلدة لم يلاموا عليه كثيراً . ولكنه ان فعل مثل هذا الفعال الموظف المسؤول عن التنظيف والرعاية الصحية فانه لا يبقى هناك من شك في كونه مجرماً عظيماً .

الإيمان والإطاعة

إن التنظيم الاجتماعي مهما كان نوعه ومهما كانت أغراضه وأهدافه يفتقر أبداً لقيامه وثباته ولنجاحه وتوفيقه إلى أمرين اثنين : أولهما أن تكون المبادئ التي شكلت عليها الجماعة راسخة في نفوس الجماعة كلها وفي ذهن كل فرد من أفرادها، ويكون كل فرد من الجماعة حريصاً عليها ومؤثراً لها على كل شيء آخر. والآخر أن تتأصل في الجماعة ملكة الطاعة والسمع فتطيع الجماعة من انتخبته أميراً عليها وتتبع أحكامه وتلتزم ما يقرره لها من قانون أو ضابطة ولا تتعداه أبداً . فهذان شرطان لا بد منها لنجاح كل نظام. وكل نظام سواء أكان عسكرياً أو سياسياً أو عمرانيا أو دينيا لا يمكن أن يقوم بدون هذين الشرطين ولا ان يبقى ويستمر، ولا أن يبلغ غايته بدونهما .

خذ تاريخ العالم كله وسرح النظر فيه من أوله إلى الآخر ان تجد مثالاً واحداً لحركة نجحت ـ أو تمكنت على الأقل من أن تبقى سائرة في طريقها ـ مع أتباع من ذوي الجبن والنفاق يعصون أمر القائد ولا حاجة لذلك إلى الخوض في صفحات التاريخ بل انظر إلى ماحولك من الدنيا، فماذا يكون من رأيك في جيش لا يكون موالياً لدولته ولا مطيعاً لقائده ، ويأبى رجاله اتباع الضوابط العسكرية . فاذا ضرب الناقوس للخروج إلى العرض العسكري لم يتحرك جندي واحد من مكانه . وإذا

أصدر القائد أمراً لقي من الجنود آذاناً صماء . فهل لك أن تدعو هذا الجمع المختلط من الجنود « جيشاً »؟ وهل لك أن ترجو من هذا الحشد الذي لاقائد له ولا طاعة فيه انه سيظفر في معركة ؟ وماذا تقول في دولة لا يبقى عند رعاياها احترام للقانون ، فتعصي قوانينها علانية ولا يبقى في أقسامها وشعبها من ضبط أو نظام ، ويترك عمالها العمل بما يأمر به ذو السلطة العليا فوقهم ؟ هل لك أن تقول انه يمكن أن تقوم دولة في هذه الدنيا بمثل أولئك الرعايا وهؤلاء العمال ؟ وامامك اليوم مثالاً من دولتي المانيا وايطاليا وان القوة الجبارة التي اكتسبها هتلر وموسوليني قداعترف بها اليوم العالم كله . ولكن هل تعلم ما هي أسباب هذه القوة ؟ إن أسبابها هي الأمران اللذان قد سبق ذكرهما : أي الإيمان وإطاعة الأمر . ولم تكن الجماعة النازية والفاشية لتكتسب مثل هذه القوة والنجاح ، لولا أنها تؤمن بمبادئها هذا الايمان الراسخ وتطيع قادتها تلك الاطاعة المحكمة الشديدة .

هذه الفائدة الكلية لا استثناء فيها . وذلك أن الايمان والاطاعة في الحقيقة روح التنظيم. فبقدر ما كان الايمان راسخاً و كانت الاطاعة كاملة كان التنظيم أقوى وأمتن وأنجح في بلوغ مراميه . وبخلاف ذلك كلما ضعف الإيمان ونقصت الاطاعة كان التنظيم أضعف بحسب ذلك وأفشل في بلوغ مراميه. وانه لمن غير الممكن أبداً أن تنتشر في جماعة ما أمراض النفاق وسوء الاعتقاد والشرود الفكري والعتو والعصيان وعدم الالتزام، ثم يبقى فيها النظام وتوجد سائرة نحو الرقي في أية شعبة من شعب الحياة . فهاتان الحالتان متناقضتان ، ولم تجتمعا قط مذ كانت الدنيا . ولئن كان

قانون الفطرة أمراً محتوماً لا يرد ، فان هذه الجزئية منه ـ وهي أن هاتين الحالتين لا توجدان معاً ـ أيضاً أمر محتوم لا يرد .

ثم انظر في حالة الأمة التي تدعى مسلمة . فأي لون من ألوان النفاق وسوء الاعتقاد هو الذي يمكن أن يتصور وهو ليس بموجود في المسلمين؟ إن نظام الجماعة الإسلامية قد انخرط فيه حتى أولئك الذين هم يجهلون أبسط تعاليم الإسلام ويستمسكون إلى الآن بعقائد الجاهلية. وقد انخرط فيه أيضاً أولئك الذين يشكون في مبادىء الإسلام الأساسية وينشرون شبهاتهم هذه بين الناس ويدعون إليها علناً . كما انخرط فيه قوم يعلنون بكفرهم وإنكارهم بلا تحرج ، وقوم آخرون يتهكمون بالعقائد والشعائر الإسلامية على رؤوس الاشهاد . وفي سلك الجماعة المسلمة أيضاً أولئك الذين يظهرون علانية نفرتهم من الدين والطريقة الدينية ، وأولئك الذين يؤثرون الأفكار والآراء المستقاة من الأجانب على تعاليم القرآن والسنة وأولئك الذين يقدمون على شريعة الله والرسول قوانين أهل الكفر وتقاليد الحياة الجاهلية ، وأولئك الذين يستخفون بشعائر الإسلام ترضيا لأعداء الله والرسول ، وأولئك الذين يقدمون على أن يضروا الإسلام أكبر ما يكون من الضرر لأجل مصلحة من مصالحهم الشخصية الصغرى. كما في سلكها أولئك الذين يمالئون الكفار على الإسلام ويخدمونهم بخلاف المقاصد الإسلامية ، ويثبتون بعملهم أنهم لا يحبون الإسلام حتى بقدر أن يتحملوا لأجله خسارة مهما تفهت . وما عدا الفئة القليلة من المسلمين الراسخين في الإيمان الاصحاء العقيدة تشتمل الأكثرية الساحقة من هذه الأمة على أمثال هؤلاء المنافقين ذوي العقيدة الفاسدة .

هذا من جهة الإيمان . ولنستعرض الآن حالة السمع والطاعة . إنك إن ذهبت إلى بلدة عامرة بالمسلمين رأيت العجب العاجب منه . ينادي المؤذن للصلاة ولكن كثيراً من المسلمين لا يحسون من هو الذي ناداه المؤذن ، ولأي عمل ناداه . ويحين وقت الصلاة وينقضي . ولكنه ليس من بين المسلمين من يذر عمله أو لهوه ولعبه لذكر الله إلا الفئة القليلة جداً . ويأتي شهر رمضان فلا تكاد تحس من بعض بيوت المسلمين أنه شهر الصوم . وكثير من المسلمين يأكلون ويشربون علانية ولا يخجلون من عدم صيامهم ولو قليلاً ، بل هم يخجلون ـ على العكس ـ ممن يصوم من المسلمين إن عرضت المناسبة لذلك . ثم إن الذين يصومون قل منهم من يفعل ذلك مع الشعور التام بالواجب. وإنما منهم من يصوم عملاً بالتقليد الجاري في مجتمع المسلمين . ومنهم من يصوم للفائدة الصحية . ومنهم من يصوم ومع ذلك يقترف كل ما نهى الله ورسوله عنه . أما الزكاة والحج فالعمل بهما والتزامها أقل وأنزر . وكذلك لا يزال ينعدم في المسلمين التمييز بين الحلال والحرام والطيب والخبيث . فأي شيء قد منعه الله والرسول لا يستبيحه المسلمون لأنفسهم وأي حد مما قرره الله والرسول من الحدود لا يتعداه المسلمون ؟ وأي ضابطة قد وضعها الله والرسول لا يلغيها المسلمون . ولئن راجعت إحصاء المسلمين في العالم لوجدتهم مئات الملايين . ولكن انظر كم في المئة منهم ، بل كم في الألف ، بل كم في المئة ألف، هم الذين يتبعون أحكام الله والرسول،ويلتزمون الضوابط الاسلامية .

إن الأمة التي يعم فيها مرض النفاق وضعف الاعتقاد ، والتي يموت

فيها الاحساس بالواجب ويذهب عنها السمع والطاعة والتزام القانون تستحق من المآل السيء ما قد وصل إليه المسلمون ولا يزالون . إن المسلمين اليوم محكومون ومغلوبون في العالم كلـه . وان الاقطار التي هم فيها مستقلون ليسوا متحررين فيها من السيطرة المادية والعقلية والخلقية للأجانب . أما الجهل والفقر والشقاء فهم مضرب المثل في كل ذلك .وان الانحطاط الخلقي قد أبلغهم قرار الذلة والهوان . وان صفات الأمانة والصدق وإيفاء العهد التي كانوا يمتازون بها في العالم سابقاً قد انتقلت منهم إلى غيرهم ، وقد استعاضوا منهـا رذائل الخيانة والكذب والغش وسوء المعاملة ، ولا يزالون يتجردون مع الأيام عن التقوى والعفاف وطهـارة الأخلاق ، ويفقدون الغيرة والحمية شيئاً فشيئاً . ولم يبق فيهم أي وحدة أو تنظيم ، فقلوبهم شتى ولم يعودوا يصلحون للتعامل لأجل مقصود مشترك . وإنهم قد ضيعوا قدرهم بعد ذلك في نظر غيرهم وافتقدوا ثقتهم لدى الامم ولا يزالون يفتقدونها إلى هذا اليوم. ولا تزال قوتهم القومية والاجتماعية تضمحل على مرور الأيام ولا يزال تهذيبهم وثقافتهم القومية تنحو نحو الزوال . وإنهم ليزدادون عجزاً عن الدفاع عن حقوقهم ، والاحتفاظ بعزهم القومي. ومع أن التعليم لا يزال ينتشر فيهم وعدد الحائزين لشهادات البكالوريا والماجستير ، والمتعلمين في بلاد الغرب إلى الزيادة يوماً فيوماً ، وينمو فيهم عدد الساكنين في الفيلات (Villas) والراكبين للسيارات واللابسين للبدلة الاوربية والمدعوين بالاسماء والألقاب الضخمة، والمقربين إلى جناب الحاكم الأعلى ، ولكن الصفات الخلقية العليا التي كانوا متحلين

بها فيما مضى قد تعطلوا منها الآن . ولم يبق لهم شيء مما كانوا عليه فيما مضى من المهابة والقدر الرفيع لدى الأمم المجاورة . وقد ضل عنهم أيضاً ما كانوا يملكون من القوة والنجدة الاجتماعية . وأما ما ينبىء به المستقبل من حالهم فهو أسوأ من هذا كله وأردأ .

كل دين أو حضارة أو نظام اجتماعي يمكن أن يقبل من الانسان تجاهه مذهبان اثنان لا غير : أولهما أنه إذا كان داخلا فيه فعليه أن يؤمن بمبادئه الأساسية إيماناً كاملاً ويتبع قانونه وضابطه كل الاتباع . والآخر أنه إن لم يستطع أن يعمل بذلك فلا يدخل فيه . وإن كان قد دخل بعد فليخرج منه علانية . وليس بين هذين المذهبين صورة معقولة أخرى للعمل . وليس أسخف وأبعد عن المنطقية أن تكون داخلاً في نظام وتعيش بينه كجزء من أجزائه وتدعي كونك متبعاً له ، ثم تنحرف عن مبادئه الأساسية انحرافاً كلياً أو جزئياً فتعصي قانونه وتعفي نفسك من التقيد بضوابطه . إن من النتائج المحتومة لهذه الخطة العملية أن تنشأ فيكم صفات الكذب والنفاق وتخلو قلوبكم من صدق النية ولا ينبعث في أنفسكم حماس أو صرامة عزم لمقصود من المقاصد، وتتجردوا من صفات الشعور بالواجب واتباع القانون والتزام الضابطة ولا تبقوا أهلا لأن تكونوا أعضاء نافعين في نظام اجتماعي . إنكم بهذه الرذائل والنقائص الخلقية أينما ذهبتم وأي جماعة دخلتم فيها كنتم لها عاراً وسبة ، وأي نظام انضممتم اليه خربتم بنيانه ، وأي حضارة سريتم في جسمها كنتم لها كجراثيم الجذام وأي دين اعتنقتموه مسختموه مسخاً . وإنه لخير من أن

تكونوا مسلمين بهذه الأوصاف أن تهجروا الاسلام وتنضموا إلى الطائفة التي تقتنع نفوسكم بمبادئها وتستطيعون أن تتبعوا طرائقها . وانه لخير من المسلم المنافق ذلك الكافر الذي يؤمن بدينه وحضارته صادق الإيمان ويلتزم ضوابطه .

وقد أخطأ من كان يظن في الماضي أن العلاج الناجع لمرض المسلمين هذا هو التعليم الغربي بالحضارة الجديدة وإصلاح الأحوال الاقتصادية ونيل الحقوق السياسية ، ومخطىء كذلك من يظن مثل ذلك في الوقت الحاضر.ولعمر الحق لئن أصبح كل فرد من أفراد المسلمين حائزاً لشهادة الدكتوراه والماجستير والمحاماة ، واغتنى وجمع من الثروة والاموال شيئاً كثيراً ، وزين نفسه بالطراز الاوربي الجديد من الملابس من قمة رأسه إلى أخمص القدم . ولئن حاز المسلمون إلى ذلك جميع مناصب الحكومة وجميع أماكن المجالس التشريعية ولكنه كان في قلوبهم بجانب هذا كله مرض النفاق ، ولم يظنوا واجبهم واجباً ، ومردوا على العتو والعصيان وعدم الالتزام ، فإنهم لا بد أن يبقوا على ما هم عليه اليوم من الضعف والضعة والخمول.ولم يكن لشيء من التعليم الجديد وتقليد الطراز الاوربي والثروة والحكومة أن ينتشلهم من الوهدة التي انحدروا إليها لضعف سيرتهم وأخلاقهم. فإن كنتم تريدون الرقي وتطمحون أن تكونوا جماعة قوية عزيزة فإنه يجب عليكم قبل كل شيء أن تبثوا في المسلمين روح الايمان واطاعة الامر ، إذ لا يمكن بدون ذلك أن تتقوى سيرة أفرادكم ولا أن ينتظم أمر جماعتكم ، ولا يمكن بدون ذلك أن تجمعوا من القوة

الاجتماعية ما تحتلون به مكان العز والرفعة في العالم . وذلك أن جماعة منتشرة متشتتة تسوء حالة أفرادها الخلقية والمعنوية لا يمكن أن تكون أهلاً لأن ترفع رأسها أمام أمم الأرض القوية المنظمة . وإن كومة من الزبل المجفف مهما علا وضخم لا يمكن أن تكون قلعة !

إن أسوأ أعداء الإسلام والمسلمين هم الذين يسممون في المسلمين داء العصيان وسوء الاعتقاد . وهؤلاء هم النوع الأضر الأسوأ من المنافقين الذين وجودهم أفتك بالمسلمين من وجود الكفار المحاربين ، لأنهم لا يهجمون على هذه الأمة من الخارج بل هم ينصبون لها المكايد ويوارون لهم الديناميت داخل مجتمعهم ، ويريدون أن يخزوا المسلمين في الدين والدنيا معاً ، وهؤلاء هم الذين جاء عنهم في القرآن الكريم: (ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء). فأقل التدابير لاتقاء شرهم هو أن يقطع صلته عنهم كل من هو مسلم من صميم قلبه ويريد أن يبقى مسلماً. فلا تتخذوا منهم أولياء . وإلا قد قرر القرآن الكريم من جزائهم النهائي أن يحاربوا كأعداء الاسلام. (فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم).



المفهوم الحقيقي لكلمة «المسلم»

قد راج في حوارنا اليومي كلمات وتراكيب ينطق بها الصغير والكبير ولكن قل منهم من يفهمها ويدرك غور معانيها . وبكثرة دوران تلك الكلمات على الألسن قد قر لها في أذهان الناس مفهوم إجمالي . فإذا تكلم بها ناطق أراد ذلك المفهوم ، وإذا سمعها سامع فهم منها نفس المفهوم المختزل . ولكن المعاني العميقة الدقيقة التى كانت وضعت لأجلها تلك الكلمات لا يهتدي إليها المثقفون بله الجاهلين العاميين .

خذ مثلاً كلمتي «الإسلام» و«المسلم» . فما أكثر جريان هاتين الكلمتين على أفواه الناس وما أعم سيطرتها على ألسنتنا . ولكن كم من الناطقين من ينطق بها وهو يشعر بما تتضمنان من المعاني ، وكم من السامعين من يسمعها ويفهم منها تمام المفهوم الذي كانتا وضعتا لأجله . إن في المسلمين أنفسهم ـ دع عنك ذكر غير المسلمين ـ تسعاً وتسعين في المئة بل أكثر من ذلك يدعون أنفسهم «مسلمين» ويعبرون عن دينهم بكلمة «الإسلام» ولكنهم لا يعلمون ماهو «المسلم» وما هو المفهوم الحقيقي لكلمة «الإسلام» . فهيا بنا نصرف بعض أوقاتنا اليوم في تشريح هاتين الكلمتين .

إنك إن نظرت في أحوال الناس من ناحية الاعتقاد والعمل وجدتهم على أقسام ثلاثة في أغلب الأحوال :

أولها هم الذين يقولون علناً بحرية الرأي وحرية العمل . فهم في كل أمر من أمور حياتهم يعتمدون على رأيهم أنفسهم ويؤمنون بما تحكم به عقولهم وكفى ، ويختارون من طرق العمل ما يكون في رأيهم أنفسهم صوابا . فهم لا علاقة لهم بدين من الأديان ولا هم يتبعونه .

والقسم الثاني يتألف من الذين هم يدينون بدين ما في ظاهر أمرهم . ولكنهم يتبعون في الحقيقة آراءهم وأفكارهم أنفسهم . فهم لا يرجعون إلى دينهم ليأخذوا منه العقائد وقوانين الحياة ، بل هم يتخذون بأنفسهم بعض العقائد حسبما تشاء أهواؤهم وميولهم وحاجاتهم ، ويختارون لأنفسهم طرق العمل ثم يحاولون أن يصوغوا دينهم على صيغتها ويصبغوه بصبغتها ، فهم لا يكونون في الحقيقة أتباعاً للدين . بل الدين يكون تابعاً لهم ولأهوائهم .

والثالث يشتمل على الذين لا يستعملون عقولهم بل يعطلونها تعطيلاً ، ويجرون وراء غيرهم من الناس يقلدونهم تقليداً أعمى ، سواء كان أولئك أجدادهم أو معاصريهم .

فالطائفة الاولى تتهالك على الحرية ولكنها لا تعلم حدودها الصحيحة . إن حرية الفكر والعمل لاشك صحيحة إلى حد ما . ولكنها إذا جاوزت حدودها عادت ضلالا . فالرجل الذي لا يعتمد الا على رأيه في كل أمر ولا يحتكم الا إلى عقله في جميع الشؤون ، فهو واقع في سوء الفهم ويظن خطأ ان علمه وعقله قد أحاط بجميع أمور هذه الدنيا ، فلا تعزب عنه حقيقة أو مصلحة وانه خبير بمعالم كل طريق في الحياة ، عارف بدقائق كل مذهب عالم بنهاية كل سبيل كعلمه ببدايتها . هذا الزعم للعلم

والتعقل في الحق زعم خاطيء . وإن احتكم المرء إلى عقله بصدق ، لدله عقله بنفسه على أنه ـ أي العقل ـ لا يتصف بالصفات التي يظنها فيه مقلده الأعمى ، وان الرجل الذي يتخذه قائداً ولا يسلك طريق حياته الا على هديه لا يمكن أن ينجو من ذلة أو صدمة أو مهلكة أو ضلال .

وهذا النوع من حرية الفكر والعمل ضار بالتمدن والحضارة أيضاً. فمما تقتضيه الحرية الا يعتقد المرء إلا ما صح في رأيه نفسه والا يسلك من الطرق الا ما صوبه عقله هو . ومما يقتضيه التمدن والحضارة ـ بخلاف ذلك ـ هو أن جميع من يضمهم نظام للتمدن يجب أن يكونوا متفقين في بعض العقائد والأفكار الجوهرية ويتبعوا في حياتهم تلك الآداب والعادات وتلك القوانين التي قد قررت لنظم الحياة الاجتماعية . فأنت ترى أن حرية الفكر والعمل تتناقض مع التمدن والحضارة . ان الحرية تبعث في الافراد الانانية والاباحية والفوضى ، والتمدن يطالبهم بالاتباع والاطاعة والرضا . لذلك حيثما كانت الحرية انعدم التمدن ، وحيثما كان التمدن حتماً على الأقل أن ينزلوا من حرية فكرهم وعملهم عن شيء كثير.

والطائفة الثانية أسوأ حالا من الاولى . فالطائفة الاولى ضالة فحسب ولكن الثانية كذابة أيضاً ومنافقة غاشة مدخولة الباطن . وان كان رجل يستطيع أن يوافق بين دينه وأفكاره وميوله ضمن الحدود الصحيحة للتأويل فانه يمكن اتباع الدين مع حرية الفكر والعمل. كذلك إن كانت ميول الرجل مخالفة لتعاليم الدين ولكنه صوب تعاليم الدين وخطأ ميوله هو صحت دعواه إلى حد ، انه يدين بذلك الدين الذي يدعى اتباعه. ولكنه إذا كانت

عقائده وأعماله صريحة الاختلاف عن تعاليم الدين الواضحة ، وكان يظن أفكاره هي صحيحة وتعاليم الدين خاطئة ، ثم حاول أن يسبب كون التعاليم الدينية مطابقة لافكاره وعاداته كيما يستطيع أن يعد من المؤمنين فان مثل هذا الرجل لن ندعوه أحمق لان الاحمق لايتأتى له مثل هذا المكر والخديعة ، بل سندعوه كذاباً مارقاً ، وسنضطر إلى الظن أنه لايملك من الجرأة مايبغي به محى الدين علنا ، فيدعي ايمانه من طريق النفاق . والا أي شيء - ياترى - يمنعه من هجر الدين الذي تتعارض تعاليمه مع عقله وتتناقض مع أفكاره وعقائده وتصده عن اتباع الطرق التي يحب من صميم قلبه أن يسير عليها ، بل هو سائر عليها في الواقع .

والطائفة الثالثة اسفل هذه الطوائف جميعاً باعتبار درجتها العقلية . فانما خطأ الطائفتين الاوليين أنهما تحملان العقل مالا طاقة له به ، ولكن خطأ هذه الطائفة أنها لاتستعمل العقل أصلا أو تستعمله استعمالا نزراً سواء هو والعدم، وأي خزي أكبر لعاقل أن يعتقد عقيدةما ثم لا يكون بيده دليل بحق تلك العقيدة سوى أنه ألفى عليها آباءه ، أو أن تؤمن بها الامة الفلانية التي هي على درجة عالية من الرقي، وان الرجل الذي يتبع بعض الطرق في شؤونه الدينية أو الدنيوية لكونه قد توارثها عن آبائه واسلافه ، أو يختار الطرق الاخرى بناء على كونها رائجة بين الامم الغالبة في زمانه فكأنه يبرهن عن نفسه أنه ليس في جمجمته دماغ ولا في دماغه قوة للفكر ، فهو لم يؤت الملكة التي يميز بها بين الخاطىء والصحيح . لو انه ولد في بيت يهودي بالمصادفة ،فهو يؤمن بصدق الديانة اليهودية . ولو أنه ولد في بيت مسلم لآمن بصدق الاسلام ، أو ولد في

عائلة نصرانية لتحمس للنصرانية . كذلك من المصادفة أيضاً أن الغلبة في زمانه للامم الفرنجية فهو يعد عادات الافرنج هي معيار التهذب ورمز التقدم والرقي . ولو كانت الغلبة في زمانه للصينيين لكانت عادات الصينيين هي عنوان التهذب عنده. وان تكن الغلبة اليوم في العالم للحبش الافريقيين فلا جرم أن تصبح الحبشة هي عصارة الانسانية والتحضر عند هذا الرجل الخفيف العقل .

الحق انه ليس من الدليل المعقول على كون شيء صحيحا أو محقا انه قد عمل به الآباء والاسلاف أو أنه يعمل به في الدنيا اليوم إنما ارتكبت الحماقات قديماً وحديثاً وليس من شأننا أن نقلد تلك الحماقات تقليداً أعمى ولا أن نروح نتبع كل طريق من الطرق القديمة أو الجديدة بدون بصيرة أو تفكير ، فنربط أنفسنا بذيل كل سائر على الدرب سواء أكان يقصد في سيره إلى الاشواك أو إلى هوة من الضلال . وانا انما اوتينا العقل لأجل أن نميز بين الخير والشر في هذه الدنيا ونفرق بين الصحيح والزائف باختبارهما على المحك، وقبل أن نقتدي باحد يجب أن نرى : إلى أين يسير الرجل ؟ .

والاسلام يعد كل هذه الطوائف الثلاث واقعة في الباطل والضلال.

أما الطائفة الاولى فهو يقول فيهم أن القوم لا هم يتخذون هادياً وزعيماً لهم مَن يحمل النور ، ولا هم بأيديهم أنفسهم نور الحق والصدق حتى يستضيئوا به في طريق حياتهم . فمثلهم كمثل من رجم بالغيب ومشى على الدرب في الظلام . فقد يبقى إلى المحجة وقد يعدل عنها ليقع في

الحضيض . وذلك بأن الظن والتخمين ليس من اليقين في شيء بل هـو عرضة للصحة والخطأ ووقوع الخطأ فيه أكثر احتمالا .

(وما يتبعُ الذين يدعونَ من دونِ اللهِ شركاءَ ، إن يتّبعونَ إلا الظنَّ وإن هم إلا يخرُصون)[1] .

(إن يتبعونَ إلا الظنَّ . وإن الظنَّ لا يُغني منَ الحقِ شيئاً)[2] .

(إن يتبعونَ إلا الظنَّ وما تهوى الأنفسُ . ولقدْ جاءهم من ربّهم الهُدي أم للانسانِ ما تمنّى)[3] .

(أفرأيتَ من اتخذ إلـٰهه هواهُ فأضلّه الله على علم وختم على سمعهِ وقلبِه وجعل على بصرهِ غشاوةً . فمن يهديهِ من بعدِ الله)[4] .

(ومن أضلُّ ممن اتبع هواهُ بغير هُدًى من الله . إنَّ اللهلايهدي القومَ الظالمين)[5] .

وكان الممثلون للطائفة الثانية في زمان نزول القرآنهم بنو اسرائيل الذين كانوا ينتمون إلى النبي موسى — عليه السلام — ويدعون أنفسهم متبعي التوراة . ولكنهم كانوا في عقائدهم ومعاملاتهم يخالفونفيالاغلب طريقة النبي موسى عليه السلام وتعاليم التوراة . ثم كانوا لا يخجلون على انحرافهم ذلك،وبدل أن يصححوا أفكارهم وأعمالهم حسب تعاليمالتوراة

---

(١) يونس : ٦٦

(٢) النجم : ٢٨

(٣) النجم : ٢٣ ـ ٢٤

(٤) الجاثية : ٢٣

(٥) القصص : ٥٠

كانوا يحرفون الكلم ويؤولون المعاني في كتاب الله ليطابقوا بينه وبين أفكارهم وأعمالهم . وكانوا يخفون تعاليم التوراة الأصلية ويعرضون مكانها أفكارهم أنفسهم كأنها هي التعاليم المنزلة في الكتاب . والذين ينبهون على ذلك الضلال والعصيان ويدعونهم إلى اتباع كلام الله بخلاف ما تشتهي أنفسهم كانوا يجازون بالشتم والسباب والتكذيب وحتى بالقتل في الاحيان.
فقال الله تعالى في هذه الطائفة : (يُحرِّفونَ الكلِمَ عن مواضعِه ونسُوا حظّاً مما ذُكِّروا به ولا تزالُ تطلّعُ على خائنةٍ منهم إلا قليلاً منهم)[1] . (يا أهلَ الكتابِ لِمَ تلبِسونَ الحقَّ بالباطل وتكتمون الحقَّ وأنتم تعلمون)[2] .

(كلما جاءهمْ رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذّبوا وفريقاً يقتُلون)[3] .

ثم قال لهم بالصراحة : (لستمْ على شيءٍ حتى تُقيموا التوراةَ والإنجيلَ وما أنزل إليكم من ربِّكم)[4]

وفي الطائفة الثالثة الأخيرة قال الله تعالى :

(وإذا قيلَ لهم اتبعوا ما أنزلَ الله قالوا بل نتبعُ ما ألفينا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)[5] . (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزلَ الله وإلى الرَّسول قالوا حسبُنا ما وجدنا عليه آباءنا .

---

(١) المائدة : ١٣
(٢) آل عمران : ٧١
(٣) المائدة : ٧٠
(٤) المائدة : ٦٨
(٥) البقرة : ١٧٠

أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون)[1]. (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن . وان هم إلا يخرصون)[2] .

إن الذين لا يستعملون عقولهم وأفهامهم ولا يميزون بأنفسهم بين الصحيح والزائف ، بل يقلدون غيرهم تقليداً أعمى يحكم عليهم القرآن الكريم بأنهم (صم بكم عمي فهم لا يعقلون)[3]. ويشبههم بالأنعام بل يجعلهم أحط منها لأن الأنعام غير ذوات العقل ، وهؤلاء ذوو العقل ولكنهم لا يستعملونه. (أولئك كالأنعام بل هم أضل. أولئك هم الغافلون)[4].

هذه الطبقات الثلاث التي تقوم طرائق عملها على الافراط والتفريط ينبذها القرآن الكريم ويريد أن يستبدل بها أمة تلتزم القصد والاعتدال، أمة وسط قوامين بالقسط .

وما هو طريق القصد والاعتدال هذا ؟ هذا الطريق هو أن تشقوا أولاً جميع الحجب التي قد أسدلتها أمام أعينكم التقاليد القديمة والتعاليم الجديدة . فافتحوا أعينكم على ضوء العقل السليم وانظروا بأنفسكم ما الحق وما الباطل . أالالحاد صحيح أم التوحيد ؟ التوحيد حق أم الشرك ؟ وهل الانسان لأجل أن يسلك سواء السبيل مفتقر إلى هداية الله تعالى أم لا ؟ وهل كانت الأنبياء ــ عليهم السلام ــ ومحمد ﷺ صادقين

(١) المائدة : ١٠٤
(٢) الانعام : ١١٦
(٣) البقرة : ١٨
(٤) الأعراف : ١٧٩

كلهم أم كاذبين (عياذاً بالله) والطريقة التي يدعو إليها القرآن هل هي مستقيمة او ملتوية معوجة ؟ فان شهد قلبكم بان الايمان بالله تعـــالى هو ما تقتضيه الفطرة الانسانية وان الاله هو الله الذي لا شريك له وأذعن ضميركم بان الإنسان لا شك مفتقر إلى نور من عند الله لأجل أن يسلك في حياته سواء السبيل . وهذا النور هو ما جاء به الأنبياء والمرسلون الذين كانوا هداة صدق للنوع البشري في كل زمان . وإن دلكم النظر في الحياة الطيبة التي عاشها النبي محمد ﷺ في هـذه الدنيا على أن إنساناً بتلك السيرة المطهرة العالية لم يكن ليخدع العالمين ، وإذا كان قد ادعى أنه رسول من عند الله فلا بد أن يكون صادقاً في دعواه . ثم إن قرأتم القرآن وحكم عقلكم بأن الطريق المستقيم لاعتقاد المرء وعمله هو الذي قد عرضه هذا الكتاب ، وهذا الكتاب هو لا شك من عند الله فعليكم أن لا تخافوا عندئذ لومة لائم أو مخالفة عنيد ، بل نقوا قلوبكم من كل خوف النقصان وكل طمع في الربح وآمنوا بالذي قد شهد بصدقه شاهد نفسكم وضميركم .

وإذا ميزتم بين الحق والباطل بمـــا آتاكم الله من العقل السليم واخترتم الحق على الباطل فقد انتهت عندئذ وظيفة عقلكم في النقد والاختبار وانتقلت سلطة الحكم والامر من العقل الانساني الى الله والرسول . ولم يكن لكم بعد ذلك أن تحكموا بأنفسكم في شؤونكم بل كان عليكم ان تذعنوا لكل ما يأمركم به الله والرسول . ويجوز لكم ولاشك أن تستعملوا عقلكم لفهم تلك الاحكام وإدراك حكمتها ودقائقها ولتطبيقها على جزئيات حياتكم ، ولكنه ليس لكم ان تشكوا وتتساءلوا

في أمر يأمركم به الله تعالى . وسواء أأدركتم الحكمة من وراء أمر إلهي أم لم تدركوا ، وطابق أمر من عند الله معيار عقلكم ام لم يطابق ، وكان ما قضى الله ورسوله به مفيداً عندكم لمآربكم الدنيوية أم غير مفيد. وسواء كان أمر رسوله موافقاً للعادات والتقاليد الرائجة في هذه الدنيا أو منافياً لها ، فليس لكم في كل حال إلا ان تذعنوا له وتتبعوه . لانكم إذا آمنتم بالله وصدقتم رسوله وأيقنتم بان كل ما يدعو اليه رسول الله هو من عند الله لا من عند نفسه . (وما ينطقُ عن الهوى، إن هوَ إلا وحيٌ يوحى) ، فمن النتيجة المنطقية لهذا الاذعان واليقين ان تؤثروا ما يقضي به الله والرسول على ما تقضي به عقولكم وألا تنتقدوا الاوامر والنواهي التي جاء بها النبي من عند الله على محك عقلكم وعلمكم وتجاربكم او على محك افكار واعمال غيركم من أهل الدنيا . فالذي قال إني مؤمن ثم غدا يشك ويتساءل فيما يأتيه من عند الله فهو يرد بنفسه قوله وينقض بنفسه ما أبرم ، ولا يعلم أن الايمان والشك ضدان لايجتمعان وأن نظام الامور يقوم على الاطاعة والتسليم وأن الشك والتساؤل لايؤدي إلا إلى الفوضى والبغي .

فطريقة القصد والاعتدال هذه هي « الاسلام » والطائفة التي تتبع هذه الطريقة هم المسلمون .

ان « الاسلام » معناه الانقياد والاطاعة والرضا . والمسلم هو الذي يذعن لامر الآمر ونهي الناهي إذعان رضىً . فهذه التسمية بنفسها دالة على انه لم تبعث في الدنيا هذه الطائفة الرابعة على انفراد من تلك الطوائف الثلاث وطرقهم الضالة الا لان تتبع أمر الله والرسول وتخضع

له . انه ليس لهذه الطائفة ان تتبع عقلها في كل أمر . ولا لها ان تعبث باحكام الله فتأخذ منها ما وافق هواها وتدع ما خالفه ، ولا لها أن تجمل كتاب الله وسنة رسوله وراءظهرها وتروح تقلد الانسانيين تقليداً أعمى ، سواءٌ أ كان أولئك أحياء أم أمواتا .

وهذه الحقيقة قد جاء القرآن الكريم صريحاً في بابها . فهو يقول انه اذا أتى الانسانَ المؤمنَ أمر من عندالله تعالى فلا يكون له ان يؤمن به أولا يؤمن كما يشاء . (وما كانَ لِمُؤمنٍ ولا مُؤمنةٍ إذا قضَى اللهُ ورَسولهُ أمراً أنْ يكونَ لهُم الخيرَةُ مِنْ أمْرِهِمْ ومنْ يعْصِ اللهَ ورسُوله فقَد ضلَّ ضلالاً مُبيناً)[1] .

ويقول : إن أخذ المرء جانباً من كتاب الله وتركه الجانب الآخر يفضي إلى الخزي في الدنيا والآخرة (أفتُؤمنونَ ببَعْض الكتابِ وتكفرون ببعْضٍ فما جزاءُ مَنْ يفعلُ ذلك مِنكم إلا خِزْيٌ في الحياةِ الدُّنيا ويومَ القيامةِ يُردُّون إلى أشدِّ العذابِ . وما اللهُ بغافلٍ عمَّا تعملون)[2] .

ويقول : ان حكم المؤمن في قضية ما يجب ان يكون حسب كتاب الله ، وإن كان ذلك موافقاً لهوى النفس او مخالفاً له .(فاحْكم بيْنهُم بما أنزل اللهُ ولا تَتَّبِع أهْواءهُم عمَّا جاءَكَ مِنَ الحقِّ)[3]

ويقول : كل من لا يحكم بحسب كتاب الله فهو فاسق . (وَمنْ لم يحْكم بما أنْزلَ اللهُ فأولئكَ هُمُ الفاسِقونَ)[4] .

---

(١) الاحزاب : ٣٦
(٢) البقرة : ٨٥
(٣) المائدة : ٤٨
(٤) المائدة : ٤٧

وكل حكم يخالف كتاب الله فهو حكم الجاهلية. (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) (١).

ثم يقول: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. ذلك خير وأحسن تأويلاً. ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به. ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً. وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . . . . . . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . . . . . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)(٢).

انه يتضح من هذه الآيات الصريحة وجه التسمية بكلمتي «الاسلام» و «المسلم»، فالآن يجب علينا نحن الذين كتبت أسماؤنا في سجل المسلمين ان نتفكر ونرى: إلى أي حد تصدق علينا كلمة «المسلم»، وإلى أي حد يصح أن تدعى الطريقة التي نحن نتبعها باسم «الاسلام»؟!

---

(١) المائدة : ٥٠

(٢) النساء : ٥٩ ـ ٦٥

المصدر الحقيقي لقوة المسلم

من حوادث مطلع القرن الثاني للهجرة أن ملك سجستان والرخج الذي كان لقبه العائلي : (رتبيل) رفض أداء الخراج لعمال بني أميـة . فأغاروا عليه الغارات ، ولكنه لم يخضع . وفي أيام الخليفة الأموي يزيد ابن عبد الملك بُعث إليه وفـد من المسلمين يطالبه بالخراج . فلما حضره الوفد سألهم رتبيل: أين القوم الذين كانوا يأتوننا قبلـكم . كانوا ضامري البطون من الجوع ، يلبسون نعال الخوص وفي وجوههم سيماء من أثر السجود ؟ فقيل له : قـد مضوا . فقال رتبيل : إنكم لا شك أنضر منهم وجوهاً ولكنهم كانوا أصدق منكم وعداً وأشد بأساً . ويذكر التاريخ أن رتبيل قال هذا والتوى بما عليه من الخراج . وما زال خارجاً عن طاعة الحكومة الاسلامية مدة نصف قرن أو نهازه .

ذلك في عهد كان فيه كثير من التابعين ومن تبعهم على قيد الحياة . وكان زمان الائمة المجتهدين . لم يمض على وفاة النبي ﷺ إلا قرن واحد.والمسلمون أمة موفورة القوى والحياة ، لا يزالون يبسطون نفوذهم على الدنيا ، وقد ملكوا فارس والروم ومصر وأفريقيا واسبانيـا ، ولا تساميهم أمة من أمم الارض في العدة والعتاد والعزة والبـذخ والثروة

والأموال . هـذا والايمان يعمر القلوب وأحكام الشرع تتبع أكثر مما تتبع الآن ، ونظـام السمع والطاعة قائم ، والامـة ينظمهـا تنظيم محكم. إلا أن خصمهم الذي كان قد عجم عود البدو الجائعين العراة من رجال عهد الصحابة أحس بفرق عظيم بين هؤلاء الشاكين في السلاح وأولئك المعدمين العزل .

من أي شيء كان هذا الفرق يا ترى ؟.

لعل رجال الفلسفة أن يجعلوه فرقاً بين البداوة والحضارة. فيقولوا: إن البدو القدامى كانوا يعيشون عيشة المشقة والجهـد والذين جاؤوا من بعدهم جعلتهم الثروة والتمدن يألفون العيش الناعم الرغيد . ولكن الحقيقة أنه لم يكن ذلك علة هذا الفرق ، بل كانت علته حقاً هي الايمان والاخلاص وحسن النية والاخلاق وطاعة الله ورسوله. فهذه كلها كانت مأتى القوة الحقيقية للمسلمين . لم تكن قوتهم من كثرة العديـد ولا من وفرة العتاد ولا من قناطير الذهب والفضة ولا من حذق العلوم والصناعات ولا من توفر لوازم الحياة والتمدن . وإنمـا كانوا نهضوا بقوة الايمان والعمل الصالح ، وهـذه هي التي جعلتهم أعزة في العالم وألقت في قلوب الامم هيبتهم والايمان بخلقهم وأمانتهم . وما دام عندهم هذا الذخر من القوة والمزفإنهم كانوا مع قلة العدة والعتاد أقوياء ذوي السؤدد والشرف. ولكنه لما قل عندهم هذا الذخر أخذهم الضعف وجعلت ريحهـم تفشل مع الايام ، ولم تغن عنهم شيئاً كثرة العدد واستفاضة الاسبـاب المـادية .

فقد رأيت أن الذي قاله ورتبيل، وهو عدو للاسلام والمسلمين هو أكثر عبرة من آلاف المواعظ للناصحين الأولياء. انه بين في الحقيقة أن القوة الحقيقية لامة ما ليست في جيوشها الزاحفة ولا في أسلحتها اللامعة ولا في جنودها المتأنقين في المآكل والملابس ولا في وسائلها وأسبابها الكثيرة. بل قوتها هي الخلق الفاضل والسيرة الطيبة والمعاملة الصحيحة والأمل البعيد. وهذه القوة هي تلك القوة الروحانية التي تفتح العالم بدون الوسائل المادية وتغلب المعدمين على الموسرين. ولا تورثهم الارضين فحسب بل تجعل في قبضتهم القلوب والنفوس أيضاً. بهذه القوة يتقدم اللابسون نعال الخوص المهزولون المرموقون المغمدون سيوفهم في الاسمال فيشمرون أهل الارض من هيبتهم ورعبهم ومن سيطرتهم وجبروتهم وقدرهم وعزمهم وثقتهم وسلطانهم مالا يتهيأ ابداً – بدون هذه القوة – للابس الوشي والديباج وأهل البذخ والترف أولي الوجوه الناضرة والقصور الشامخة والمسلحين بالمناجيق الضخمة والدبابات الفخمة. ذلك ان وفرة القوة المعنوية تتلافى قلة الاسباب المادية، ولكن وفرة الاسباب المادية لا تعوض مما يفوت من القوة المعنوية. ولو أنه تحصل غلبة بدون هذه القوة فانها أحرى أن تكون عارضة موقتة. لانه لا تفتح القلوب أبداً بدون هذه القوة وانما تتطأطأ الرقاب، وتبقى بعد ذلك بالمرصاد أبدا لتنتهز أول فرصة للتعالي والتشامخ.

ان بناء ما لا يتحقق إحكامه بنقوشه وزخارفه وألوانه ولا بفنائه الرحب وروضته الغناء، ولا بأي جمال خارجي. كما لا يزيد في قوته كثرة ساكنيه، ولا وفرة أثاثه ولا تعدد أجهزته وآلاته. وهو مادام واهي

الأسس أجوف الجدر متآكل العمد متفتت الالواح والخشب فانه لايمنعه شيء من السقوط وان كان عامراً بالاهل زاخراً بالمتاع يسر الناظرين بزينته ومحاسينه . إنكم إنما تنظرون إلى المظاهر وتتوقف أنظاركم عندما يتمثل أمام أعينكم ولكن حوادث الدهر لايقف فعلها عند الظاهر بل هو ينفذ إلى الصميم . فهذه تمارس الاسس وتختبر متانة الجدران وتمتحن سلامة العمد ، فان وجدت هذه كلها محكمة متراصة ارتدت كالموج ترده الصخرة الصماء ، وغالبها البناء برصانته وإحكامه ؛ مع انه عاطل من كل زينة . وان كانت الاخرى حطمته لطمات الحدثان فانهدم وسقط مع كثرة سكانه وجودة نقوشه وألوانه .

هذا بعينه هو شأن الحياة القومية . فالذي يجعل أمة ما قوية غالبة بين الامم ليس منازلها ولا ملابسها ولا مراكبها ولا مرافق حياتها الناعمة ولا فنونها اللطيفة ولا مصانعها ولا كلياتها ، بل هو المبادىء التي تقوم عليها حضارتها ورسوخ هذه المبادىء في القلوب وهيمنتها على الاعمال . وهذه الاشياء الثلاثة أي استقامة المبادىء والايمان القوي بها وهيمنتها الكاملة على الحياة العملية هي في حياة الامم بمكان الأس المتين والجدار القوي والعماد المحكم في البناء . فالأمة التي توفرت فيها هذه الأمور الثلاثة كاملة فانها لا جرم أن تكون غالبة بين الامم . تعلو كلمتها في الارض وينبسط نفوذها على الشرق والغرب وتتأصل ثقتها في القلوب وتعنو لامرها الرقاب . وتكون معززة محترمة وإن كانت تسكن الاكواخ وتلبس الاسمال وكان أفرادها ضامري البطون من إلحاح الفاقة

ولم تكن في مدائنها كلية ولا ارتفعت في معمورتها مدخنة ولا كانت لها في العلوم والصناعات يد . ذلك بأن كل هذه الاشياء التي تعدونها من أسباب الرقي والتقدم إن هي نقوش وألوان للبناء وليست أسسه وقواعده وأركانه . وأنت إن كسوت الجدران النخرة ورق الذهب فلن يمنعها ذلك من السقوط . وهذه هي الحقيقة التي يكررها القرآن الكريم :

إنه يصف مبادىء الاسلام بأنها تطابق تلك الفطرة الثابتة غير المتبدلة التي قد فطر الله تعالى عليها الانسان . لذلك فإن الدين المشيد على تلك المبادىء هو الدين القيم ، أي الدين الذي يقيم جميع شؤون المعاش والمعاد على الاساليب الصحيحة المستقيمة (فأقِمْ وجهَكَ للدِّينِ حنيفاً فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَاسَ عليها . لا تَبْدِيلَ لِخَلقِ الله . ذلكَ الدِّينُ القيِّمُ . ولكنَّ أكثر الناسِ لا يَعلَمون)(١) . ويقول بعد ذلك : ان استمسكوا بهذا الدين القيم وآمنوا به وعملوا بمقتضياته تغلبوا في الدنيا ورثوا الارض واستخلفوا فيها(أنَّ الأرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالحونَ)(٢) (وأنتم الأعْلَوْنَ إنْ كنتم مُؤمنينَ)(٣) . (وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنوا منكم وَعمِلوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهم في الأرْض)(٤) . (ومَنْ يَتَوَلَّ اللهَ ورسولَه والذينَ آمنوا فإنَّ حِزْبَ اللهِ هُم الغالبون)(٥).

---

(١) الروم : آية ٣٠ .
(٢) الأنبياء : آية ١٠٥ .
(٣) آل عمران : آية ١٣٩ .
(٤) النور : آية ٥٥ .
(٥) المائدة : آية ٥٦ .

وبخلاف ذلك إن الذين قد دخلوا في حظيرة الدين في ظاهر الأمر ولكنه لم تخالط بشاشته قلوبهم ولا هو أصبح قانون حياتهم فلا ريب أن ظاهرهم رائق معجب (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) . وأقوالهم تلذ الاسماع (وإن يقولوا تسمع لقولهم). ولكنهم في الحقيقة جثث لاروح فيها (كأنهم خشب مسندة) . يخافون الناس أكثر مما يخافون الله (يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية). أعمالهم كسراب يتراءى كالماء ولكنه ليس بشيء في الحقيقة (أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) . وأمثال هؤلاء لا يمكن أن تتأتى لهم قوة جماعية لأن قلوبهم متنافرة وهم لا يستطيعون أن يتشاركوا في عمل من الاعمال الخالصة : (بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى). فلا يمكن أن يكون لهم من القوة ما يختص بالمؤمنين الصالحين (لايقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر) . وهم لن ينالوا إمامة العالم (قال لا ينال عهدي الظالمين). وليس من عاقبتهم إلا أن يذلوا ويهونوا في هذه الدنيا ويذوقوا في الآخرة أيضاً عذاباً شديداً (لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم).

ومما عسى أن تعجب منه أن القرآن الكريم قد جعل وسيلة رقي المسلمين وتألفهم كجماعة حاكمة غالبة في الأرض شيئاً واحداً هو الايمان والعمل الصالح . ولم يفرض عليهم لأجل ذلك أن يؤسسوا الجامعات وينشئوا الكليات ويقيموا المصانع ويصنعوا السفن ويؤلفوا الشركات ويفتحوا المصارف ويخترعوا الآلات وأن يحاكوا الأمم الراقية في اللباس وأساليب الاجتماع والعادات . ثم إنـــه جعل السبب الوحيد للتخلف

والانحطاط وخزي الدنيا والآخرة هو النفاق ، لا انعدام الأسباب التي تحسبها الدنيا أسباب التقدم والرقي .

ولكنك إن تفهمت روح القرآن وتعمقت معانيه السامية زال عجبك للأمر . فأول ما يجب أن يفهم من هذا الصدد هو ان الوجود الذي يقال له « المسلم » لا قوام له إلا بالاسلام ولا تثبت حقيقته من حيث هو مسلم إلا بالاسلام . فهو إن آمن برسالة النبي محمد ﷺ واتبع القوانين التي أنزلت عليه تحقق إسلامه ، وإن لم يكن يملك شيئاً ما عدا الاسلام . وبالعكس من ذلك إن هو تحلى بكل ما يعد من زينة الحياة الدنيا ولكنه لم يعمر قلبه الايمان ولم تتميز حياته باتباع قوانين الاسلام ، فانه قد يكون بكالوريوسا أو طبيباً أو مالك مصنع أو رئيس مصرف أو قائد جند أو أميراً للبحر ولكنه لا يمكن أن يكون مسلماً. ومن ثم لا يكون الرقي في هذا المضمار أو ذاك حقيقاً بأن يعد رقي فرد مسلم أو أمة مسلمة ما لم تتحقق الحقيقة الاسلامية في ذلك الفرد أو الامة . وبدون هذا لن يكون ذاك الرقي - مهما عظم أمره - رقي الوجود المسلم . وظاهر أن مثل هذا الرقي لا يمكن أن يكون مطمح أبصار الاسلام .

هذا وقد يكون من صورة واقع أن لا تكون أمة ما مسلمة أصلا وتكون أفكارها وأخلاقها ونظامها الاجتماعي مبنية كلها على غير أساس الاسلام . فمثل هذه الامة يمكنها ولا ريب أن تنهض وتتقدم بفضل المبادىء الخلقية والسياسية والاقتصادية والمدنية التي تختلف عن الاسلام، ثم تبلغ الاوج والكمال من ذلك الرقي الذي تعتبره الرقي الحقيقي من زاوية

نظرها . ولكنه من الصورة الاخرى المخالفة للواقع ان تكون أفكار أمة ما وأخلاقها ومدنيتها واجتماعها وسياستها واقتصادها مؤسسة كلها على الاسلام ، ثم تكون تلك الامة ضعيفة في هذا الاساس ـ الاسلام ـ نفسه من ناحيتي العقيدة والعمل كليهما . فمثل هذه الامة مهما هيأت لنفسها من أسباب الرقي المادي لا يمكنها أبداً أن تنهض في الدنيا كأمة قوية شديدة البأس ، غالبة على غيرها من الامم . لان الاساس الذي قد رفع عليه بناء قوميتها وأخلاقها وحضارتها هو نفسه ضعيف واه . وضعف القاعدة والاساس شيء لا تتلافاه أسباب الزينة والجمال الخارجي .

على انه لا يراد بهذا كله أنا ننكر الأهمية الصحيحة للعلوم والفنون وأسباب الرقي المادي . بل المقصود أن هذه كلها في الدرجة الثانية للامة المسلمة ، ويتقدمها جميعا إحكام الأساس . فاذا استحكم الأساس . فلا حرج أن يتخذ من وسائل الرقي كل ما يلائم هذا الأساس . بل من الواجب أن تتخذ جميع تلك الوسائل . ولكنه إذا كان الأساس بنفسه واهياً وكانت جذوره في سويداء النفوس ضعيفة وسيطرته على شؤون الحياة فاترة فلا بد أن تختل الاخلاق وتسوء السيرة وتفسد المعاملات من الناحية الفردية والاجتماعية . وتسترخي ضوابط النظام الاجتماعي وتتشتت القوى . وليست النتيجة المحتومة لذلك ان تتضاءل قوة الامة وتشول كفتها في ميزان الامم الدولية يوما بعد يوم ، حتى تهاجمها الامم الاخرى وتتغلب عليها. واذا حدث ذلك فليس يغني عنها شيء من كثرة الوسائل ووفرة الجامعيين ذوي الشهادات العليا والزينة والزخرفة الخارجية .

ثم هناك فوق هذا كله أن كتاب الله يقول بكل ثقة وإحكام : (أنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين) . و(ألا إن حزب الله هم الغالبون) . و(ليستخلفن الذين آمنو وعملوا الصالحات . فهل ترى من أي شيء تأتي هذه الثقة ؟ وبناء على أي شيء قد ادعي في القرآن انه مهما ملكت أمم الأرض من الوسائل المادية فلا جرم أن ينتصر عليها المسلمون بمجرد سلاح الايمان والعمل الصالح ؟

هذه العقدة يحلها القرآن الكريم بنفسه . فهو يقول : (يا أيها الناس ضُرِبَ مثلٌ فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله ان يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وإن يسلبْهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ . ماقدروا الله حقَّ قدرِه . إن الله لقوي عزيز)[1] . (مثل الذينَ اتَّخذوا مِن دونِ اللهِ أولياء كمَثَل العَنْكبوت اتَّخذت بيتاً . وإنَّ أوهن البُيوت لَبَيْتُ العنكبوتِ)[2] .

المقصود أن الذين يعتمدون على القوى المادية إنما يعتمدون على أشياء لا قوة لها بنفسها . ويفضي هذا الاعتماد على شيء لا قوة له إلى أنهم يعودون بأنفسهم ضعفاء فاقدي القوة ، وكل ما يبنون عند أنفسهم من حصون محكمة رصينة يأتي واهنا كبيت العنكبوت ، وهم لا يستطيعون أبداً أن يقاوموا الذين ينزلون في المضمار باعتمادهم على الله ذي القدر والعز الحقيقي (ومَن يَكفرْ بالطاغوت ويُؤمِنْ بالله فقد استَمْسك بالعُروة الوُثقى لا انفِصامَ لها)[3] .

---

(١) الحج : آية ٧٣ ـ ٧٤ .
(٢) العنكبوت : آية ٤١ .
(٣) البقرة : آية ٢٥٦ .

ويقول القرآن بادعاء أنه كلما التقى في المضمار أهل الايمان ، وأهل الكفر، كان الانتصار لا محالة لأهل الايمان(ولَو قاتَلكم الذينَ كَفروا لوَلّوا الأدبارَ ثم لا يَجِدون وليّاً ولا نَصيراً . سُنّةَ اللهِ التي قد خلَت من قبلُ ولَن تَجِدَ لسُنّة الله تبديلاً)[1] . (سنُلقي في قلوبِ الذينَ كَفروا الرُّعبَ بما أشرَكوا باللهِ مالَم يُنَزّلْ به سُلطاناً)[2] . وذلك بأن الذي يقاتل عن الله تعالى يكون في عونه التأييد الإلـهي . ومن كان معه التأييد الإلـهي فلا يد لأحد بكفاحه (ذلكَ بأنّ اللهَ مَولى الذينَ آمنوا وأنّ الكافرينَ لا مولى لَهم)[3] .
(وما رَمَيتَ إذ رَميتَ ولكنّ اللهَ رمى)[4] .

هذا من قوة المؤمن الصالح وسطوته. ومن القانون الإلـهي -بجانب آخر - انه من يكون أميناً طيب السيرة ، ويتبع شريعة الله بدل أهواء النفس وتتنزه أعماله من دنس الاثرة والانانية . فانه يتحبب إلى الخلق . فالقلوب تنجذب اليه مودة ، والانظار ترتفع اليه بالاحترام ، ويؤمن بصدقه أعداؤه فضلاً عن أوليائه ، فيثقون بعدله وعفته ووفائه (إنّ الذينَ آمنوا وعَملوا الصالِحات سَيَجعَل لَهم الرّحمنُ وُداً)[5] .
(يُثَبّتُ اللهُ الذينَ آمنوا بالقَولِ الثابتِ في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة)[6]

(١) الفتح : آية ٢٢ و٢٣ .
(٢) آل عمران : آيه ١٥١ .
(٣) محمد : آية ١١ .
(٤) الأنفال : آية ١٧ .
(٥) مريم : آية ٩٦ .
(٦) إبراهيم : آية ٢٧ .

(مَنْ عَمِلَ صالحاً مِن ذَكَرٍ أو أنثى وهُو مُؤمِن فلنُحْيِيَنَّه حياةً طيِّبَةً ولنَجزينَّهم أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملونَ)[1].

ولكنْ نتيجة أي شيء كل هذا؟ ليس هذا نتيجة أن يقول المرء كلمة (لا إله إلا الله) ويتسمى باسم من أسماء المسلمين ويتبع بعض التقاليد المعلومة في المجتمع الاسلامي أو يؤدي بعض الشعائر. بل يشترط القرآن لتحقق هذه النتائج الايمان والعمل الصالح. إنه يريد أن ترسخ حقيقة (لا إله إلا الله) هذه في قلوبكم ونفوسكم رسوخاً يجعلها غالبة على أفكاركم وتصوراتكم وأخلاقكم ومعاملاتكم. تنطبع حياتكم بطابعها ولا يتسرب إلى أذهانكم معنى يختلف عن معاني هذه الكلمة ولا يصدر عنكم من عمل يخالف مقتضى هذه الكلمة.

فلتكن نتيجة التفوه بكلمة (لا اله الا الله) أن يحصل معه انقلاب تام في حياتكم فتسري في كل عرق من عروقكم روح التقوى والصلاح ولا تخضع رؤوسكم لقوة غير الله، ولا تمتد ايديكم لأحد غير الله، ولا تخشى نفوسكم ما سوى الله، فلا يكون حبكم ولا بغضكم الا لله وحده، لا ينفذ في حياتكم قانون غير قانون الله. فتكونوا مستعدين أبداً لبذل كل ما تحبون في سبيل مرضاة الرب. وإذا بلغكم حكم من أحكام الله ورسوله، لم يكن عندكم بازائه الا (سمعنا وأطعنا) قولا وفعلا. فمتى حصل كل ذلك فيكم لم تكن قوتكم عندئذ قوة أنفسكم وأجسادكم فحسب، بل كانت من ورائها قوة أحكم الحاكمين الذي يسجد له كل ما في السموات والأرض طوعا وكرها. وتنور وجودكم بنور السماوات والأرض الذي هو المحبوب الحقيقي للخلق أجمعين.

---

(١) النحل: آية ٩٧.

كان هذا كله حاصلا لدى المسلمين على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين . وكان من نتائجه ما قد شهدت به صفحات التاريخ . كان ذاك العهد من قال فيه (لا اله الا الله) تبدلت حياته غير الحياة. يكون خاما من قبل فيصبح كالذهب المسبوك . فكل من رآه بعد ذلك فكأنه رآى التقوى مجسدة والصدق ممثلا ، ومع أنه أمي معسر يتعود الفاقة ويلبس الخشن ويجلس على الحصير ولكنه يكون من هيبته في القلوب ما لا يكون لذوي الابهة والخيلاء من الملوك . وكانه مصباح أينما ذهب ، اقتبس من نوره كثير من المصابيح . ومن لم يقبل هذا النور ويتجرأ على أن يهاجمه ليطفئه وجد في شعلته مايحرقه ويفنيه .

مثل هذه القوة الايمانية والسيرة الطيبة الصالحة كان يملكه المسلمون حينما كانوا لا يزيدون على ثلاثمائة وخمسين ولكنهم قد تحدوا العرب كلها للنضال . ولما بلغ عددهم بضعة ملايين خرجوا في الأرض يغزون الممالك ويفتتحون الامم ،ولم تعارضهم في هذا الطريق قوة الا انصدعت وتفرقت شذر مذر .

فقوة المسلم الحقيقية ـ كما أسلفنا ـ هي هذا الايمان والسيرة الطيبة الناتجان عن رسوخ معاني كلمة (لا اله الا الله) في القلب . فان لم ترسخ هذ المعاني في القلب ، بل نطق بها اللسان فحسب ، ولم ينشأ عنها انقلاب في الذهن وفي الحركات والاعمال، ولم يتغير المرء بعد نطقه بهذه الكلمة بل بقي كما كان من قبل ، بلا فرق بينه وبين المنكرين لها من حيث الاعمال والأخلاق يطأطىء رأسه لغير الله كما يطأطئون ويستجدي غير الله كما يستجدون ، ويخاف ما سوى الله كما يفعلون ، ويبغي رضاه

ويشغف به حبا . ثم كان كمثلهم عبداً للهوى ، يجعل القانون الالهي وراء ظهره ويتبع القوانين الوضعية أويتبع أهواءه . ويكون في أفكاره وآماله،ونياته من السوء والنجس ما يوجد في أفكار غير المؤمن بالله وآماله وتكون أقواله وأفعاله ومعاملاته مثل ما يكون لغير المؤمن . نقول ان كان هذا كله واقعاً فلا ندري لعمر الله لماذا يفضل المسلم غير المسلم ؟ وهل المسلم إذا انعدمت فيه روح الايمان ، وروح التقوى الا بشر كغير المسلم ؟ فاذا بارى المسلم بعد ذلك غير المسلم كانت المباراة بينهما باعتبار القوة الجسدية والأسباب المادية . وتغلب الذي هو أقوى بهذا الاعتبار على الذي هو أضعف .

والفرق بين الحالتين واضح على صفحات التاريخ بحيث يدركه الناظر لأول وهلة . ففي الحالة الاولى : قامت قلة من المسلمين فدكوا عروش الحكومات العظام، ونشروا راية الإسلام على ما يمتد من شاطىء نهر (اتك) إلى سواحل الاطلانتيك ، وفي الاخرى :ها هم أولاء قد بلغوا آلاف الملايين على صفحة الأرض ، ولكنهم خاضعون لدول الكفر ومن البلاد ما يعمره مئات الملايين منهم ، وقد مضت على وجودهم فيه قرون ، ولكن الكفر والشرك باق فيه إلى هذا اليوم .

شرعة الأبطال ، لاشرعة الضعاف

دين البطولة ، لا دين الفسولة

إن مقالاتي حول مسألة « الربا » قد جعلت بعض الناس يعيدون ويبدئون في إظهار فكرة بعينها هي في كلمات موجزة كما يلي :

« إن زماننا هذا قد سيطر فيه النظام الرأسمالي بالقوة السياسية على الدنيا الاقتصادية كلها التي تحيط بنا اليوم . فعربة الاقتصاد متحركة على عجلات الرأسمالية . والرأسماليون هم الذين يسيرونها ، ولا تظل تتقدم نحو الرقي من طريق هذه الرأسمالية إلا تلك الامم التي لا تتقيد بقيد ديني أو أخلاقي في كسب الثروة وإنفاقها . وبجانب آخر ان قوتنا الاجتماعية متشتتة ، وليس بمقدورنا أن نقيم نظام الاقتصاد الإسلامي من جديد حتى في أمتنا أنفسنا بله ان نبدل نظام الاقتصاد العالمي . ففي هذه الظروف ان جاءت قيودنا الدينية مانعة لنا عن المساهمة التامة في النظام الاقتصادي الرائج في الدنيا اليوم ، فإنه لن يكون من نتيجته إلا أن ستتخلف أمتنا عن الامم الأخرى في الأخذ بأسباب الرقي الاقتصادي والرفاهية ، وستزداد فقراً وحرماناً على الأيام ، بينما ستزداد الامم المجاورة غنى وإثراء. وإن تخلفنا الاقتصادي هذا لا بد أن يجر علينا الذل والهوان في ميادين

السياسة والمدنية والأخلاق أيضاً . وليس هـذا كله من باب المخاوف والأوهام فحسب . بل قد تمثلت هذه النتيجة ـ ولم تزل تتمثل منـــذ سنوات ـ أمام أعيننا في دنيـا الواقع والعمل . وان المصير الذي نحن منتهون إليه في المستقبل ليست أعراضه من الخفاء والابهام بحيث لا يبصرها ذو عينين . فلا ندري لذلك ما الفائدة في أن يبين لنا حـكم الشريعة في هذه الظروف . وتسرد لنا المبادىء الاسلامية للاقتصاد ؟ إنما الحاجة الآن إلى أن يبين لنا : هل من سبيل هناك إلى تمهـد حالتنا الاقتصادية واجتياز منازل الرقي مع التزام القانون الاسلامي ؟ وان لم يكن للأمر من سبيل ، فلا بد أن يكون واحد من اثنين : اما يتلف المسلمون تلفـاً ، واما أن يضطروا كشأن الامم الاخرى إلى أن يتحرروا من قيود جميع القوانين التي لا تجاري العصر ! » .

إن هذه الأزمة ليست مقتصرة على مسألة الربا وحدها ، بل يتسع نطاقها جداً . ولو كانت شعبة الاقتصاد ـ من بين شعب الحياة كلهـا ـ هي وحدها التي قد سيطر عليها نظام غير إسلامي لـكان الأمر أهون بكثير . ولـكن الواقع يشهد بغير ذلك . فانظر إلى ماحولك من الدنيا . واستعرض ما أنت نفسك فيه من الظروف ، فاية شعبة من شعب الحياة هي التي لم يسيطر عليها نظام غير إسلامي؟ العقيـــدة والفكر والرأي ألم يتغلب عليها الالحاد والدهرية ، أو التشكك والارتياب على الاقل ؟ والتعليم ألم يسيطر عليه نظـــام لا يعرف الوجود الإلٰهي ؟ والمدنية والحضارة ألم تستول عليها الطريقة الافرنجية؟ وان الحياة الاجتماعية

ألم تنفذ فيها الطريقة الغربية إلى أعماقها ؟ وهل الأخلاق بمنجاة من غلبتها ؟ وهل المعاملات سالمة من نفوذها ؟ وهل يخلو من تأثيرها : القانون والسياسة والحكومة بما فيها من الأصول والفروع والنظريات والصور العملية ؟ .

وإذا كان هذا هو الواقع فلماذا تقتصر سؤالك على الاقتصاد وحده، بل على جزء واحد فحسب من أجزائه ؟ وإنما لك أن توسعه وتمده على الحياة كلها فتقول : إن نهر الحياة قد غير مجراه . إنه كان يجري فيما غبر في الجهة التي توصل إلى الإسلام ، ولكنه الآن قد عاد يجري في الجهة التي تؤدي إلى غير الإسلام . ولسنا نطيق أن نحول وجهته ، ولا نستطيع أن نعوم ونسعى ضد تياره ، ونجد كذلك الملكة في الوقوف والجمود في مكان بعينه منه ، فدلنا إذن على خطة للعمل نستطيع بها أن نبقى مسلمين بجانب ، ونرسل سفينتنا مع التيار الجاري بجانب آخر ، وان نبقى من قاصدي كعبة الله، ثم لا نهجر القافلة التي هي سائرة إلى تركستان ، وأن نكون غير مسلمين ، في أفكارنا ونظرياتنا وأهدافنا ومبادىء حياتنا ومناهج عملنا ، ثم نكون مسلمين مع ذلك ، وان لم تقترح علينا صورة للجمع بين هذه النقائض والاضداد، فإنه سيكون من نتيجة ذلك أحد أمرين: إما أننا سنهلك على شاطىء هذا النهر ،وإما أننا سنمحو اسم الإسلام من واجهة سفينتنا ، وستكون هذه جارية في التيار مع السفن الاخرى .

إن أصحابنا المستنيرين المتجددين إذا تكلموا في مسألة فإنه تكون حجتهم النهائية التي يزعمونها - عند أنفسهم - أدحض الحجج إن اتجاه

العصر هو هكذا ، وان التيار يجري في هذه الجهة ، وان المعمول به في الدنيا اليوم هو هذا، فكيف لنا أن نخالفه ؟ وإن خالفناه فكيف نستطيع أن نحيا ؟ فإن كان الكلام في الأخلاق ، قالوا : إن مقياس هذا العصر للأخلاق قد تغير وتبدل ، يريدون بذلك أنه كيف يستمسك المسلمون بالمقياس الاسلامي القديم ؟ وإن كان البحث حول الحجاب ، قالوا : إن الحجاب قد ألغي في جميع أنحاء العالم ، ومرادهم بذلك أن الطريقة التي قد ألغاها العالم كيف لا يلغيها المسلمون ؟ وإن كان الموضوع التعليم ، كانت حجتهم الأخيرة في بابه أن التعليم الإسلامي لم يعد نافقاً في سوق العالم اليوم ، يقصدون بذلك أنه لماذا يتخرج أبناء المسلمين من المعاهد التعليمية كسلعة متقادمة لا تطلب اليوم في سوق العالم ، ولم لا تكونون سلعة هي مطلوبة في كل مكان. وإن كان الخطاب في موضوع الربا ، كان فصل الخطاب أنه لا يمكن أن تجري شؤون الدنيا بدونه في هذه الآونة، يعنون بذلك أنه كيف يكون المسلمين أن يتجنبوا الامر الذي قد أصبح لازماً لتدبير شؤون الدنيا . محصل القول أنه أيما شعبة من شعب الحياة، من التمدن والاجتماع والأخلاق والتعليم والاقتصاد والقانون والسياسة وغيرها يريد هؤلاء أن يتبعوا فيها الطريقة الافرنجية بعدول عن طريقة الإسلام ، فإنه يكون من حجتهم النهائية لتبرير فعلتهم هو اتجاه العصر ، ووجهة التيار ، وسير الزمان ، وتقدم هذه الحجة كالبرهان القاطع على جواز ذلك التقليد الغربي ، أو ذلك الارتداد الجزئي في حقيقة الأمر . ويظن من الواجب أن يسقط من أجزاء البنيان الإسلامي كل جزء يطعن عليه من جهة هذه الحجة .

وإنا نقول : إن مقترحات الهدم والتخريب هذه التي تعرضها متفرقة وعلى حـدة ، لم لا تجمعها وتجمل منها جميعاً اقتراحاً واحداً شاملاً ؟ انه لمن إضاعة الوقت ان تقترح هدم كل جدار وكل غرفة وكل بهو من المنزل على حدة وأن تبحث في أمر كل واحد من ذلك على انفراد ، فمالك لا تقترح أن هذا البيت كله يستحق أن يهدم ، لأن لونه يختلف عن لون العصر ، ووجهته مغايرة لوجهة الريح العصرية ، وشكله يختلف عن الشكل الذي تبنى عليه البيوت في العالم اليوم .

أما الذين يفكرون حقاً هذا التفكير ، فإنه من العبث أن يناقشهم المرء . وإنما الجواب القطعي الصريح لهم أنه لماذا تتكلفون أيها السادة : أن تهدموا هذا البيت وتبنوا مكانه آخر . وإنما لكم أن تنتقلوا من هذا البيت إلى بيت آخر يروقكم ويرضيكم من حيث الشكل واللون والوضع . وإن كنتم تحبون أن تجروا مع التيار فلمـاذا تكلفون أنفسكم بمحو اسم الإسلام من واجهة السفينة، وإنما لكم أن تغادروا هذه السفينة وتركبوا واحدة من السفن التي هي جارية مع التيـار . إن الذين ليسوا مسلمين في أفكارهم وأخلاقهم واجتماعهم واقتصادهم وتعليمهم وبالجملة في أي ناحيـة من نواحي حياتهم ، ولا يحبون أن يبقوا مسلمين ، لا نفع للاسلام في بقائهم مسلمين من حيث الاسم ، بل له فيه ضرر أي ضرر . إن القوم لا يعبدون الله ، بل هم عبدة أهوائهم ومتبعو تيار العصر . فلو أنه راجت في الدنيا اليوم عبادة الأصنام ، لعاد هؤلاء يسجدون للأصنام . ولئن عم العري في هذا العالم لنزع هؤلاء ثيابهم وعاشوا عراة كالانعام . وإن جاءت الدنيا تأكل النجس والقذر، قالوا: إن النجس والقذر هو الطهارة.

وأن الطهارة في الحقيقة نجس ، إن قلوب القوم وأذهانهم مستعبدة ، وكأنها قد خلقت للعبودية . وبما أن الغلبة اليوم للافرنج يريد هؤلاء أن يتفرنجوا في كل ناحية من نواحي شخصيتهم ، من الباطن إلى الظاهر . وإن تكن الغلبة غداً للأحباش تراهم يسودون فيسودون وجوههم ويورمون شفاههم ويجعدون شعرهم تشبهاً بالأحباش ، ويقدسون كل شيء يأتيهم من أرض الحبشة . إن أمثال هؤلاء العبيد لا حاجة للاسلام إليهم أبداً . ولعمر الله لئن محيت أسماء هؤلاء المنافقين والمستعبدين من سجل مئات الملايين من أفراد الأمة ولم يبق في العالم سوى عدة آلاف من أولئك المسلمين الذين (يحبُّهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنينَ أعزةٍ على الكافرينَ ، يجاهدون في سبيلِ اللهِ ولا يخافونَ لومة لائم)، كان الإسلام أعز وأقوى بأضعاف مضاعفة مما هو الآن ، وكان خروج مئات الملايين هؤلاء منه كخروج القيح والدم الفاسد من جسد عليل .

يقولون : (نخشى أن تصيبنا دائرة) ، وليس هذا النداء بجديد ، بل هو قديم ما زالت تهتف به ألسنة المنافقين . وهذا هو النداء الذي ينم على مرض النفاق الكامن في النفوس . وهذا هو الذي لم يزل المنادون به يجنحون أبداً إلى معسكر أعداء الإسلام ، وما زالوا أبداً يعتبرون حدود الله غلا في العنق وقيداً في الأرجل ، وما زالوا منذ الأبد يستثقلون اتباع أحكام الله والرسول ، ويرون في الاطاعة خسارة الأنفس والاموال وفي العصيان النجاح كله في الحياة الدنيا . فلم تبدل شريعة الله لأجلهم فيما سبق ولا من الممكن تبديلها الآن ولا في المستقبل .

فإن هذه الشريعة الإلهية لم تنزل للاقزام الخانعين ، ولا لعبدة الأهواء وموالي الدنيا ، ولا لامثال الريشة الطائرة في مهب الريح ، أو أمثال الغثاء الجاري مع تيار الماء ولا للحربائيين الذي يتلونون بكل لون من ألوان البيئة . وإنما نزلت لأولئك الليوث الأبطال الذين يجدون أنفسهم أقوياء على تغيير مهب الريح ، ومقاومة التيار وتحويل مجراه إلى الجهة الصحيحة والذين يحبون صبغة الله فوق ما سواها وقد عزموا على أن يصبغوا جميع العالم بهذه الصبغة . ان الكائن الذي يقال له « المسلم » لم يخلق للانسياق مع التيار ، وإنما الغاية من وراء خلقه في هذه الدنيا ان يوجه تيار الحياة في الوجهة التي هي وجهة الحق والصواب بحسب ايمانه وعقيدته ، ولئن كان هذا التيار قد غير مجراه من هذه الجهة الصحيحة ، فكاذب في دعوي الاسلام من يرضى بهذا المجرى المتحول عن وجهة الصواب . وان الذي هو مسلم حقاً وبكل معنى الكلمة لاجرم أن يزاحم سير هذا التيار المنحرف ، ويبذل غاية وسعه في صرف مجراه . ولن يهمه في هذا الجهد نيل الفوز أو حصول الخيبة ، بل انه سيحتمل ما يناله فيه من الخسارة والضرر ، ولن تنهزم روحه المكافحة حتى وان انكسرت أعضاؤه من جهد الصراع مع التيار ، وتفككت أوصاله وألقته الامواج على الشاطىء مهزولا مغشياً عليه . انه لن يتسرب إلى نفسه الأسى والأسف على هذه الخيبة الظاهرة . أو الحسد والتلهف على فوز الكفار والمنافقين المنساقين مع التيار .

إن القرآن يا قوم بين أيديكم ، وسير الأنبياء عليهم السلام أمام

أنظاركم ،وأحوال الناهضين بدعوة الاسلام منذ البدء إلى الآن منشورة أمامكم ، فهل تتعلمون من كل ذلك أن تطيروا مع الريح ، وتسيلوا في جهة التيار ، وتتلونوا بكل ما يتخذه زمانكم من اللون . ولو كان المقصود هو هذا فلماذا أنزل الكتاب وبعث الانبياء . وانما كانت أمواج الريح كافية لتوجيهكم . وتيار الحياة الدنيا كافياً لارشادكم ، وتقلبات الزمان كافية لتعليم صنعة الحرباء . انه لم ينزل الله تعالى كتاباً من عنده يعلم هذا التعليم المهين ولا بعث لاجله نبياً وانما كل ما جاء من عنده سبحانه من رسالة جاء لاجل ان يلغي جميع الطرق الخاطئة التي تسير عليها الدنيا ويقرر مكانها طريقاً قاصداً مستقيما ، ويمحو كل ما يخالفه من الطرق ويصد الدنيا عنها صدوداً ، ويؤلف جماعة من المؤمنين لا تكتفي بأن تسلك ذلك الصراط المستقيم بل تعمل على جذب الدنيا اليها . وإن الأنبياء عليهم السلام ومن اتبعهم جاهدوا أبداً لتحقيق هذا المقصود وقد أوذوا في هذا السبيل أصناف الأذى ، واحتملوا أبهظ الخسائر وضحوا بأنفسهم ولم يتخذ أحدهم سير الزمان قدوة له، اما خوفاً من النكبة أو طمعاً في المنفعة . فإن كان هناك من يخشى الخسارة والمشكلة والخطر في اتباع الطريق الذي تهدي إليه الهداية السماوية ، ولخشيته تلك يريد أن ينتهج طريقاً يبدو له السائرون فيه ناجحين ، مترفهين ، أعزة ، فله أن يتخذ ذلك الطريق المرضيّ عنده ولكن مابال ذلك الجبان الطماع يخدع نفسه ويخدع الدنيا أيضاً بأنه متبع لكتاب الله وسنة النبي ، مع كونه قد هجرهما ونبذهما وراء ظهره . ان العصيان بذاته جريمة عظيمة . فلا ندري أي نفع يقصد باتباعه جرائم الكذب والغش والنفاق .

أما الظن بأن تيار الحياة لا يمكن أن يحول من المجرى الذي قد سال فيه ، فخطأ من جهة العقل وتشهد بخلافه التجربة والمشاهدة أيضاً . إنه قد حدثت في هذه الدنيا مئات من الثورات . وكل ثورة منها جاءت فحولت مجرى هذا التيار . وأبرز الأمثلة لهذه الظاهرة التاريخية تجده في الإسلام نفسه . فإنه لما بعث النبي ﷺ في هذه الدنيا فماذا ـ ترى ـ كانت وجهة التيار الحياتي عندئذ ؟ ألم يكن الكفر والشرك قد استولى على العالم كله ؟ وهل لم تكن الفواحش مسيطرة على الاخلاق ، واتباع الهوى مسيطراً على الاجتماع ، والرأسمالية والاقطاعية المستبدة مسيطرة على الاقتصاد ، والافراط والعدوان مسيطراً على القانون ؟ ولكنه قام ذلك الرجل الوحيد فتحدى الدنيا كلها ، ورفض كل تلك الافكار الخاطئة والطرق المعوجة التي كانت رائجة في الدنيا . وعرض بازائها عقيدة من عند الله مخصوصة وطريقة معينة ، وفي مدة قليلة من السنين حول مجرى التيار وغير لون الزمان بقوة تبليغه وجهاده .

وأحدث الأمثلة لذلك الحركة الشيوعية. وذلك أنه في القرن التاسع عشر كانت سيطرة الرأسمالية بلغت منتهاها . ولم يكن يخطر ببال جبان متقلب مع الريح أن النظام الذي قد تسلط على الدنيا بكل تلك القوة السياسية والعسكرية الرهيبة يمكن أن يطاح به أبداً . ولكنه في تلك الظروف نهض رجل يسمى كارل ماركس وراح يبلغ التعليم الشيوعي فمارضته في ذلك الحكومات ، ونفي عن الوطن وظل شريداً ينتقل من بلد إلى آخر ، يعاني من النكبة والعسر ما يعاني . ولكنه قبل أن يموت

نجح في إنشاء جماعة دكت عرش القوة الكبرى المهيبة في روسيا في مدة أربعين سنة . ولم تقف عند ذلك ، بل زعزعت قواعد الرأسمالية في جميع العالم ، وعرضت نظرية لها خاصة في الاقتصاد والعمران بقوة جعلتها تنمو وتنتشر ، حتى أن عدد أتباعها لا يزال يزداد إلى هذا اليوم ، وعادت تتأثر بها القوانين حتى في تلك الاقطار التي قد تأصل فيها الحكم الرأسمالي بكل قوته .

على أن الثورة أو الارتقاء لا تحدث إلا بالقوة والبأس . وليست القوة عبارة عن الانصهار ، بل هي صهر الغير في القالب المراد ، وليست القوة هي الانفعال بل هي الفعل في الآخر على الوجه المطلوب . ولم يقم الجبناء الهالمون بثورة في الدنيا قط . وان الذين لا يكون لهم مبدأ خاص ولا غاية حياة ولا مطمح أبصار ، والذين لا يقوون على البذل في سبيل المقصد الاعلى ،ولا يتشجعون على مقاومة الاخطار والمشكلات ، والذين لا يطلبون في هذه الدنيا إلا الراحة والسهولة والرغد ، وهم ينسكبون لذلك في كل قالب ويطاوعون لكل ضغط ، لا تجد لهم فعالا يذكر في التاريخ الانساني. وإنما تشكيل التاريخ يكون من شأن الابطال وحدهم. وهم الذين قد غيروا أبداً مجرى الحياة بجهادهم وتضحياتهم، وبدلوا أفكار العالم ، وأحدثوا الثورة في أساليب العمل ، وبدل أن يصطبغوا بصبغة العصر قد صبغوا العصر بصبغتهم أنفسهم .

لذلك لا تقولوا إنه لا يمكن أن تحول الدنيا عن الدرب الذي هي سائرة فيه وأنه لا بد من اتباع سيرة الزمن . بل يجب عليكم بدل أن

تدعوا دعوى الاضطرار الكاذبة أن تعترفوا بضعفكم اعترافاً أمينا . وإذا اعترفتم بذلك كان عليكم أن تقروا أيضاً بأن الضعيف لا يمكن أن يكون له دين في هذه الدنيا أو مبدأ أو ضابطة. وإنما هو مضطر أن يخضع لكل قوي ويستكين لكل قاهر . وليس من شأنه لذلك أن يتقيد بمبدأ من مبادئه أو بضابطة من ضوابط القانون . ولئن راح دين من الاديان يبدل مبادئه لاجل هذا المتذبذب المترنح فانه لن يبقى ديناً أبداً .

وأيضاً من الخداع الذي تنخدعون بـه أن قيود الدين الاسلامي عائقة لكم دون الرفاهية والتقدم. فقولوا بالله أي قيد من قيوده تلتزمونه في هذه الآونة ؟ وأي قيد من قيوده لم تكسروه ولم تفلتوا منه ؟ وأي حد من حدوده لم تتجاوزوه؟ وأي شيء من الاشياء التي قد جرت عليكم الهلاك فلا أباحه لكم الاسلام ؟ إن الذي يهلككم هو إسرافكم وتبذيركم الذي ينزع الملايين من الجنيهات سنويا من جيوبكم بصورة الربا وينقلها إلى كنوز الصيرفيين المحتكرين ، ومن جراء هذا الاسراف لا تزال تخرج من أيديكم أملاك ذات مئات الملايين من الجنيهات . فهل كان الاسلام أباح لكم هذا الاسراف ؟ وان الذي يهلككم هو عاداتكم السيئة فلا تزال دور السينما والمسرح واللهو واللعب توجد غاصة كل مساء بأفراد أمتكم على رغم هذا الفقر والعسر . وكل واحد من أفرادكم ينفق فوق وسعه على اللباس وأدوات الزخرفة والتزين . وتذهب ملايين الجنيهات من جيوبكم سدى كل شهر في القيام بالتقاليد الزائفة وأعمال التظاهر والرياء واشغال الجاهلية. فأي شيء من هذا كان أحله لكم الاسلام؟ والداهية الكبرى التي قد أوقعتكم في المهلكة هي إلغاؤكم نظام الزكاة وإهمالكم التعاون فيما بينكم . وهل لم يكن

الاسلام قد فرض عليكم ذلك ؟ . . . فالحقيقة الواقعة أن انحلال حياتكم الاقتصادية ليس نتيجة التزامكم لقيود الاسلام ، بل هو نتيجة انفلاتكم منها . وأما التقيد في أمر الربا خاصة فأين يوجد اليوم في مجتمعكم؟ إن ٩٥ في المائة على الأقل من أفراد أمتكم المسلمة يقترضون الأموال على الربا بدون اضطرار حقيقي . هذا هو التقيد بأحكام الإسلام ! ومن المسلمين المثرين أيضاً فئة كبيرة تأكل الربا في صورة من صوره . وإن كانوا لم يتخذوا الصيرفة والاحتكار مهنة لهم على الوجه المعتاد فأي فريق يقع بذلك . إن أكثرهم لا شك يأكلون الربا المشمول بمعاملات البنوك والتأمين والعقود المالية الرسمية والاعتماد التوفيري (Provident Fund) فأين هناك التقيد بحرمة الربا ، الذي يتهمونه بكونه سبباً في انحطاطكم الاقتصادي ! ؟

ومن طريف الاستدلال أن شرف المسلمين وكرامتهم وشوكتهم القومية متوقفة تماماً على الغنى المالي والغنى المالي يتوقف على الأخذ بأسباب الرفاهية والرقي الاقتصادي ، ومدار كل هذا على جواز الربا . ويبدو أن القوم لم يعلموا إلى الآن أنه أي شيء يتوقف عليه في الحقيقة الشرف القومي والقوة والعزة . إن الثروة وحدها ليست الأمر الذي يضمن لأمة من الأمم القوة والعزة والشرف . ولئن أصبح كل فرد من أفرادكم يملك الملايين من الجنيهات ولم تكن فيكم قوة السيرة والخلق ، فثقوا بأنكم لن تكونوا على شيء من الكرامة والشرف في العالم . وإن كانت فيكم ـ بخلاف ذلك ـ السيرة الإسلامية ، وكنتم أهل صدق وأمانة ، زهاداً في الطمع والخوف ،

راسخين في مبادئكم وأمناء في معاملاتكم ، تظنون الحق حقاً والواجب واجباً وتراعون الفرق بين الحلال والحرام في كل حال ، وكانت فيكم من القوة الأخلاقية أنلا تعدلوا عن سبيل الحق طمعاً في ربح أو خوفاً من نقصان ، ولا يكون من الممكن اشتراء ايمانكم بأية قيمة مهما غلت ، إن كان فيكم كل هذا وقعت مهابتكم في قلوب الامم ورسخ عزكم في نفوس العالم وكان كلامكم أرجح وأوزن من كل ما يملك أصحاب الملايين من الثروة وكنتم مع كونكم ساكني الأكواخ ولابسي الخرق والرقاع أكرم عند الشعوب من أهل الدور والقصور ، وتهيأت لأمتكم من القوة والصولة ما لا يمكن أن يغلب أبداً . أرأيتم ما كان أفقر المسلمين في عهد أصحاب النبي ! كانوا يعيشون في الاكواخ وفي خيام من الوبر ، لا يعرفون زخرفة المدنية وزهوها، لا يتأنقون في الملبس ولا في المآكل ولا في الاسلحة ولا في المراكب . ولكنه كان لهم ـ رغم هذا كله ـ من المهابة والرعب في قلوب العالم ما لم يتهيأ لهذه الامة لا في العهد الأموي ولا في العهد العباسي ولا في أي عهد بعد ذلك . إنهم لم يكونوا يملكون المال . ولكنهم يملكون قوة السيرة والخلق، التي أذعن لعظمتها وكرامتها العالم كله. وأما الذين خلفوهم بعد فلا شك اجتمعت في أيديهم الاموال، وامتدت حكومتهم في الارض وتهيأت عندهم زخرفة المدنية ولألاؤها ، ولكنه لم يعوضهم شيء من هذا كله من وهن السيرة والخلق الذي أصيبوا به .

إنكم قد نسيتم عبرة التاريخ الاسلامي . فخذوا الآن تاريخ أية أمة من أمم العالم وانظروا فيه،لن تجدوا مثالاً واحداً لأمة نالت القوة والعزة

من طريق التساهل والاستراحة وإيثار المنفعة . ولن تجدوا بمكان الرفعة والعز أمة لا تتقيد بمبدأ أو ضابطة، ولا تتحمل ضيقاً أو عسراً أو مشقة لأجل غاية سامية ، ولا تكون مستعدة لبذل أهوائها ، بل لبذل أنفسها ذاتها في سبيل مقاصدها وأهدافها . فهذا التقيد بالقيود والتزام الضوابط وبذل الراحة والرفاهية والمنفعة في سبيل المقاصد العليا ستجدونه عند جميع الامم في لون من الألوان . فلونه في الاسلام معلوم ، ولونه عند الامم الراقية الأخرى مختلف عنه،وعلى ذلك فان هجرتم الإسلام ودخلتم في نظام مدني آخر،فلا بد أن تضطروا هنالك أيضاً أن تتقيدوا بضابطة من الضوابط ، وتتحملوا وطأة تأديب وتنظيم ، إن لم يكن بهذا اللون الاسلامي فبلون آخر . ولا بد أن تشدوا في ملازمة المبادىء المخصوصة، وتطالبوا بالتضحية لأجل مقصود ما أو مبدأ من المبادىء.ولئن لم تكونوا متجلدين لهذا كله ، وكنتم راغبين في مجرد السهولة والسعة والحلاوة لا تطيقون شيئاً من الشدة أو المرارة . فاذهبوا حيثما شئتم منفلتين من قيود الاسلام ، لن تنالوا مكان العز والرفعة في العالم ، ولن تجدوا كنوز القوة والشوكة في الارض! وقد بين القرآن الكريم هذه القاعدة الكلية في كلمات أربع . وتلك الكلمات الاربع قد شهد بصدقها تاريخ العالم كله . قال الله عز وجل : (إن مع العسر يسراً) . فالذي لا يطيق العسر ولا يصبر على المشقة ليس له أن يتمتع بيسر !



الخطة التعليمية الجديدة لمسلمي الهند - ومنهاج العمل بها

[هذا محضر قدم جواباً للاسئلة التي وجهتها لجنة إصلاح برنامج تدريس الالهيات ، التابعة لجامعة عليكر في الهند . ومع أن المخاطب فيه على الظاهر هو جامعة عليكر ، ولكن المخاطب به في الحقيقة جميع المؤسسات التعليمية للمسلمين . إن الخطة التعليمية التي قد بينت في هذا المحضر نظن اختيارها للمسلمين أمراً لا بد منه . إن جميع معاهدهم التعليمية ، سواء أكانت جامعة عليكر ، أم مدرسة ديوبند ، أم دار العلوم التابعة لندوة العلماء أم الجامعة الملية ، قد أمست مناهجها التعليمية عتيقة بالية لا تجيب مطالب العصر . فان لم تراجعها وتعدلها كل هذه المؤسسات . فقدت منفعتها تماماً] .

★ ★ ★

إن مجلس جامعة عليكر لجدير بوفور الشكر من قبل جميع مسلمي الهند على أنه صرف عنايته أخيراً إلى المقصد الأساسي لمؤسسته ، وهو بث الروح الاسلامية الحقيقة في نفوس الطلبة ، ولاجل تحقيقه عين لجنتكم هذه . وقد نظرت بامعان فيما تسلمت من الاوراق من مكتب الجامعة ، وأعتقد أنه إذا كان الكلام في المنهج المتبع الآن لتعليم العلوم

الدينية والالهيات . فلا شك أبداً في كونه غير مطمأن اليه . فالبرنامج الذي لا يزال يدرس في الجامعة لهذه العلوم ناقص من غير شك ،ولكن الأسئلة التي وجهها أعضاء اللجنة الافاضل ، يدل النظر فيها على أن اللجنة تعالج في الوقت الحاضر مسألة تعديل البرنامج وحدها . ولعله يظن انه بإخراج كتب معدودة من البرنامج وإدخال كتب أخرى مكانها فيه يمكن أن تبعث في الطلبة الروح الاسلامية المنشودة . وإن صح قياسي في الامر فاني أقول : إنه تقدير ناقص جداً لصورة الواقع الحقيقي . ومن الواجب علينا في الحقيقة أن نتعمق المسألة وننظر ما هو السبب في عدم نشأة الروح «الاسلامية الحقيقية» في الطلبة على رغم ما هم يعلمون الآن من تعليم القرآن والحديث والفقه والعقائد . إن كان ذلك السبب هو مجرد نقص البرنامج الحالي لهذه العلوم ، فإن تدارك هذا النقص لا شك سيكفي لازالة ذاك الفساد . ولكنه إن كانت أسباب ذلك أوسع وأعمق، وان كان هناك في خطتكم التعليمية بكاملها فساد جذري ، فلن يكفي تعديل برنامج العلوم الالهية لإصلاح الحالة الحاضرة . بل ستضطرون لذلك إلى أن توسعوا دائرة الاصلاح والترميم ، مهما كلفكم ذلك من المتاعب ومهما لاقيتم فيه من الصعاب . وقد فكرت في المسألة من هذه الناحية . واذكر فيما يلي - بما يمكنني من الايجاز - النتائج التي قد وصلت اليها نتيجة هذا التفكير . وسيكون تقريري هذا على أقسام ثلاثة : ففي القسم الاول سننتقد الخطة التعليمية الحاضرة للجامعة وتبرز مفاسدها الجوهرية، ويبين ماذا يجب أن يكون من خطتنا التعليمية التي تضمن مصالح

الامة الحقيقية . وفي القسم الثاني ستعرض المقترحات الاصلاحية . وفي الثالث الأخير سيكون الكلام في التدابير اللازمة للعمل بتلك المقترحات .

١

إن منهج التعليم الذي هو معمول به الآن في الجامعة يشتمل على خليط من التعليم العصري والتعليم الاسلامي لاالتحام فيه ولاانسجام . وانما أخذوا عنصرين تعليميين متعارضين لاصلة بينهما فحشدوهما في منهج تعليمي واحد ، ولم يعالجوهما علاجا يصلحان به لأن يتحولا إلى قوة علمية مركبة فيخدما ثقافة بعينها من الاثنين . ومن النتيجة انه مع هذا الاجتماع والاقتران يبقى العنصران منفصلين بعضهما عن بعض ، بل هما يتعارضان ويتنازعان ذهن الطالب إلى جهتين متعاكستين . وإن ننظر في الأمر حتى من وجهة النظر التعليمية الخالصة ، باعراض عن وجهة النظر الاسلامية ، فلا بد أن نرى أنه من الخطأ أصلا أن يختلط في التعليم مثل هذه العناصر المتعارضة المتناقضة ، وانه لا يمكن أن تأتي هذه الخطة بنتيجة مفيدة .

وأما من وجهة نظر الاسلام فقد أصبح هذا الاختلاط أضمن للقبح والسوء لانه أولاً لايجوز الاختلاط في عناصر التعليم . ومن الآفة بعد ذلك ان هذا الاختلاط لا ترعى فيه السوية بين العنصرين ، بل العنصر الغربي فيه أقوى ، والعنصر الاسلامي بازائه أضعف . والذي يتمتع به العنصر الغربي من أسباب الرجحان هو - أولا - انه عنصر عصري ،

توجد من ورائه قوة اتجـــاه العصر وقوة مدنية حاكمة عالية ، وثانياً قد أدخل هذا العنصر في تعليمنا الجامعي بذلك الامتياز وتلك القوة التي هي حاصلة له فعلا ـ ولا بد أن تحصل له ـ في الجامعـــات العصرية التي أنشئت لخدمة الثقافة الغربية ، فالعلوم والفنون الغربية تدرس عنـــدنا على نحو ترتسم به مبادئها ونظرياتها على الالواح الصافية الساذجة من قلوب النشء المسلم كحقائق إيمانية لا ترد ، وتنصاغ عقليتهم كلها في القالب الغربي ، بحيث يعودون ينظرون بعين الغرب ويفكرون بذهن الغرب . ويغلبهم الاعتقاد بأنه إن كان في هذا العالم شيء مقبول محترم فهو الذي يطابق مبادىء الحكمة الغربية وأصولها وهذا التأثر والانفعال تقويه بعد ذلك تلك التربية التي يجري العمل عليها في جامعاتنا فعلا اذ ليس هناك شيء من اللباس والعادات والحركة والاجتماع والأدب والتكلم واللهو واللعب يتخلص من غلبة الحضارة والتمدن الغربي والميول والنوازع الغربية . وإن البيئة الجامعية إن لم تكن غربية بكاملها فانها لاشك غربية بقدر ٩٥ بالمائة . والذي يكون – أو يمكن أن يكون ـ لهذه البيئة من تأثير ونفوذ لا يخفى على عاقل واع . وأما العنصر الاسلامي بخلافه فانه ضئيل جداً . وإنه أولا قد ضعف وتضاءل بنفسه بما قد ضاع عنه من القوة المدنية والسياسية ، ثم ان الكتب التي يدرس فيها هذا العنصر قد كانت كتبت قبل زماننا هذا ببضعة قرون . فليس أسلوبها ولا تأليفها وتدوينها مما يروق الذهن العصري . ثم ان الاوضاع والمسائل العملية التي تبحث فيها تلك الكتب وتطبق مبادىء الاسلام الابدية عليها لا تواجه

أكثرها اليوم . وأما المسائل التي نواجهها اليوم فلم يعن أحد بتطبيق تلك المبادىء عليها . هذا وليس من وراء هذا التعليم الاسلامي نظام تربوي أو بيئة عصرية أو سلوك عملي مما يجعل اختلاطه بالتعليم الغربي شيئاً فاقد التأثير . ومن النتيجة الطبيعية لمثل هـذا الاختلاط غير المتساوي ان يستحوذ العنصر الغربي كاملا على أذهان الطلبة وقلوبهم ، ويعود العنصر الاسلامي عندهم أضحوكة ، أو يبقى لديهم ـ على الأكثر ـ شيئاً محترما لكونه من باقيات ما ضينا القديم .

واني أستميحكم العفو على صراحتي هـذه . ولكن الذي أشاهده أظن ان من واجبي ان أبينه لكم بلا نقص أو شطط ، إن التعليم المدني والديني في هذه الجامعة المسلمة مثله من حيث المجموع عندي كمثل رجل تنشئونه غير مسلم من أعلاه إلى أسفله ، ثم تجعلون في إبطه حزمة من كتب الالهيات ، لـكي لا تتهموا بجعلكم إياه غير مسلم . وان جاء ذلك الرجل فطرح تلك الحزمة من يده طرحاً ـ مما سيكون سببه تعليمكم هذا ولا بد ـ فأنتم ترون ان الملوم على فعلته هو نفسه لا أنتم . وإذا كنتم ترجون من هذا المنهج التعليمي انه سيخرج الطلبة مسلمين صادقين فمعناه أنكم تتوقعون حدوث المعجزة والخارق . ذلك بأن الاسباب التي قد هيأتموها لا يمكن أن تكون نتيجتها كما ترجون بحسب القانون الطبيعي. وليس من الحجة بقاء واحد أو اثنين أو أربعة في كل مائة من طلبة الجامعة مسلماً ــ أي مسلماً كاملاً من حيث العقيدة والعمل كلاهما ــ لأنه لا يرجع الفضل في ذلك إلى حسن تربية جامعتكم ، انما هو برهان على أن

الذي قد اجتاز تربيتكم تلك محتفظاً بايمانه وإسلامه كان ولد في الحقيقة على الفطرة الابراهيمية الحنيفية. وأمثال هؤلاء الأفراد الاستثنائيين كما تعثر عليهم في خريجي جامعة عليكر تعثر عليهم كذلك في خريجي الجامعات الرسمية الوطنية، بل الجامعات الأوربية أيضاً التي ليس في برامجها عنصر إسلامي البتة.

فإن أنتم أبقيتم الآن على هذه الأوضاع وهذا المنهج التعليمي كما هو، وأبدلتم بالبرنامج الموجود لتدريس علوم الالهيات برنامجاً آخر أقوى من هذا تدخلونه في هذا التعليم، فلن يكون من نتيجته الا أن يزداد الصراع بين الطريقة الاسلامية والطريقة الافرنجية شدة، ويصبح ذهن كل طالب ميدان النضال الذي ستتحارب فيه القوتان بكل صولة وبأس وستكون خاتمة المطاف أن ينقسم طلبتكم إلى فئات ثلاث:

أولاها اولئك الذين ستتغلب عليهم الطريقة الافرنجية، سواء أكانت في صورة تقليد الانكليز أم في صورة الايمان بالوطنية الهندية أم في صورة الجنوح إلى الشيوعية الإلحادية.

والثانية اولئك الذين ستغلب عليهم الطريقة الاسلامية، سواء أكان لونها براقاً صافياً أم طامساً ضئيلاً بفعل الطريقة الفرنجية.

والثالثة الاخيرة: اولئك الذين لا يكونون مسلمين كاملين ولا أفرنجيين كاملين.

والظاهر أن هذه النتيجة للتعليم ليست مما يرضي ويسر. فلا من وجهة نظر التعليم الخالصة يمكن أن يعد هذا الجمع بين النقيضين مفيداً، ولا من وجهة النظر القومية يمكن أن تبرر وجودها جامعة يكون الثلثان أو

الجانب الأكبر من نتائجها مخالفاً للمصلحة القومية ومترادفاً للضرر الكامل بالحضارة القومية . ومن الصفقة الخاسرة للامة المسلمة الفقيرة على الأقل أن تنفق ملايين من الاموال كل سنة للابقاء على دار ضرب تخرج ٣٣ في المائة من نقودها زائفة أبداً ، وتصنع ٣٣ في المائة على نفقتنا ليرمى بها في حجر غيرنا بل لتستعمل ضدنا .

ومن كل ما ذكرناه آنفاً يتضح أمران تمام الوضوح :

أولهما إن اختلاط العناصر المتعارضة في نظام تعليمي واحد خطأ مبدئي . والآخر أن هـذا الاختلاط لا يكون مفيداً لمصلحة الاسلام أيضاً ، سواء أكان هذا الاختلاط غير متساوٍ كالذي كان منه إلى اليوم ، أم يساوى فيه بين العناصر الممتزجة كما يراد الآن .

وبعد هذا الايضاح أريد أن أبين : ماذا يجب أن يكون الآن من الخطة التعليمية لجامعة عليكر فيما أرى .

المعلوم أن كل جامعة من الجوامع تكون خادمة لثقافة بعينها . أما التعليم المجرد الذي لا يكون له لون ولا شكل فلم يلق قط في جامعة في الأرض ، ولا هو يلق اليوم . وانما يكون تعليم كل معهد ذا لون خاص وذا شكل بعينه . وينتخب ذلك اللون وهذا الشكل بعد امعان وتفكير عميق مراعاة لتلك الثقافة المخصوصة التي قد أنشىء المعهد لخدمتها . فالآن أقول متسائلاً : ما هي الثقافة التي أنشأتم جامعتكم لخدمتها ؟ فإن كانت تلك الثقافة غربية فلا تدعو جامعتكم « مسلمة » ولا تعرضوا الطلبة لنزاع ذهني داخلي ، بادخال برنامج لتدريس الالهيات فيها . وان كانت تلك الثقافة ثقافة

اسلامية فلا بد لكم أن تبدلوا هيئة جامعتكم كلها وان تصوغوا صيغتها التركيبية على نمط يلائم روح تلك الثقافة ومزاجها من حيث المجموع حتى تعود الجامعة وهي ليست محتفظة بتلك الثقافة فحسب ،بل هي قوة رصينة لدفعها إلى الامام !

إن جامعتكم - كما أثبتناه آنفاً - هي في حالتها الراهنة خادمة للثقافة الغربية . وإن اكتفيتم من تغيير هذه الحالة بان تبدلوا برنامج الالهيات وتجعلوه أقوى مما كان إلى الآن ، مع بقاء الطريقة الغربية للتعليم مسيطرة على سائر شعب التعليم والتربية، فانه لا يمكن أن يعود به هذا المعهد خادما للثقافة الاسلامية. وإنك إن أمعنت في حقيقة الاسلام تبينت بنفسك ان التفرقة بين التعليم والتربية المدنية والتعليم والتربية الدينية وخلطها بعد ذلك مع إبقاء كل منها على كيانه المستقل أمر عقيم لا فائدة فيه . لان الاسلام ليس كالنصرانية ديانة تفرق بين دنيا المرء ودينه ، وهو لا يحصر نطاقه على العقيدة والتعاليم الاخلاقية فحسب ، تاركاً شؤون الدنيا لاهلها . فلا يمكن لذلك فصل الالهيات الاسلامية - كالالهيات النصرانية - عن العلوم الدنيوية . وانما غاية الاسلام الحقيقية هي أن يعد الانسان لان يعيش هذه الحياة الدنيا ويقوم بشؤونها على طريقة هي طريقة الخير والسلام والغلبة والعز ، من لدن هذه الحياة إلى الحياة الاخرى . ولهذا الغرض يصحح الاسلام زاوية فكره ونظره ويصلح أخلاقه ويصهر سيرته في قالب مخصوص ، ويعين له الحقوق والواجبات ويضع له نظاماً خاصاً للحياة الاجتماعية . ثم إن له ضوابط مستقلة متباينة لتربية الافراد النظرية والعملية ، وتشكيل المجتمع وتنظيمه،

وترتيب جميع شعب الحياة وتنسيقها، بها وحدها تتخذ الحضارة الاسلامية صورة حضارة مستقلة ممتازة، وعلى اتباعها والتزامها يتوقف بقاء الامة المسلمة من حيث هي أمة. فاذا كانت الحال كما ذكرنا فانه يعود مصطلح «الالهيات الاسلامية» بلا معنى ان لم يبق على ارتباط وثيق بالحياة وشؤونها. وانه لمن نكد قليل النفع للثقافة الاسلامية ذلك العالم الدبني الذي يعرف عقائد الاسلام وأصوله ولكنه لا يعرف كيف يتقدم بها في مضمار العلم والعمل وكيف يستعملها في أحوال الحياة ومسائلها المتغيرة على الدوام. وكذلك لا حاجة لهذه الثقافة إلى عالم للعلوم المدنية يؤمن بصدق الاسلام في قلبه ولا ريب ولكنه يفكر بذهنه بطريقة غير إسلامية وينظر إلى الشؤون بنظرة غير إسلامية ويشكل الحياة على مبادىء غير إسلامية. والسبب الحقيقي لزوال الحضارة الاسلامية وتبدد نظام التمدن الاسلامي هو انه لم يزل ينشأ في أمتنا منذ زمان علماء من هذين النمطين الاثنين فحسب. وقد انقطع ما بين العلم الدبني والعلم والعمل الدنيوي. فان كنتم تريدون أن تستعيد الثقافة الاسلامية شبابها وقوتها، وبدل أن تمشي خلف الزمان تتقدم فتسير قدامه، فعليكم أن تعيدوا هذا السبب المنقطع بين الدين والدنيا. ولكنه ليس وجه الصحيح أن تجعلوا برنامج الالهيات غلا في عنق الجسم التعليمي أو عبئاً محمولا عليه. كلا بل يجب أن تدخلوه في كامل نظام التعليم والتربية بصورة تجعله منه كالدم الجاري والروح الحية النابضة، والبصارة والسمع، والحس والادراك، والفكر والشعور، وتأخذ كل ما في العلوم والفنون الغربية من الاجزاء الصالحة

فتدمجها في نظام التعليم الاسلامي وتجعلها جزءاً لحضارة الاسلام . هكذا سيكون لكم أن تخرجوا الفلاسفة المسلمين ، وعلماء الفيزياء والكيمياء المسلمين ، ومهرة الاقتصاد المسلمين، والمقننين المسلمين والمفكرين المسلمين ورجال الاختصاص المسلمين في كل علم وفن ، الذين سيحلون مسائل الحياة من زاوية النظر الاسلامية ويستعملون ما للحضارة العصرية من الوسائل والاسباب الراقية لخدمة الحضارة الاسلامية ، وسيرتبون من جديد أفكار الاسلام ونظرياته وقوانين حياته مراعاة لروح العصر الجديد . . . إلى أن سيحتل الاسلام مرة أخرى مكان القيادة والامامة في كل مجال من مجالات العلم والعمل ، ذلك المكان السامي الذي بعث لأجله في الحقيقة في هذه الدنيا .

هذه هي الفكرة التي يجب أن تكون الفكرة الاساسية للخطة التعليمية الجديدة للمسلمين . ان الزمان قد تقدم كثيراً عن المقام الذي تركنا عليه السير سيد أحمد خان . فان جمدنا على تلك الحالة لمدة زائدة استعصى علينا أن نبقى ونعيش كأمة مسلمة ، دع عنك أن نرقى ونتطور !

٢

وأريد أن أبين الآن أن الهيكل العظمي الذي قد اقترحته للخطة التعليمية آنفاً كيف يكسى لباس الصورة والشكل :

١ ـ إنه لمن اللازم أن تقتلع جذور «الطريقة الافرنجية » من حدود

الجامعة المسلمة . ولئن كنا لانريد أن نقتل حضارتنا القومية بايدينا فحتم علينا أن نمنع في أجيالنا الناشئة هذه الميول الافرنجية المتزايدة مع الايام. هذه الميول هي في الحقيقة وليدة العقلية المستعبدة ومركب النقص الكامن في النفوس . ثم انها حينما تظهر مظهراً عملياً في اللباس والاجتماع والآداب والعادات وفي البيئة كلها من حيث المجموع ، فإنها تحيط بالنفوس وتستحوذ عليها من الجهتين : الداخلية والخارجية ، ولا تدع فيها ولو مسكة من الشعور بالعز القومي . ففي مثل هذه الظروف لايمكن البتة ان تحيا الحضارة الاسلامية ، وان حضارة من الحضارات لاتنشأ عن مجرد الوجود الذهني والنظري لتصوراتها الأساسية بل تنشأ عن السلوك العملي التابع لها ، وبه تنمو وتزكو . ولئن انعدم هذا السلوك العملي ماتت الحضارة موتاطبيعياً ، ولم يمكن أن يبقى وجودها النظري إلى بعيد لذلك إن أول ما يجب من الاصلاح وأهمه هو أن تخلق في الجامعة بيئة اسلامية حية . ويجب أن تكون تربيتكم على أسلوب يعلم الاجيال الناشئة أن يفتخروا بحضارتهم القومية ويبث فيهم الاحترام لخصائصهم القومية ، بل الغرام بها ، ويبعث فيهم روح الخلق الاسلامي والسيرة الاسلامية، ويؤهلهم لان يتقدموا بتمدنهم القومي إلى معارج التهذب العالية بفضل علمهم وكفاءتهم الذهنية المدربة .

٢ ـ وان بعث الروح الاسلامية في الطلبة يتوقف ـ إلى حد بعيد ـ على المعلمين وعلى علمهم وعملهم . فالمعلمون الذين خلوا بأنفسهم من هذه الروح بل كانوا معاندين لها من حيث العلم والعمل كلاهما ، فانى يمكن أن تنبعث الروح الاسلامية في المتعلمين تحت نفوذهم وتأثيرهم ! وأنتم

قصاراكم أن تخططوا البناء وتضعوا له الرسم ، ولكن البنائين الذين يرفعون فعلا قواعد هذا البناء هم أعضاء أسرتكم التعليمية ، لا أنتم . وان الرجاء من البنائين « الافرنجيين» ان يبنوا البناء من الهيئة الاسلامية كالرجاء من شجيرة الحنظل ان تنتج عنقوداً من العنب . لذلك لن يجدي أبداً أن تعينوا عدداً من« رجال الدين » لتعليم العلوم الالهية على حين أن يكون القائمون بتعليم سائر العلوم أو أكثرها هم غير المسلمين أو المسلمون المنحرفون في فكرهم عن الاسلام ، لأن هؤلاء سيعدلون بتصورات الطلبة ونظرياتهم في الحياة ومسائلها وشؤونها عن المركز الاسلامي ولن يمكن علاج هذا السم بترياق برنامج الالهيات فحسب ، ومهما كان من الفن الذي يراد تعليمه سواء هو الفلسفة أو هو العلم التجريبي(Science) أو علم الاقتصاد أو القانون أو التاريخ ، فإنه لا يكفي لتعليمه وتدريسه أن يكون المعلم متخصصاً فيه ، بل من اللازم كذلك أن يكون مسلماً صادقاً راسخاً في عقيدته . وان اضطررتم في بعض الظروف المخصوصة إلى أن تنتدبوا لتعليم فن من الفنون أخصائياً من غير المسلمين، فلا حرج عليكم فيه ، ولكنه يجب أن تكون القاعدة العامة المراعاة في هذا الامر هي أن يكون أساتذة هذه الجامعة بجانب كونهم ماهرين في فنونهم نافعين لمقصد الجامعة الاساسي- أي الثقافة الاسلامية - من حيث أفكارهم وأعمالهم جميعاً .

٣ - ويجب أن تدخل اللغة العربية في تعليم الجامعة كلغة ضرورية. فهذه لغة ثقافتنا والذريعة الوحيدة للوصول إلى مآخذ الاسلام الرئيسية .

وما دامت الطبقة المتعلمة من المسلمين لا تصل إلى القرآن والسنة مباشرة بدون واسطة فإنها لن تجد روح الاسلام ،ولن تكتسب البصيرة في الدين، بل ستبقى محتاجة أبداً إلى الشارحين والمترجمين .ومن ثم لن يصل اليها ضياء الشمس من الشمس مباشرة ، بل يصل اليها بواسطة الزجاجات الملونة من أنواع مختلفة . وهؤلاء رجالنا المثقفون الجدد يرتكبون اليوم في المسائل الاسلامية من فاحش الأخطاء ما يدل على أنهم لا يعرفون حتى ألف باء الاسلام . وليس السبب في ذلك الا كونهم لايملكون وسيلة للاستفادة من القرآن والسنة مباشرة. واذا منحت المجالس التشريعية الهندية صلاحيات التشريع الواسعة أيام الحكم الذاتي المفوض الى المقاطعات (Provincial Autonomy) في المستقبل ، وجرى العمل على وضع القوانين الجديدة للاصلاح الاجتماعي، فإن ممثل المسلمين في تلك المجالس آنئذ رجال هم أجانب عن الاسلام ويؤمنون بالتصورات الغربية للاخلاق والاجتماع والقانون ، فلن يعود التشريع الجديد على المسلمين بإصلاح اجتماعي بل بإفساد اجتماعي ، وسيروح النظام الاجتماعي للمسلمين يزداد بعداً عن المبادىء التي أقيم عليها ، ولأجل هذا كله يجب ألا تظنوا مسألة اللغة العربية مسألة لغة عادية بل تفهموا أن هذه المسألة منوطة بمقصد جامعتكم الاساسي. وكل ما كان منوطا بالأصل والأساس (Fundamentals) فلا تراعى في أمره السهولة ولا تنتظر له مواتاة الفرص ، بل يفسح له المجال في كل حال .

٤ ـ إن تعليم المدارس الثانوية (High Schools) يجب ان يلقن الأولاد فيها معلومات بدائية في المواد الآتية :

ا - **العقائد** : هـــذه المادة يجب ألا تشتمل على التفاصيل الكلامية الجافة للعقائد . بل ينبغي أن يتخذ اسلوب لطيف جداً لتثبيت التعاليم الاعتقادية في أذهان الطلبة ، أسلوب يرضي الوجدان الطبيعي ويقنع العقل. وليعرف الطلبة أن التعاليم الاعتقادية التي جاء بها الاسلام هي في نفس الأمر حقائق هذا الكون الاساسية ، وهي ذات صلة عميقة بحياتنا .

ب - **الاخلاق الاسلامية** : لا يعرض في هذه المادة مجرد التصورات الاخلاقية ، بل تجمع للطلبة فيها أحداث ووقائع من حياة النبي ﷺ وسير الأنبياء عليهم السلام والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم تعلمهم ما هي خصائص سيرة المسلم ، وكيف تكون حياة فرد إسلامي .

ج - **أحكام الفقه** : تذكر في هذه المادة أحكام الاسلام البدائية الضرورية فيما يتعلق بحقوق الله وحقوق العباد والسيرة الشخصية ومما لا بد لكل مسلم أن يعرفه . ولكن لا تكون فيها المسائل الجزئية من نمط ما جاء في كتبنا الفقهية القديمة كمدد الدلاء التي يلزم إخراجها لتطهير بئر وقعت فيها الفأرة . بل يجب ، بدل هذه المسائل ، أن يلقن الطلبة مغزى العبادات والاحكام وروحها ومصالحها ، ويجب أن يعلموا أن الاسلام يضع لهم برنامجاً لحياتهم الفردية والاجتماعية . وكيف يعمل هذا البرنامج لخلق مجتمع صالح .

د - **التاريخ الاسلامي** : ينبغي أن تحصر هذه المادة في سيرة النبي وعهد الصحابة . وليكن الغرض من تعليمها أن يتعرف الطلبة على

أصل دينهم وقوميتهم وينبعث في قلوبهم شعور صحيح بالحمية الاسلامية .

ه ـ **اللغة العربية** : يجب أن يكون ضمن هذه المادة علم ابتدائي للغة العربية ، يجعل الطلبة يستأنسون إلى الأدب العربي بعض الشيء .

و ـ **القرآن** : تخلق في الطلبة ضمن هذه المادة ملكة يستطيعون بها أن يتلو كتاب الله بسلامة ، ويفهموا بعض الآيات السهلة ويحفظوا بعض السور على ظهر القلب .

ه ـ أما التعليم في الكلية، فيجب أن يكون له جانب عام من البرنامج، يعلم لجميع الطلبة على السواء ، وليكن هذا البرنامج العام مشتملاً على المواد الآتية :

ا ـ **اللغة العربية** : يجب أن يكون تعليم اللغة العربية متوسطة في مرحلة الثانوية العالية . وأما في مرحلة البكالوريوس (.B. A) فلتضم هذه المادة إلى تعليم القرآن .

ب ـ **القرآن** : يعد الطلبة في مرحلة الثانوية العالية لفهم القرآن . وذلك أن يلقنوا بعض المقدمات فحسب : ككون القرآن من الوحي الالهي وكتاباً محفوظاً ، وأصح وأجدر بالثقة من الناحية التاريخية، وتفوقه على امهات الكتب لسائر النحل والديانات ، وتعليمه الثوري الفذ، وتأثيره لا في العرب وحدهم بل في أفكار العالم كله ، وقوانين حياته ، وأسلوب بيانه ، وطريقة استدلاله ومقصوده الحقيقي (Thesis)

أما في درجة البكالوريوس(.B. A) فيعلم الطلاب القرآن الكريم نفسه . وينبغي أن تكون طريقة التعليم لذلك أن يجتهد الطلبة لقراءة القرآن وفهمه بأنفسهم ، ويساعدهم الاستاذ في ذلك بأن يحل مشاكلهم

ويرفع شبهاتهم وانني اجتنب في هذا التعليم الرجوع إلى التفاسير المطولة والتعرض للمباحث الجزئية ، واكتفي بتوضيح المعاني والمفاهيم فحسب، فإنه يمكن بسهولة أن يعلم القرآن الكريم بأكمله في سنتين اثنتين .

ج ـ **التعاليم الاسلامية** : يجب أن يعرف الطلبة في هذه المادة بالنظام الاسلامي الكامل . ويعلموا ما هي التصورات الاساسية التي يقوم عليها بنيان الاسلام ، وكيف تشكل السيرة الانسانية والاخلاق بناء على هذه التصورات وما هي المبادئ التي تنظم عليها حياة المجتمع في شعب الاجتماع والاقتصاد والسياسة والعلاقات الدولية وعلى أي نحو وزعت الحقوق والواجبات في نظامه الاجتماعي بين الفرد والجماعة . وما هي حدود الله ، وإلى أي حد أعطي المسلم حرية الفكر والعمل ضمن تلك الحدود ، وما الذي يترتب من الاثر على النظام الاسلامي إذا تجاوز المرء هذه الحدود فكل هذه الامور تدخل في البرنامج بصفة جامعة شاملة ، وتقسم على مراحل التعليم الاربعة في الكلية بنسبة معقولة .

٦ ـ أما ماعدا هذا البرنامج العام، فيجب أن تقسم العلوم الاسلامية وتوزع على التعليم الاختصاصي لمختلف العلوم والفنون وتركب تعاليم الاسلام في كل علم وفن حسب ملاءمتها له وتطبيقها عليه . ان العلوم والفنون الغربية نافعة كلها بذاتها ولا يعادي الاسلام أيا منها ، بل أقول قولا ايجابياً ان الحقائق العلمية من تلك العلوم والفنون يصادقها الاسلام وهي تصادقه . والعداء في الحقيقة ليس بين العلم والاسلام ، بل بين الطريقة الغربية والاسلام . وذلك ان لاهل الغرب في أكثر العلوم

تصورات أساسية مخصوصة ومفروضات جذرية (Hypotheses) ونقاط انطلاق (Starting Points) ليست بنفسها حقائق ثابتة ، بل هي مما يلهمهم وجدانهم . فهم يصوغون الحقائق العلمية في قالب مزاعمهم الوجدانية هذه ويرتبونها بحسب هذا القالب ، ويتخذون من ذلك نظاماً مخصوصاً . فالاسلام في الحقيقة يحارب هذه المفروضات الوجدانية . انه لايحارب الحقائق ، بل هو عدو لهذا القالب الوجداني الذي تذاب فيه تلك الحقائق وتشكل . وذلك أن له تصوراً مركزياً وزاوية للنظر ، ونقطة انطلاق للفكر وقالب وجـــداني هو ضد ومناقض باعتبار اصله وفطرته للقوالب الغربية . وتستطيع أن تفهم من هذا انه ليس من اسباب الضلالة من وجهة نظر الاسلام انكم تأخذون الحقائق من العلوم والفنون الغربية ، بل هو أنكم تأخذون القالب الوجداني أيضاً مع ذلك من الغرب نفسه . وأنتم بأنفسكم ترسخون في أذهان طلبتكم الاحداث السذج تصورات الغرب الاساسية في الفلسفة والعلوم التجريبية والتاريخ والسياسة والاقتصاد وما إلى ذلك من الفنون ، وتعدلون وجهة نظرهم لتطابق وجهة نظر الغرب ، وتتخذون المفروضات الغربية حقائق ثابتة مسلماً بها ، وتزودونهم للاستدلال والاستشهاد والبحث والتحقيق بتلك النقطة للانطلاق وحدها التي قد تبناها أهل الغرب، وترتبون جميع الحقائق والمسائل العلمية على النحو الذي رتبها عليه الغربيون ثم تنزلونهـــا في أذهان الناشئة . تفعلون هذا كله وتريدون بعد ذلك ان يأتي علم الإلهيات وحده فيجعلهم مسلمين، كيف يمكن ذلك يازي ؟ وماذا عسى أن يجدي علم الإلهيات الذي ليس فيه إلا التصورات المجردة ، ولا تطبق هذه على

الحقائق العلمية ومسائل الحياة ، بل يكون ترتيب جميع المعلومات في أذهان الطلبة على عكس هذه التصورات كلها ! هـذا هو منبع الضلال كله . فإن كنتم تريدون سد هذا الضلال فعليكم أن تعمدوا إلى أصل هذا المنبع فتصححوه وتعدلوا وجهته ، وتهيئوا لجميع الشعب العلميـة تلك النقطة للانطلاق ، وتلك الزاوية للنظر وتلك المبادىء الاساسية التي قد آتاكم القرآن إياها . فمتى رتبت المعلومات في هذا القالب الاسلامي الوجدان ، ومتى حلت مسائل الحياة والكون بهذه الوجهة الاسلاميـة للنظر ، عاد طلبتكم « طلبة مسلمين » وكان لكم أن تقولوا : اننا قد بعثنا فيهم الروح الاسلامية . وإلا فلن يكون من عاقبة وضع الاسلام في شعبة واحدة ووضع غير الاسلام في سائر الشعب العلمية إلا أن يتخرج طلبتكم غير مسلمين في الفلسفة ، غير مسلمين في العلوم التجريبية ، غير مسلمين في القانون ، غير مسلمين في العـــلوم السياسية ، غير مسلمين في فلسفة التاريخ ، وغير مسلمين كذلك في علم الاقتصاد ، وان ينحصر إسلامهم في بعض المعتقدات النظرية وبعض التقاليد الدينية فحسب .

٧ ـ يجب أن تلغى امتحانات البكالوريوس في الإلهيات (B . Th) والماجستير في الإلهيات (M. Th) لأنها ليست نافعة ولاهنـاك حاجة اليها . أما الشعب المخصوصة للعلوم الاسلامية فيجب أن تدخلوا كل شعبة منها في البرنامج النهائي للشعبة العصرية من العلم المماثل . كأن تدخلوا في شعبة الفلسفة ـ مثلا ـ علم الحكمة الاسلامية وتاريخ الفلسفة الاسلامية ومساهمة المسلمين في ارتقـاء الافكار الفلسفية ، وتدخلوا في التاريخ تاريخ الاسلام وفلسفة التاريخ الاسلامية ، وفي القانون مبادىء القانون

الاسلامي وأبواب الفقه المتعلقة بالمعاملات ، وفي الاقتصاد مبادىء الاقتصاد الاسلامي وأجزاء الفقه المتعلقة بالمسائل الاقتصادية ، وفي علوم السياسة نظريات الاسلام السياسة وتاريخ نشأة وارتقاء العلوم السياسية في الاسلام، ونصيب الاسلام في ترقية الافكار السياسية للعالم. وهكذا دواليك.

٨ ـ وبعد هذا البرنامج ، يجب أن تكون هناك شعبة مستقلة للبحث والتحقيق في العلوم الاسلامية تمنح شهادة الدكتوراه (Doctorate) كما تفعل جامعات الغرب ، لكل من يقوم بتحقيق علمي من الطراز العالي ويجهز في هذه الشعبة رجال يتدربون على الطريقة الاجتهادية للبحث والتحقيق ، فيستعدوا للقيادة النظرية والفكرية لا للمسلمين وحدهم ، بل للعالم كله من وجهة النظر الاسلامية .

٣

إن طريقة التعليم التي قد قدمت خطوطها الرئيسية في الجزء الثاني آنفاً قد تبدو لأول وهلة غير ممكنة العمل ، ولكني استنتجت بعد كثير من الامعان والتفكير انها يمكن أن يعمل بها تدريجياً ببذل ما يجب من العناية والجهد والمال .

انه لا يخفين عنكم أنكم لا تستطيعون أن تبلغوا نهاية المطاف من فور خطوكم الخطوة الاولى في أي طريق من الطرق . وليس من اللازم لابتداء عمل ما ان تكون الأسباب اللازمة لتكميله موجودة عندكم كاملة من قبل . وانما عليكم في هذه المرحلة التي تواجهكم أن تضعوا الاساس للبنيان المنشود ، ومن الميسور ان تهيأ الاسباب لهذا العمل ، إذ يوجد في

الجيل الحاضر أناس يقدرون على أن يضعوا الاسس بحسب هذا الطراز التعميري . فالجيل الذي سينشأ بتعليمهم وتربيتهم على هذا النمط سيكون أهلاً لأن يرفع جدران البناء . ثم يأتي بعدهم جيل سيكتمل على أيديهم هذا العمل إن شاء الله . وطور الكمال الذي يمكن أن يدرك بعدجهد مستمر لثلاثة أجيال على الأقل لا يمكن أن يبلغه المرء اليوم . ولكنه لن يمكن استكمال هذا التعمير في الجيل الثالث الا إذا أرهصتم له منذ الآن .ولئن لم تبتدئوا به اليوم نظراً إلى بعد طوره الكمالي عنكم ـ والحال أنكم تملكون الاسباب اللازمة لابتدائه ـ فإنه لن يتم هذا العمل ولن يتحقق تعمير البناء في صورته الكاملة .

ولما كنت أشير عليكم بهذه الخطوة الاصلاحية فأظن من واجبي كذلك أن أعرض عليكم تدابير العمل بها أيضا . فأريد أن أبين لكم في هذا الجزء الثالث الأخير من تقريري انه كيف يمكن أن يبتدأ هذا الطراز التعليمي وما هي التدابير التي يمكن العمل بها لذلك .

١ ـ إن تعليم المدارس الثانوية (High Schools) قد أعدت لهمصلحة المعارف لولاية (حيدرآباد الدكن) أخيراً برنامجاً جامعاً للعقائد والاخلاق الاسلامية وأحكام الشرع فمن الميسور أن يجعل ذلك البرنامج مفيداً لجامعتكم بعد إصلاح وتعديل لازم .

وإن تعليم اللغة العربية الذي قد كان إلى الآن أمراً يصعب ويهول لقدامة طرقه ومناهجه ، لم يعد الآن بفضل الله على تلك الدرجة من الصعوبة . فقد ابتدعت لتعليم العربية طرق حديثة في بلاد مصروسورية

وفي قطرنا الهندي كذلك ، يمكن أن تعلم بها هذه اللغة بكل سهولة . فيجب أن تؤلف لجنة من رجال قد برعوا في هذه الطرق الحديثة لتعليم اللغة العربية علماً وعملاً ، فيمد بمشورتهم وتوجيههم برنامج يتخذ القرآن الكريم هو الذريعة الرئيسية لتعليم اللغة العربية . وبهذا الطريق لن تبقى هناك الضرورة لتوفير وقت مستقل لتعليم القرآن ، وسيستأنس الطلبة إلى القرآن الكريم منذ البداية .

أما التاريخ الاسلامي فقد ألفت فيه رسائل كثيرة باللغة الاردية. فيجب أن تجمع تلك الرسائل والكتب ويدقق فيها النظر . فالذي يلفى منها أكثر فائدة ونفعا يدخل في برامج الفصول الابتدائية .

ولتعليم المادتين الاولبين ـ أي العقائد والاخلاق ، واللغة العربية ـ ستكفي ساعة واحدة كل يوم ، وأما التاريخ الاسلامي فإنه لا يحتاج إلى وقت مستقل . وإنما يمكن ضمه إلى مادة التاريخ العمومية . وعلى ذلك أظن أن عملية الاصلاح لن تستلزم تغييراً كثيراً في النظام الحاضر لتعليم المدارس الثانوية . وكل حاجة إلى التغيير انما هي في برامج التعليم والمعلمين فإن التصور الذي قد حملتموه إلى الآن لتعليم العلوم الالهية ومعلميها يجب أن تقصوه من أذهانكم ، فتستخدموا لهذا التعليم معلمين يعرفون عقلية الصبية والصبايا لهذا العصر ونفسياتهم، وان تضعوا في أيديهم برامج راقية للتعليم ، ثم تخلقوا بجانب هذا كله بيئة يمكن فيها «للحياة الاسلامية» أن تنبت وتأخذ في النمو .

٢ ـ إن البرنامج العام الذي قد اقترحته لتعليم الكليات ، له أجزاء ثلاثة (ا) اللغة العربية (ب) القرآن (ج) التعاليم الاسلامية .

فاللغة العربية منها يجب أن تنزلوها في تعليمكم منزلة اللغة الثانوية اللازمة. أما اللغات الاجنبية الاخرى فللطلبة أن يتعلموا لغة منها إذا شاؤوا ، على أساتذة مختصين (Tutors) لذلك . ولكن اللغة التي هي أداة التعليم الوحيدة في الكلية يجب أن تكون بعدها اللغة العربية هي اللغة اللازمة. ولئن كانت برامج التعليم جيدة وكان المتعلمون محنكين مدربين فإنه يمكن في سنتي التعليم الثانوي العالي في الكلية أن يخلق في الطلاب من ملكة هذه اللغـة ما يؤهلهم لأن يأخذوا تعليم القرآن في درجة البكالوريوس بلغة القرآن نفسها.

وأما القرآن الكريم فلا حاجة إلى تقرير كتاب من كتب التفسير لتعليمه . وانما يكفي لذلك أستاذ من الطبقة العليا ، يكون قد درس القرآن دراسة إمعان وتعمق ، ويكون أهلاً لتعليم القرآن وتلقينه على النمط الحديث . وسيخلق هذا الاستاذ في طلبة الثانوية العالية الملكة اللازمة لتفهم القرآن ، ثم إذا وصلوا في البكالوريوس فإنه سيعلمهم القرآن بأجمعه بطريقة تتقدم بهم كثيراً في ملكة اللغة العربية وتعرفهم بروح الاسلام معرفة تامة .

ولبرنامج التعاليم الاسلامية لا بد من أن يستكتب كتاب جديد يشمل جميع المقاصد التي قد أشرت اليها في فقرة (ج) لرقم (٥) تحت الجزء الثاني آنفاً . ومنذ برهة من الزمن شرعت في تأليف كتاب بعنوان :

(الحضارة الاسلامية ومبادئها واصولها). واضعاً أمام عيني تلك المقاصد، ظهرت أبوابه الثلاثة البدائية في مجلة (ترجمان القرآن) في اعدادها الصادرة من محرم ١٣٥٢ هـ . فإن وجد ذلك الكتاب مفيداً لهذا الغرض أكملته ووهبته للجامعة .

وبجميع هذه المواد لن تكون هناك ضرورة لتغيير في النظام الحاضر لتعليم الكلية . فإن اللغة العربية يكفي لها من الوقت ما قررتموه لتعليم اللغة الثانوية . وأما القرآن والتعاليم الاسلامية فيمكن أن يكفي لهما بالتناوب ذلك الوقت الذي قررتموه لتعليم العلوم الالهية .

٣ ـ وأكثر الصعوبة عسى أن يواجه في تنفيذ المقترح الذي عرضته في الرقمين (٦ و ٧) تحت الجزء الثاني آنفاً . ولحل هذه المشكلة صور ثلاثة يمكن العمل بها بالتدريج :

(أ) يجب أن يبحث عن أساتذة ـ وهم على ندرتهم متوفرون ـ يكونون ذوي اختصاص في العلوم (الجديدة) ويكونون بجانب هذا على بصيرة في القرآن والسنة، وتكون فيهم من الكفاءة ما يستطيعون به أن يفصلوا حقائق العلوم الغربية عن نظرياتها وأساسها الوجداني ، ويرتبوها من جديد على المبادىء والنظريات الاسلامية.

(ب) يجب أن يغربل ما يوجد باللغة العربية والاردية والانكليزية والالمانية والفرنسية من كتب ومؤلفات في العلوم الاسلامية المختلفة كفلسفة القانون ومآخذ القانون وفلسفة التشريع وعلوم السياسة والعمران والاقتصاد والتاريخ وفلسفة التاريخ . فكل ما يوجد منها

جديراً بالقبول كما هو، ينتخب ويقبل، وكل ما كان يمكن أن يجعل نافعاً للغرض بشيء من الحذف والتعديل فيستعمل بعد هذه العملية المطلوبة . ولتحقيق هذا الغرض سيكون من اللازم أن تعين لجنة خاصة من أهل العلم .

(ج) ويجب كذلك أن يستخدم رجال من ذوي العلم والفضل يؤلفون الكتب الجديدة في كل ما ذكر آنفاً من العلوم ، ولاسيما في أصول الفقه وأحكام الفقه والاقتصاد الاسلامي ومبادىء العمران الاسلامية والفلسفة القرآنية ، اذ هناك حاجة شديدة لاخراج الكتب الجديدة في جميع هذه المواضيع . ولم تعد الكتب القديمة في بابها نافعة للتعلم والتعليم . وانه لاشك أن أهل الاجتهاد والتحقيق قد يجدون فيها مادة نافعة لهم . ولكنه من العبث ومما لا جدوى فيه أن تتخذ هذه الكتب كما هي وتعلم طلاب العصر الحديث .

ولا شك في أن هذه التدابير الثلاثة لن تكفل تحقيق ذلك المقصود الذي نطمح إليه بصورة كاملة ، ولا شك أيضاً في أن هذا البناء الجديد سوف توجد فيه نقائص غير قليلة ، ولكنه لا سبب هناك للفزع منه . فان عملنا هذا سيكون أول خطوة في طريق الانشاء . وكل ما بقي فيه من النقص أو الفتور ستستدركه الأجيال الآتية ، حتى تنتج ثمراته الكمالية بعد خمسين سنة على الأقل .

٤ ـ وإن شعبة البحث والتحقيق الاسلامي ليس هذا أوانها بعد . وستكون الحاجة إليها بعد سنوات . لذلك من الاستعجال أن نقترح في بابها شيئاً .

٥ ـ إن مقترحاتي هذه يقل فيها مجال الخلافات المذهبية بين المسلمين على أنه لا بأس في أن يُستصوب علماء الشيعة في أنه إلى أي حد سيرضون أن يتعلم الطلبة الشيعيون مع الطلبة السنيين في هذا المنهج التعليمي . فان شاؤوا وضعوا لطلبتهم مشروعاً تعليمياً بأنفسهم. ولكنه سيكون الأحسن والأقوم أن يجعل للخلافات المذهبية أقل ما يكون من النفوذ في التعليم بقدر الامكان ، وربي الأجيال الآتية للفرق المختلفة تحت المبادىء والاصول المشتركة .

٦ ـ وإني اتفق مع السير محمد يعقوب كل الاتفاق على أن تواظب الجامعة على دعوة أهل العلم والفن بين آن وآخر لإلقاء المحاضرات على طلبتها في مسائل هامة . وإني أود أن تجعل جامعة عليكر مركزاً ذهنياً لا للهند وحدها بل لجميع العالم الإسلامي . فعليكم أن تدعوا أهل العلم والفضل من مسلمي مصر وسورية وإيران وتركيا واوربا ، علاوة على مسلمي الهند، لأن يأتوا هذه الجامعة ويبثوا في طلبتها روح الحياة وتنور الفكر بأفكارهم وتجاربهم ونتائج تحقيقهم . ويجب أن يستكتب مثل هذه المحاضرات مقابل أجور كبيرة، حتى تؤلف بقدر واف من التحقيق والفكر والعناية والوقت ، ويكون نشرها مفيداً لا لطلبة الجامعة وحدهم بل للجمهور المتعلم عامة !

٧ ـ ولا يصح أن تخص للتعليم الاسلامي لغة واحدة بعينها . ولا يوجد الآن في أي من اللغات الاردية والعربية والانكليزية ذخيرة كافية للبرنامج المطلوب . لذلك ينبغي أن يعلم كل ما يوجد ذا نفع في أية لغة بتلك

اللغة نفسها. ويجب أن يكون معلمو الإلٓهيات والعلوم الاسلامية جميعهم رجالاً يعرفون اللغتين الانكليزية والعربيـة معاً . وليس لرجل ذي ثقافة واحدة الآن أن يكون معلماً لاهوتياً صحيحاً .

وإني في الختام أستميحكم العفو على إطالة تقريري هذا ولكنه لم يكن بد من هذه الإطالة ، لأني أدعو إلى طريق مختلف جديد ، قد أنفقت عدة سنوات من الفكر والتأمل لتبين ملامحه . وقد انتهيت حتما إلى أنه لا سبيل إلى بقـاء وجود المسلمين القومي المستقل وحضارتهم الخاصة إلا أن يحدث انقلاب في طريقة تعليمهم وتربيتهم، وان يجري ذلك الانقلاب على هذه الخطوط التي عرضتها عليكم . ولا يخفى علي أن هناك جماعة من الناس ، ولا يقل عددهم في جامعة عليكر نفسها ، سيظنون أفكاري هذه أضغاث أحلام . فإن فعلوا فلن أستغرب الأمر ، لأن الناظرين إلى الوراء قد اعتبروا الناظرين إلى الأمام سفهاء في أكثر الاحيان . وهم محقون في اعتبارهم هذا. ولكن الذي أشاهده اليوم أني على ثقة بأنهم سيشاهدونه بعد سنوات ـ وربما في غضون حياتي ـ بعيني رأسهم، وسيشعرون بحاجة الاصلاح حينما يكون الطوفان قد عم وغمر ولم يبق بأيـديهم من فرص التدارك ما فات إلا الأقل الأنزر !

الدّاء ودواؤه

إن الدين الإسلامي ليس بعقيدة فحسب ، ولا هو بمجموعة لعدد من الأعمال والطقوس الدينية ليس إلا . بل هو برنامج تفصيلي لحياة الانسان الكاملة ، ليست العقائد والعبادات ومبادىء الحياة العملية وضوابطها فيه أشياء مختلفة منفصلة بعضها عن بعض، بل تتلاحم هذه كلها فيه وتؤلف مجموعة لا تقبل التجزئة ، ويكون بين أجزائها كمثل الارتباط الذي يكون بين أعضاء الجسم الحي .

فإن أنت بترت الرجلين واليدين من جسم رجل حي ، وقلعت عينيه وصلمت أذنيه وقطعت لسانه واستخرجت أيضاً معدته وكبده ، ونزعت رئتيه وكليتيه . وأخرجت المخ ـ كله أو جله ـ من جمجمة الرأس ، وأبقيت على شيء واحد هو القلب ، فهل سيمكن هذا الجزء الباقي من الجسم أن يحيا وينبض ؟ وإن هو حي فهل سيكون ذا نفع وغناء ؟ .

هكذا الحال مع الإسلام . فالعقائد منه بمنزلة القلب ، وما ينشأ عنها من أسلوب التفكير (Attitude of Mind) ونظرية الحياة (View of Life) ومقصد الوجود ومقياس القيم (Standard of Values) هو منه بمنزلة المخ. والعبادات أعضاؤه وجوارحه التي هو يستوي بها قائماً ويتولى العمل.

وكل ما عرفه الاسلام من مبادىء الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتنظيم الاجتماعي لحياة الانسان هو منه بمثابة المعدة والكلية وسائر الاعضاء الرئيسية . والاسلام يحتاج إلى عينين بصيرتين وأذنين سالمتين لكي تنقل إلى المخ بأمانة صورة صحيحة لأحوال العصر وظروفه . ويحكم فيها العقل حكماً صحيحاً . ويحتاج كذلك إلى لسان منضبط حتى يستطيع أن يعبر به عن حقيقة نفسه ، وإلى جو صالح نظيف ليتنفس فيه ، وإلى غذاء طيب صحي يلائم معدته ويكون دماً صالحاً للجسم .

وان القلب ـ أى العقيدة ـ وإن كانت له أعظم الاهمية في هذا النظام الكامل ، فهل تأتي أهميته هذه إلا من انه يمد سائر الاعضاء والجوارح بقوة الحياة ؟ ولئن قطع أكثر الاعضاء ، أو نزعت من الجسم أو فسدت بنفسها . فكيف يمكن القلب أن يحيا وينبض مع ما بقي من الاعضاء الناقصة المريضة ! وان بقي حياً لساعة أو اثنتين فما جدوى هذه الحياة لعمر الله !

ولنتأمل الآن ما هي الحالة التي لا نزال نرى عليها الاسلام في القطر الهندي هذا . وان القوانين الاسلامية معطلة كلها على وجه التقريب . ولا يزيد مقدار ما هو نافذ من المبادىء الاسلامية في شؤون الحياة المختلفة من الاخلاق والاجتماع والاقتصاد وما سواه على قدر خمسة في المائة . وإن البيئة غير الاسلامية والتربية اللادينية والتعليم العلماني قد جعلت العقول والاذهان غير مسلمة بصورة كلية أو جزئية . فالعيون تبصر ولكن زاوية النظر قد زاغت وانحرفت ، والآذان تسمع ولكن حاسة

سمها قد تغيرت . واللسان ينطق ولكن نطقه لم يعد بليغاً وقوياً .والرئتان لا تتنسمان الهواء الصافي لأنه قد أحاط بها من كل الاطراف جو متسمم. ولا تنال المعدة غذاء صالحاً لأن خزائن الرزق كلها قدفسدت وتعفنت . والعبادات التي هي بمكانة الجوارح والاعضاء لهذا الجسم قد أصيبت بالفشل بقدر ٦٠ بالمائة . وأما التي بقيت منها على صورتها فلم يعد لها من تأثير في النفوس ، لانها قد فقدت صلتها بسائر الاعضاء الرئيسية . فلا يزال الشلل والخدر يسري في عروقها أيضاً . ففي مثل هذه الحالة هل أنت تستطيع أن تقول : إن هذا الاسلام الذي بين أيديكم هو اسلام كامل ؟ كم من عضو وكم من جارحة أصيبت بالشلل وكم منها باقية ولكنها مأووفة لا تعمل عملاً صحيحاً . وفي وسط هذه كلها قلب واحد قد تعرض للضعف والمرض ، لأنه كما كان يمد كل تلك الأعضاء بالحياة كان يستمد هو نفسه أيضاً منها القوة والحيوية . فلما فسد عمل المخ والرئتين والمعدة والكلية جميعاً فأنى للقلب أن يظل سالماً معافى . ومن القوة الفذة لهذا القلب الحيوي الجبار انه لا يزال حياً بنفسه . وليس هذا فحسب ، بل هو لا يزال يحرك أيضا تلك الاعضاء المريضة الباقية كيفما أمكنه . ولكن هل يمكن أن يكون هـذا الاسلام المشوه المبتور على شيء من الجاذبية ليجتذب إلى نفسه الناس ؟ وهل له من القوة ما يؤثر به تأثيراً في حياة أهل الهند ؟ بل أتساءل ـ ولا قدر الله ذلك ـ هل يمكن الاسلام في مثل هذا الموقف أن يستنقذ بقية أعضائه من مزيد القطع والبتر ، بل ينجو من عوادي الموت في وجه تلك الكوارث التي لا يزال سيلها يمتد اليه بسرعة متزايدة على مرور الأيام ؟

ومن النتيجة لهذه الحالة القائمة أنه بدل أن يتحقق قول الله عز وجل (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) قد انتشرت بين المسلمين موجة البغي والانحراف عن الاسلام. وليس هناك موضع في الهند أو فيما يكتنفها من البلاد يوجد فيه النظام الاسلامي عاملا بأجزائه وأعضائه الكاملة، حتى يجتلي الناس جماله وكماله ويعرفوا الشجرة من ثمره. وإنما الذي هم يشاهدون الآن هو هذا الاسلام الأبتر الأعرج، فيظنون أن هذا هو الاسلام الحقيقي. فيقول بعض المنتمين إليه علنا أنهم ليسوا بمسلمين، وهناك آخرون يفعلون كل ما يشاؤون اللهم إلا الاباء الصريح لكونهم مسلمين، مما لا يبقى بعده من فرق بينهم وبين المنكرين للاسلام. ومنهم كثيرون قد زاغت قلوبهم، ولكنهم لما لم يكونوا أقدموا بعد على البغي الصريح، فلا يزالون مندمجين في جماعة المسلمين وينشرون فيها جراثيم البغي، حتى إذا وقعت الفوضى العامة قاموا فرفعوا أيضاً رايتهم أنفسهم. وهناك طائفة لا يجهرون بما في أنفسهم ولكنهم لا يزالون يهمسون بانه يجب أن يستعد المسلمون للاندماج في قومية جديدة وفي حضارة مستحدثة، لأن هذا الجسم الميت الذي هم يحملونه لا ينفعهم بنفسه ولا هو يتيح لهم أن يتمتعوا بتلك المنافع التي قد تنالهم بفضل اندماجهم في الأمم المواطنة الاخرى. كما أن هناك رجالاً يرون أن الحل الصحيح لهذه المسألة هو أن يبتر الاسلام ويجز عن كثير مما فيه. فهم يدعون أن المرء يجب أن يكون مسلماً فيما يخص العقائد الدينية والحركة والعمل الديني فحسب. وأما البرنامج الكامل لسائر شعب الحياة فيتخذ حسبما تعلمناه من

غير المسلمين وحسبما يعمل به غير المسلمين . ولا نـــدري هل هؤلاء منخدعون بأنفسهم أم هم يريدون أن يخدعوا الغير . وأيا كان فالحقيقة التى قد نسوها أو هم يتسونها الآن هي أن العقائد الدينية والحركة والعمل الديني يعود كل ذلك شيئاً لا روح له ولا قوة فيه إذا ما اتخذت في الحياة النظريات غير الاسلامية وجرى العمل بالمبادىء غير الاسلامية. فلايمكن أن يدوم بها الايمان طويلا ولا أن يستمر عليها العمل طويلا . لأن هذه العقائد والمبادات هي الاسس التي قد أحكمت لأجل أن يرفع عليهـا بنيان الحياة بكامله . فاذا ارتفع البنيان على أسس أخري غيرهذه الاسس الاسلامية فإلى متى يمكن أن تدوم العناية بهذه الآثار البالية القديمة في غير ماحاجة ولا نفع . وأنه سيتساءل الطفل الذي سوف ينشأ ويترعرع في نظـام الحياة الجديدة : لماذا جعل في عنقي هذا الغل الثقيل من العقائد الفضولية والشعائر غير المنتجة شيئاً ؟ ولماذا أقرأ وأومن بالقرآن الذي قد أصبحت أحكامه معطلة الآن ؟ ولماذا أومن بان ذلك الرجل الذي قد مضى قبـل أكثر من ثلاثة عشر قرناً كان نبياً حقاً ؟ ولما كان لا يهديني ولا يوجهني في هذه الحياة فأي نفع لي في الاعتراف برسالته ، وأي ضرر سيلحقني إن لم أعترف بها ؟ وأي فرق يقع باداء الصلاة وتركها وبالتزام الصوم واهماله في النظام الحياتي الذي أنامتبعه ؟ وأي ارتباط هناك بين تلك الاعمال وهذه الحياة ؟ ولماذا أبقي على هذه الرقاع غير المتلاحمة مع أجزاء حياتي !.

هذه نتيجة منطقية لفصل الدين عن الدنيا . فمتى تم هـذا الفصل من حيث المبدأ والعمل ، ظهرت هذه النتيجة لا محالة . وكما أن القلب

إذا انفصل عن سائر النظام الجسدي يفسد ويتعطل . كذلك إن العقائد والعبادات متى انفصلت عن الحياة فانه لا يبقى لها من أهمية . إن العقائد والعبادات تمد الحياة الاسلامية بالقوة والحيوية ، والحياة الاسلامية بنوبتها تمد تلك العقائد والعبادات بالقوة والحرارة. وإن بينهما — كما بينت آنفا — لصلة ما بين أعضاء النظام الجسماني الحي . وليست نتيجة قطع هذه الصلة فيما بينهما إلا موتهما جميعاً. وان ترقيع الحياة غير الاسلامية بالعقائد والعبادات الاسلامية كتركيب المخ والاعضاء الانسانية في جسم القرد .

ولا تذهبن إلى أن حالة الاسلام الحاضرة لا يزال أثرها السيء هذا يترتب على طائفة قليلة من المثقفين الجدد فحسب ، بل الحق أنه قد امتد — قليلاً أو كثيرا — إلى الذين هم مسلمون من صميم قلبهم ويحملون في قلوبهم حبا لهذا الدين وإكراما له سواء أ كانوا من أهل القديم أو الجديد وان تفكك الحياة الاسلامية لنكبة عامة لم يسلم أحد من المسلمين من نتائجها الطبيعية ولا هو يمكن أن يسلم . فكلنا لا يزال يصل اليه نصيب من تلك النتائج على حسب استعداده وان لعلمائنا ومشايخنا أيضاً نصيباً منه مثل نصيب المتخرجين من المدارس والكليات .

على أن الخطر الا كبر قد أحاط بعامتنا الذين تشغل ملايين منهم مساحة (١٠٦) مليون ميل مربع في هذا القطر . فهؤلاء لم يبق لديهم إلا اسم الاسلام ، الذي هم يحبونه حباً شديداً ، ولكنه لا من الناحية العلمية يعرفون حقيقة الشيء الذين هم متهالكون عليه ، ولا هناك من الناحية العملية نظام للحياة يقيهم من المؤثرات غير الاسلامية .فلكل مضل

أن يستغل جهالتهم فيعدل بعقائدهم وبحياتهم عن صراط الاسلام المستقيم.
كل ما يكفيك لذلك هو أن تقنع القوم بأن هذه الضلالة التي تعرضها عليهم هي عين الهدى والصواب ، أو هي ليست مخالفة للاسلام على الأقل ، ولك بعد ذلك أن تسوقهم في أي طريق تشاء ، سواء أكان ذلك طريق النبوة القاديانية أو طريق الشيوعية أو الفاشية . وإن الأزمات التي قد خلقها إفلاسهم الزائد على مر الأيام وانحلال حالتهم الاقتصادية ليس هناك في حالة الفوضى الحاضرة من يعنى بحلها حسب مبادىء الاسلام . فليس بين المسلمين جماعة منظمة تنهض في وجه الشيوعية بمبادىء الاسلام الاقتصادية والتمدنية وتحل تلك المسائل التي هي في الواقع ذات أهمية كبيرة لعامة الخلق . ومن نتيجة ذلك أن الحشد العظيم من ملايين هؤلاء المسلمين المفلسين الجياع قد أصبح لقمة سائغة للمبلغين الشيوعيين . وأما الطبقة البورجوازية فان الذين هم منهم ذوو الامل الواسع والطموح المفرط إلى نيل السلطة فهم لا يزالون أبداً يلتمسون الطرق الجديدة لاحراز القوة السياسية . وقد علمت الثورة الروسية طائفة من هذه الطبقة الآن تدبيراً جديداً هو أن يلبسوا لبوس أنصار العمال والفلاحين فيستهووا العامة الفقراء ويجعلوهم تحت يدهم ، ويذكوا في أنفسهم نار الحرص والأثرة والحسد ، ويطمعوهم في ايتائهم نصيباً من الثروة أكثر من حقوقهم الشرعية ويعدوهم حتى باغتصاب الثروة الجائرة من الطبقات المترفهة وتوزيعها عليهم وبذلك يجعل السواد الأعظم من أهالي القطر في قبضتهم فيكتسبوا السلطة التي هي حاصلة في النظام الرأسمالي للملوك والطغاة وأصحاب الملايين.
هذه الطائفة رجاؤهم في العامة المسلمين أقوى منه في العامة غير المسلمين،

لأن هؤلاء أسوأ حالا من الناحية الاقتصادية . فهم يحتالون لذلك فملا للنفوذ إلى قلبهم من طريق معدتهم ، التي هي أبداً أضعف ثغرة في جسم الانسان الجائع . إنهم ينادون القوم: « تعالوا نبين لكم الطريق الذي تزول به فوارق الغنى والفقر وتسود الرفاهية» . فاذا هرول اليهم المسلم الجائع أملا في رغيفين يقتات بهما ، دعاه هؤلاء إلى تأليه المعدة بدل تأليه الرب تعالى ، وألقوا في روعه أن الدين والايمان ليس بشيء، وان المقصود الحقيقي يجب أن يكون الخبز . فكل طريق يوفر الخبز هو الدين بعينه وهو وحده الكفيل بالنجاة .

« إن الفقير والمعوز والعبد، لا دين له ولا مدنية . ان دينه الاعم هو قطعة من الخبز يأكلها وان تمدنه الاكبر هو خرقة من الثوب يلبسها.. نعم ذلك الخبز والثوب اللذين هو يضطر أحياناً إلى أن يرتكب السرقة لاجلهما . وإن إيمانه الاعلى والأسمى هو التخلص مما هو فيه من النكبة والافلاس... الحق أنه لادين له اليوم في دنيا الافلاس والعبودية هذه »[1].

هذا هو الدرس الاساسي لدين الشيوعية . وعندما يلقن المسلمون الاميون المفلسون هذا الدرس يُقنعون في الوقت نفسه بان دينهم التقليدي لن يناله أحد بسوء .

« وأي خطر يخشى على الدين والعقائد من هذا كله ؟ وأي صلة بينه وبين هذا ؟ وإنما قد بقي الدين حياً وقوياً ومنيراً أبداً مادام محتفظاً بقوته الأخلاقية والروحية »[1] .

---

(١) هاتان العبارتان اقتبسناهما من مقال فاضل مسلم في جريدة مسلمة سيارة .

وان التأثيرات التي قد أثرتها الشيوعية الروسية في أجيال المسلمين الناشئة في روسيا خلال العشرين سنة الماضية لاتخفى على أهل الخبرة. ومثل هذا المستقبل يتهدد مسلمي الهند الآن. فنار الجوع لاتزال تنتشر لكي تلتهم متاع الايمان وتحوله رماداً. ومنبع الفساد صغيرهين بعد بحيث يمكن سده الآن بحصاة. ولكنه إن استمرت غفلتنا وإهمالنا على هذا النحو على سنوات ذوات عدد فان هذا المنبع يخشى أن يتحول إلى سيل عات لا تثبت أمامه الاطواد.

ومن التدبير النكد العقيم في هذه الظروف أن نزاول تبليغ الاسلام على طريقة المبشرين النصرانيين، وذلك أنه لايمكن أن تعود الأوضاع إلى استقامتها وإن نشرت آلاف من الرسائل والكتب لاجل اصلاح العقائد. وأي غناء الآن — يا ترى — في سرد محاسن الاسلام بالقلم واللسان؟ وإنما الضرورة الحقيقية هي أن تعرض هذه المحاسن في دنيا الواقع. وانه لن تنحل مسائل الحياة بمجرد قولنا ان مبادىء الاسلام تضمن حل تلك المسائل كلها. بل المطلوب في الحقيقة أن يجعل ما هو موجود في الاسلام بالقوة موجوداً فيه بالفعل. هذه الدنيا دار نزاع وصراع. ولا يمكن أن يغير مجراها بمجرد الكلام. وإنما يحتاج لتغييره إلى « كفاح ثائر ». ولئن كان أمكن الشيوعيين أن ينهضوا بمبادئهم الخاطئة ويضربوا سلطتهم ونفوذهم على جانب كبير من هذا العالم، وأمكن الفاشية أن تتقدم بمناهجها البعيدة عن القصد وتلقي هيبتها وجبروتها على ربوع العالم، وأمكن الفلسفة الغاندية في عدم الايذاء أن تروج وتنتشر

على رغم كونها شيئاً لا تلائم الفطرة بمجرد السعي والجهد ، فلا سبب هناك لان لا يمكن المسلمين الذين عندهم مبادىء الحق والعدل الأبدية الخالدة أن ينالوا الغلبة والسلطة في هذا العالم من جديد . ولكن هذه الغلبة لا تتحقق بمجرد الوعظ والخطابة ، بل هي تتطلب الجهد والعمل . وأن يتولى العمل على تلك المناهج التي تؤدي إلى الغلبة في العالم حقا بحسب السنة الالهية .

إن « الكفاح الثائر » كلمة غامضة عامة ، لها كثير من الصور العملية وقد يكون أكثر . فأيا نوع من أنواع الثورة يراد تحقيقه فلا بد أن تتخذ له تلك الصورة العملية التي تلائم فطرته .

وإن الثورة التي نقصد اليها لا نحتاج إلى أن نلتمس لإحداثها صورة جديدة إن هذه الثورة قد حدثت قبل هذا . وان الانسان القدسي العظيم ﷺ الذي أحدث هذه الثورة كان يعرف فطرتها جيداً ، ويمكن أن تحدث هذه الثورة مرة أخرى اليوم باتباع الطريقة التي اختارها لذلك . وان سيرة ذلك الانسان المطهر معجزة من ناحية ، وأسوة من ناحية أخرى . وذلك أنه من أين يكون لأحد اليوم أن يأتي بتلك الأخلاق العالية والتقوى والحكمة والعدل والشخصية القوية وخصائص الانسانية العليا ؟ ومن ثم كيف يمكن انسانا الآن أن يحدث ثورة في كمال ثورته العظيمة ؟ فهو من هذه الناحية معجزة ، وسيبقى معجزة إلى يوم القيامة . ولكن المثال الذي قد تركه لأمته ذاك الرجل العظيم ان خاصته الطبيعية هي الروح الثورية التي قد شهد العالم انموذجها قبل ثلاثة عشر قرنا . فكلما احتذي ذاك المثال اكثر وكلما نسج على منواله أكثر كانت النتائج اتم واشمل للروح الثورية وأقرب إلى تلك النتائج التي ظهرت بقوة ذلك الانموذج الأصلي . فهو

من هذه الناحية أسوة وسيبقى أسوة إلى يوم القيامة . وسواء ا كنت في القرن العشرين أم الأربعين . وكنت في الهند أو في أميريكا أو في روسيا يمكنك في كل زمان ومكان أن تحقق مثل تلك الثورة بشرط أن تضع أمام عينيك تلك الاسوة الحسنة .

إن الطريقة التي أختارها النبي ﷺ لإحداث الثورة في هذه الدنيا قبل نيف وثلاثة عشر قرنا لا مجال ههنا لسرد تفاصيلها . وإنما المقصود في هذا المقام هو الاشارة إلى أن فكرتي « دار الاسلام »[1] قد نشأت عن دراستي العميقة لتلك الاسوة الطيبة .

إنه لما بعث النبي ﷺ لم يكن على وجه البسيطة رجل مسلم واحد. فعرض ﷺ دعوته على الدنيا . وأصبح الناس يدخلون في دين الله رويداً رويداً ، أحاد ومثنى وثلاث . وهؤلاء الافراد مع أنهم كانوا يؤمنون إيمانا أقوى وأرسخ من الجبال ، وكانوا يوالون الاسلام ولاء تعجز الدنيا عن أن تأتي له بنظير في التاريخ كله ،ولكن لما أنهم متفرقون ومنحصرون بين الكفار ولايملكون الحيلة ولا القوة كانوا على رغم مايرهقون أنفسهم إلى حد الكلال في محاربتهم لبيئتهم ولا ينجحون في تغيير الظروف التي يجتهد لاصلاحها هم أنفسهم وهاديهم ومرشدهم — فداه أبي وأمي !فظل النبي ﷺ يعمل ويجد على هذا النحو مدة ثلاثة عشر عاماً ، حتى تهيأت له في هذه الفترة ثلة من المؤمنين الفدائيين . وعند ذلك أرشده الله تعالى إلى تدبير آخر للكفاح — وهو أن يجمع أولئك الفدائيين ويخرج بهم

---

(١) ضمت هذه الادارة في نظام الجماعة الاسلامية منذ اغسطس سنة ١٩٤١م

من بيئة الكفر إلى مكان مأمون يعمل فيه على تشكيل بيئة إسلامية ، ويبني داراً للاسلام ينفذ فيها برنامج الحياة الاسلامية كاملا ، ويؤسس موطناً تتهيأ فيه القوة الاجتماعية في المسلمين وينشىء مركز توليد كهربائي يولد الطاقة الكهربائية ويرسلها بطريق منضبط إلى أطراف البلاد ، لكي تستضيء بفعلها كل رقعة وكل زاوية على وجه الأرض . فكانت هجرته ﷺ إلى المدينة تحقيقاً لهذا الغرض . إنه أمر جميع المسلمين الذين كانوا مبعثرين في مختلف قبائل العرب أن ينضموا إلى دار الاسلام هذه ويجتمعوا فيها . وهنالك عرض الاسلام على العالم منفذاً في صورته العملية . وفي هذه البيئة الطاهرة دربت الجماعة كلها على الحياة الاسلامية تدريباً جعل كل فرد من أفرادها صورة حية للدين الاسلامي ، يكفي النظر في شخصيته وفي حركاته وأعماله ليعرف : ما الاسلام وما هي رسالته في العالم . وبلغ من شدة اصطباغ هذه الجماعة بصبغة الله أنهم حيثما ذهبوا يصبغون غيرهم بصبغتهم بدل أن يقبلوا صبغة غيرهم ، وبلغ من قوة السيرة التي خُلقت فيهم أنهم لا يعلمون الهزيمة والنكول أمام أحد ، بل ينهزم أمامهم كل من يواجههم . وركُزت في نفوسهم غاية الحياة الاسلامية بحيث أصبحت في المقام الأول في كل عمل من أعمال حياتهم ، وأصبحت المطالب الدنيوية الأخرى في الدرجة الثانوية . وبفضل التعليم والتربية كليهما جُعلوا أهلا لأن ينفذوا اينما ذهبوا ذاك البرنامج الحياتي الذي آتاهم القرآن والسنة ، ويقلّبوا كل صورة من صور فساد الاحوال ويجعلوها تابعة لهذا البرنامج .

فكان هذا التنظيم من اعاجيب التاريخ الانساني . وانه ليجدر كل

جزء من اجزائه بأن نتناوله بدراسة غائرة وتفكير دقيق . ان هذا التنظيم قد كان وُزّع العمل فيه على اربعة شعب كبيرة :

اولاها — ان تمدّ طائفة من الامة ، يتفقهون في الدين ، ويملكون الكفاءة اللازمة لان يعلّموا النـاس الدين واحكامه على أحسن طريق . (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم)[١].

والثانية — ان يعد نفر من الناس تكون حياتهم مكرسة للسعي والجهد لاقامة نظام العمل الاسلامي ونشره وتعميمه . وتكون على الجماعة ان تكفي هؤلاء مؤونة الكدح في سبيل العيش . اما هؤلاء النفوس فلا يبالوا به ابداً . وسواء أيستقيم امر معاشهم ام لا يستقيم ، ليدفعهم كلفهم الملحّ بهذا العمل الذي هو الهدف الوحيد لحياتهم ان يواظبوا عليه جاهدين . (ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)[٢]

والثالثة — ان يُخلق في نفوس الجماعة كلها الشعور بان العمل على اعلاء كلمة الله من واجب كل فرد من افرادها . فيمارس كل فرد شؤون حياته الدنيوية ولكنه يجب ان يكون هذا المقصود ماثـلا امام عينيه في كل حال . فلا ينساه تاجر في تجارته ولا فلاح في زراعته ولا صانع في مهنته ولا موظف في وظيفته . وليكن على ذكر من كل هؤلاء ان هذه الاعمال الدنيوية مقصودة للحياة ، والحياة بنفسها مقصودة لذلك العمل الجليل — اعلاء كلمة الله في الارض . ومهما تكن دائرة عمـــله فعليه ان يلتزم مبادىء الاسلام في اقواله وافعاله وفي اخلاقه ومعاملته . ومتى وقع

---

(١) التوبة : ١٢٢ (٢) آل عمران : ١١٤

التعارض بين الفوائد الدنيوية ومبادىء الاسلام فلينبذ الفوائد ولا يشوه سمعة الاسلام بالغاء مبادئه. ثم عليه ان يُنفق في سبيل الاسلام كل ما استطاع ان يوفره من الاموال والفرص ، بعد قضاء حاجاته الضرورية ، فيشارك في هذا العمل تلك الطائفة التي قد كرست حياتها له .(كُنتم خيرَ امّة أُخرِجت للناسِ ، تأمرونَ بالمعروفِ وتنهونَ عنِ المُنكرِ وتُؤمِنونَ باللهِ)[1]

والرابعة — ان تتاح الفرص لغير المسلمين ان يأتوا دار الاسلام ويمكثوا فيها ويدرسوا كلام الله في محيط تكون الحياة فيه كلها تفسير عملي لهذا الكلام الكريم . وذلك بأنهم لا جرم ان يفهموا القرآن فهماً احسن واتمّ في البيئة الاسلامية منه في بيئة الكفر ، وان يرجعوا بتأثر اقوى واعمق . (وإنْ أحَدٌ منَ المشرِكينَ استجارَكَ فأجِرْهُ حتّى يسمَعَ كلامَ اللهِ ثمّ أبلِغْهُ مأمَنَهُ) [2] .

وبهذه المناهج والطرق تمكّن الهادي الاعظم ﷺ من ان يهيئ في مركز التوليد الكهربائي بيثرب في مدة ثماني سنوات قوة هائلة جبارة غمرت جزيرة العرب كلها بضيائها واشعاعها عن غير بعيد . ثم امتدت اشعتها من العرب إلى ربوع العالم ، وحتى اليوم بعد ان مضى على ذلك نيف وثلاثة عشر قرنا لا يزال ذلك المركز التوليدي مشحوناً بذخائر القوة والطاقة .

ولما أصيب النظام الاسلامي ، بعد الخلافة الراشدة ، بكثير من

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) التوبة : ٩ .

التفكك والانحلال ، فاتباعا لهذه الطريقة النبوية اقام الصوفيـة المسلمون زواياهم هنا وهناك . ان مفهوم « الزاوية » اليوم قد انحط عندنا إلى درجة انه كلما سمع المرء بهذه الكلمة تبادر إلى ذهنه تصور مكان ناء في مغاور الجبال لا يمر فيه الهواء ولا النور ولا يتغير مظهره في شيء على طول الازمنـة والقرون . ولكن هذه « الزاوية » كانت في بداية امرها صورة للبيئة التي اقامها النبي ﷺ في المدينة . فكانت الصوفية يختارون كل من يستأنسون فيه قابلية ، فينزعونه من البيئة الفاسدة للدنيا الخارجية ، ويصطنعونـه عندهم في الزاوية لمدة من الزمان ، يربونه اجود التربية ويعدّونه لذلك العمل الذي كان يعد النبي ـ ﷺ ـ اصحابه له .

فالذين يريدون ان يحدثوا ثورة من الطراز الاسلامي فعليهم ان يرجعوا إلى تلك الطريقة نفسها من جديد . ولئن كنا لانجد خارج الهند بيئة حرة مستقلة يمكن ان تقام فيها « دار الاسلام » كالمدينة الطيبة ، فعلينا ان نقيم في هذا القطر على الاقل مراكز للتربية تهيأ فيهـا بيئة اسلامية خالصة . فتكون الاخلاق فيها اسلامية ، ويكون الاجتماع اسلاميا ، وتكون الحياة العملية على طريقة المسلمين ، ويكون الاسلام بارزا في كل جهاتها بروحه وصورته ... بيئة يكفي للدلالة فيها على كون شيء من الاشياء صحيحاً انه قد اذن به الله والرسول او أمر به ، ويعترف بكون شيء من الاشياء خاطئاً لمجرد أن الله والرسول لا يرضيانه أو ينهيان عنه .... بيئة لا يسود فيها هذا البغي والعصيان وهذا الجو غير الاسلامي الذي قد احاط بنا من كل جانب ، وحيث يكون الينـــا ـ على الاقل ـ انلا نأذن بالدخول في مجتمعنا من المؤثرات الخارجية إلا

تلك التي نجدها ملائمة للروح الاسلامية ، ونستطيع أن ندفع المؤثرات التي نجدها منافية لهذه الروح ، ونمنعها من التغلب على ارواحنا والنفوذ إلى قلوبنا واذهاننا . . حيث يتهيأ لنا جو نستطيع ان نفكر فيه كمسلم وننظر فيه إلى الاشياء بعين المسلم ، ونتمكن من تنمية تلك الصفات الاسلامية التي لاتزال تضمحل في هذا الجو المتسمم السائد على دار كفرنا هذه ، ونطهّر حياتنا من تلك الخبائث والادناس التي قد تسربت إلى أفكارنا واعمالنا لكوننا قد فتحنا اعيننا وترعرعنا في بيئة غير اسلامية ، والتي ربما لا نحس بها ، وإن أحسسنا بها في بعض الاحايين فان البيئة المحيطة لشدة تأثيرها لا تدعنا نجنب انفسنا اياها على رغم جهدنا . ومثل هذه المراكز التربوية يجب ان يجمع فيها اناس يريدون ان يخدموا الاسلام ، فيربوا تربية حسنة قويمة لهذه الخدمة. وليكن تخطيط العمل في هذه المراكز كالذي كان لعمل النبي ﷺ . فيقسم العمل — كمثله — على أربعة شعب ، ويدبّر الامر لصوغ الآدمية في قالب الاسلامية — كمثله — في كل شعبة من تلك الشعب !

١ — فلتكن هناك شعبة تشتمل على رجال ذوي كفاءة علمية عالية . فاما الذين كانوا منهم نابغين في العلوم الدينية ، فيعلّمون اللغات الغربية والعلوم الجديدة ، واما الذين كانوا متخرجين في العلوم الجديدة فيعلّمون اللغة العربية والعلوم الاسلامية . ثم يدرس هؤلاء كلهم القرآن والسنة دراسة غائرة ليتفقهوا في الدين ويتبصروا فيه ، ويفرّقوا بعد ذلك على فئات مختلفة ، تتناول كل فئة منهم شعبة واحدة من شعب العلم ، فترتب فيها مبادىء الاسلام ونظرياته على النمط العصري

الحديث ، وتفهم مسائل الحياة الجديدة وتلتمس حلها بحسب مبادىء الاسلام ، وتنتزع وجهة النظر الغربية التي قد تأصلت في اساس العلوم، وتشكلها من جديد من وجهة نظر الاسلام ، وتُخرج بتحقيقها انتاجاً علميا صالحا يملك من القوة والتأثير ما يحـــدث به ثورة فكرية في تأييد الاسلام .

٢ ـ ولتكن بعد هذه شعبة ثانية ، يعنى فيهـا باعداد « العاملين » الاكفاء لخدمة الاسلام، ممن يجب أن يكونوا ذوي الاخلاق الطاهرة، والسيرة القوية ، والعزم الراسخ، مستعدين لبذل كل ما يملكون في سبيل غايتهم ، ويكونوا منظمين في حزب ثوري قوي ، يعيشون أبسط الحياة ، ويألفون الكد والكدح، وفي أعمالهم وسلوكهم كامل النظام والانضباط، ويكون سلوكهم العملي كسلوك المسلمين الراسخين في الدين . فلينهض هذا الحزب ببرنامج لبناء نظام اجتماعي (Social Order) جديد ، وتعمير حضارة جديدة على مبادىء الإسلام ، وليعرض برنامجه على عامة خلق الله يتذرع بذلك إلى احراز أكثر ما يكون من القوة السياسية، حتى يقبض آخر الأمر على آلة الحكومة ليكون من الميسور تحويل حكم الظلم والعدوان إلى حكم العدل والنصفة .

٣ ـ والشعبة الثالثة يجب أن تشتمل على الذين يريدون أن يمكثوا في مركز التربية مدة قليلة، ثم يرجعوا، فهؤلاء ينبغي أن يحلوا بالعلم الصحيح والتربية الاخلاقية ، ثم يخلى سبيلهم ليذهبوا ويعيشوا حيثما شاؤوا ، ولكن عيشة اسلامية مستقيمة ، ويؤثروا في غيرهم بدل أن يتأثروا بهم ،

ويكونوا أشداء في مبادئهم راسخين في عقائدهم ولا يحيوا حياة لا تستهدف غاية ، بل يجب أن تكون أمامهم غاية للحياة في كل حال ، ويكتسبوا أرزاقهم بوسائل شرعية طيبة . ويكونوا مستعدين في كل حين لمعاضدة العاملين في الشعبة الثانية التي ذكرت آنفاً ويمدوهم أيضاً بالاموال ، ويشاركوهم فعلاً في الكفاح ، وحيثما عاشوا يعملوا على إعداد الجو هناك لمناصرة الحزب الثوري .

٤ ـ والشعبة الرابعة : يجب أن تضم المسلمين وغير المسلمين الذين يريدون أن يأتوا مركز التربية ليستفيدوا منه في المسائل العلمية ، أو هم يريدون أن يطالعوا الحياة كما هي فيه . فهؤلاء يجب أن يتاح لهم كل ما يمكن من الفرص لذلك ، لكي يرجعوا حاملين في أنفسهم تأثراً عميقاً بالاسلام وتعليمه .

هذه خطوط بارزة للنظام الذي هو عندنا بمثابة المقدمة اللازمة لاحداث الثورة الاسلامية . ويتوقف نجاح هذا النظام تماماً على أن يأتي أكثر ما يكون مماثلا في روحه وجوهره لذلك النظام الانموذجي الذي أقامه النبي ﷺ في المدينة الطيبة .

ولا يفهمن أحد من هذا الامتثال لحياة المدينة الطيبة أيام النبي أننا نقصد المماثلة في المظاهر واللون الخارجي ، ونريد أن نرجع القهقري من مرحلة التمدن هذه التي قد وصلت إليها الدنيا إلى مرحلة التمدن التي كانت عليها العرب قبل نيف وثلاثة عشر قرنا . إن هذا المفهوم لاتّباع الرسول وأصحابه بيّن الخطأ وأكثر رجالنا الدينيين يستمدون منه خطأ

هذا المفهوم لا غير . فاتباع السلف الصالح عندهم عبارة عن أن نلبس مثل ما كانوا يلبسون ، ونأكل ما كانوا يأكلون ، ونتبع الطراز الحياتي الذي كان يتبع في بيوتهم، وأن نحاول الابقاء على الحالة المدنية والحضارية التي كانت تسود عصرهم . بصورة متحجرة (Fossilized) إلى يوم القيامة . وأن نغمض أعيننا عن كل ما يحدث من تطور فيما خارجَ بيئتنا من العالم ، ونضرب حول عقولنا وحياتنا سياجاً لا تدخل فيه حركة الزمان ولا تطورات العصر . ان تصور الاتباع هذا الذي لم يزل غالباً على أذهان رجالنا الدينيين منذ قرون من التقهقر والانحطاط يناقض في الحقيقة روح الاسلام . وليس من التعليم الاسلامي في شيء أن نعيش في هذه الدنيا كماديات أثرية تحيا وتتنفس، ونعرض حياتنا على أهل الدنيا كمسرحية تاريخية للتمدن البائد. إن الاسلام لا يعلمنا الرهبانية ولا التعبد القديم ، ولا من غايته أن يُخرج في الدنيا أمة لا تنفك تحاول منع التطور والارتقاء . بل هو يريد ـ بخلاف هذا ـ أن يخرج أمة تعمل على عدل التطور والارتقاء عن الطرق الخاطئة وتسييره على الطريق القاصد الصحيح فهو لا يعطينا قالباً بعينه لا يتبدل ، بل هو يزودنا بالروح ويريد منا أن نصب هذا الروح في كل ما يتجدد من قالب للحياة تبعاً لتغير الزمان والمكان إلى يوم القيامة . ولما كنا جُعلنا في هذه الدنيا خير أمة فمن رسالتنا في هذه الدنيا ـ من حيث أننا مسلمون ـ أن نتولى القيادة والزعامة، لا أن ننجر كساقة الجيش (Rear - Guard) وراء السائرين في طريق الارتقاء إلى الامام وقد خلقنا حقاً لان نكون مقدمة الجيش، ويكمن سر كوننا خير أمة في كلمة « أخرجت للناس » .

إن الاسوة الحقيقية لرسول الله ﷺ وأصحابه ، التي يجب علينا أن نتبعها الآن هي أنهم استخدموا القوانين الطبيعية تبعاً للقوانين الشرعية . فقاموا بخلافة الله في الأرض أحسن ما يكون من القيام فالتمدن الذي كان يسود عصرهم حينئذ بث هؤلاء في قالبه روح الحضارة الاسلامية . وكل ما كان قد وقع تحت يد الانسان من القوى الطبيعية اتخذه هؤلاء خادماً لتلك الحضارة . وكل ما جاء به التمدن من وسائل الغلبة والرقي استعمله هؤلاء قبل أن يستعمله الكفار والمشركون لكيما تكون حضارة القائمين بخلافة الله غالبة على حضارة الباغين على الله . وهذا هو الذي كان علمهم الله تعالى في كتابه ، حيث قال :(وأعدُّوا لهمْ ما استطعتم). فكانوا أرشِدوا إلى أن المسلم هو أحق وأجدر من الكافر باستخدام تلك القوى التي خلقها الله ، بل المسلم هو وحده الحقيق بذلك .

وبناء على ذلك كله فإن الصورة الصحيحة لاتباع النبي وأصحابه اليوم هي أن نأخذ الوسائل التي قد تجددت بفضل ارتقاء التمدن واكتشافات القوانين الطبيعية فنعمل على تسخيرها للحضارة الاسلامية كما فعلوا في العصور الاولى. إن ماهنالك من النجس والدنس ليس في هذه الوسائل بذاتها ، بل هو في تلك الحضارة المادية الالحادية التي تروج وتنتشر بقوة هذه الوسائل. فالاذاعة ليست بشيء نجس في نفسها، وإنما النجس هو الحضارة التي تجعل مدير الاذاعة ناشراً للخلاعة والمجون ومنادياً للاكاذيب والاضاليل. وليست الطائرة بشيء نجس ، وإنما النجس هو الحضارة التي تستخدم ملك الهواء هذا تبعاً لمغريات الشيطان بدلا من مرضاة الرحمن. وليست السينما كذلك شيئاً نجساً، وإنما النجس في الحقيقة هو الحضارة التي تستعمل هذه القوة الفعالة من تخليق الله لإشاعة الوقاحة

والفحشاء في الناس . وليس من السبب في رواج هذه الحضارة النجسة وانتشارها في الأرض سوى أن أصحابها لايزالون يستخدمون لنشرها وترويجها كل ما خلق الله من القوى الطبيعية التي اكتشفها الانسان إلى الآن . فإن كنا نريد الآن أن نقوم بهذا الواجب الذي يقع علينا لنشر الحضارة الالهية في الارض، فلا بد أن نستخدم نحن أيضاً تلك القوى الطبيعية . إن تلك القوى مثلها كمثل السيف كل من استعملها انتصر ، سواء أكان استعماله لغرض خبيث أو مقصد شريف . وان اقتنع ذو المقصد الشريف بشرافة مقصده ونبله، ولم يستعمل السيف ، فهذا خطؤه ولا بد أن يلقى عاقبته في مضمار الحياة . لان سنة الله في عالم الاسباب والمسببات هذا لم تكن لتبدل من أجل فرد من الافراد أو امة من الامم.

ويتضح جلياً من هذا البيان أن هذه الحركة التي أقدم فكرتها ليست بحركة رجعية (Reactionary) ولا هي حركة تقدمية تستهدف الرقي المادي فحسب . وأن المركز التربوي الذي أطمح اليه بيصري لا انموذج له في (جروكل كانجرى)[1] ولا في (صومعة ستياجرا)[1] ولا في مدرسة (شانتي نكيتن)[1] ولا في معهد (ديال باغ)[1] ، وكذلك إن الحزب الثوري الذي أتخيله في ذهني لا انموذج له في (الحزب الفاشي الايطالي) ولا في (الحزب الاشتراكي الالماني) . وان كان لذلك المركز وهذا الحزب انموذج في شيء فما هو الا مدينة (الرسول) و (حزب الله) . الذي تم تشكيله على يد النبي العربي ﷺ .

---

(١) كل هذه مؤسسات تعليمية أقامها الهنادك القوميون في الهند لتربية الجيل الناشيء منهم على الحماس القومي والحضارة الوطنية الهندكية في تلك العصور. وكان من الثمرات الملموسة لهذه المعاهد في الشباب الهندكي ما جعل بعض رجال المسلمين ينظرون اليها بعين الإعجاب ويودون لو يقيمون أمثالها عندهم .

الفهـــرس

ص	
	مقدمة
١	عبوديتنا الفكرية وأسبابها
١٩	انحطاط حضارة الاسلام في الهند
٣٠	الأمم المريضة في العصر الحديث
٤٣	بين الشريعة الربانية والقانون الوضعي
٦٠	انتحار الحضارة الغربية
٧٢	خطبة اللورد لوثين
٩٢	النزاع بين الشرق والغرب في تركيا
١٠٨	خداع المذهب العقلي
١٢٥	خداع المذهب العقلي ـ أيضاً
١٣٩	تهافت مذهب التجدُّد
١٥٨	النقص الاساسي لخطتنا التعليمية
١٧٣	المنهج السديد لتعمير كيان الامة
١٨٥	طلائع الثورة على الدين
١٩٨	الفساد الاجتماعى

٢٠٩ الايمان والاطاعة

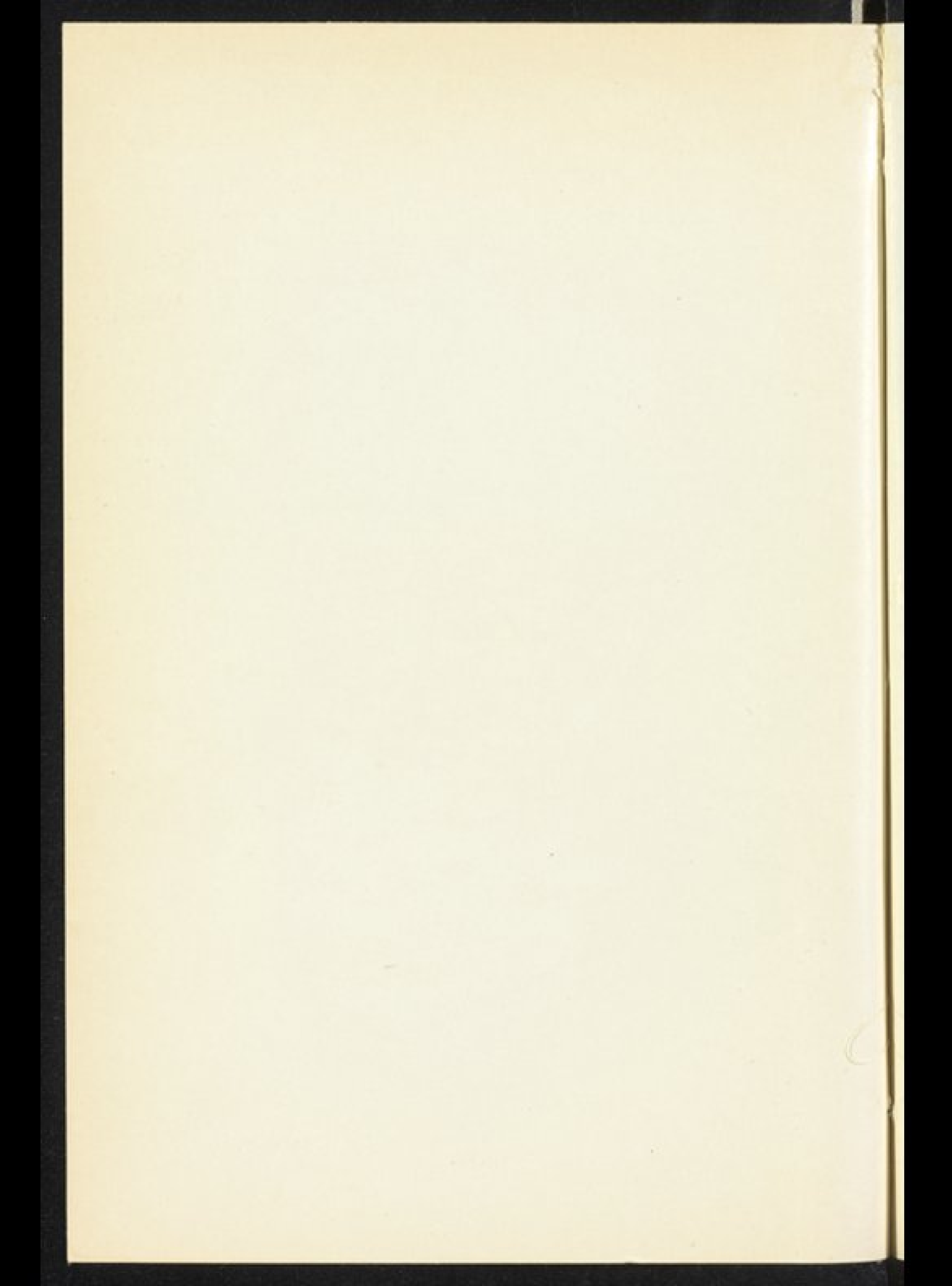
٢١٧ المفهوم الحقيقي لكلمة « المسلم »

٢٢٩ المصدر الحقيقي لقوّة المسلم

٢٤٢ شِرْعة الابطال ، لا شِرعة الضّعاف الانكال

٢٥٦ الخطة التعليميّة الجديدة لمسلمي الهند ـ ومنهاج العمل بها

٢٨٢ الداء ودواؤه



٣٥٠ ق.س

